

1

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

سلسلة الأعداد الخاصة

و. نبيل فاروق

الزئير

Looloo

www.dvd4arab.com

مقدمة

منذ سنوات طوال ، ومع بداية كتابتي لسلسلة من المقالات ،
عن الجاسوسية ، في مجلة الطيباب المصرية ، نصحنى العيديدون
بجمع تلك المقالات فى كتاب ، يصبح وجبة دسمة ، لكل المهتمين
بعالم الجاسوسية والمخابرات ..

ولكننى لم أشعر يومها بأننى قد قدّمت ما يكفى لإصدار مثل
هذا الكتاب ..

وبعد عدة سنوات ، ومقالات تجاوزت المائة ، أدركت أن إصدار كتاب كهذا قد أصبح أمراً حتمياً ..

وعندما أدركت هذا ، كانت المقالات قد بلغت حدًا يستحيل معه أن يحتويها غلافًا كتاب واحد ..

بل تحتاج إلى سلسلة من الكتب ..

لذا فقد قرّرت البدء فوراً ، في إصدار مثل هذه السلسلة ..

سلسلة تجمع كل ما نشر ، في مجلة (الشباب) المصرية ، من
(صفحات من تاريخ الجاسوسية) .. ولكنها لا تنشر المقالات
بترتيبها ، بل على نحو يجمع المقالات الخاصة بموضوعات منتقاة
بعضها ، أو بموضوع واحد متصل ..

روايات مصرية الجيب
سلسلة الأعداد الخاصة

حرب الإخوان المسلمين

صراع العقول
الذى يتفوق دوماً
على اعشى الأسلحة
والعادات

بريد

الأستاذ / إسماعيل دياب

بشر الخ

الأستاذ / محمدى مصطفى

جميع الحقوق محفوظة للنشر
وكل اقتباس أو تقليد أو ترديد
أو إعادة طبع بالتزوير محرم
الترنكب للمعالجة القانونية

طباعة ونشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع بالقاهرة - لطابع: ١٠ شارع لطف الله
الصناعية بالعجيزة - مناطق البيع ١ - ١٦ شارع كامل صديقي القليظة - ١ شارع الإسماعيلي مستشفي الفيكي
رواقى - مصر الجديدة - القاهرة ٣٨٢٧٧٩٢ - ٥٩٠٨٩٥٥ - ٢٩٨٦١٩٧ فاكس ٢٠٢ ٢٥٩٦٥٥٥ - ٥٥٥ -
٢ شارع بنوى - مصر - الإسماعيلية -

وكان من الطبيعي أن يجمع الكتاب الأول مجموعة للمقالات ،
الخاصة بعمليات المخابرات ، قبل وأثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣م
العظيمة ..

ومع هذا الكتاب الأول ، أقدم شكرى وتحيتى إلى استاذى
الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) ، الذى منحنى فرصة تقديم هذه
الأعمال فى مجلة (الشباب) ..

وإلى الأستاذ (حمدى مصطفى) ، الذى حرص على نشرها ، وعلى
تقديمها فى أفضل صورة ، تناسب القارئ المصرى والعربى ..

وإلى رجال المخابرات العلمية المصرية ، على تعاونهم واهتمامهم ،
وتضحياتهم ، وسماحهم بنشر بطولات ، ظلت طويلاً تحت إطار
السرية المطلقة ..

وأخيراً إلى الأم ، التى من أجلها فعلت ، وفعل الرجال ، كل
ما يستحق للتسجيل ..

إلى (مصر) ..

و. نبيل فاروق



أسمع .. أرى .. ولا أتكلم ..

خيم الهدوء تمامًا على تلك المنطقة من حي (مصر الجديدة) ..
في ليلة من ليالي (نوفمبر) عام ١٩٦٨م ، دخلت الشوارع
تقريبًا من المارة ، مع برودة الطقس ، التي تزايدت إلى
ما يفوق معدلاتها الطبيعية ، في تلك الفترة من العام ، على
الرغم من أن الشتاء لم يلق بثقله بعد ، وأغلق الناس نوافذهم ،
وقبعوا في بيوتهم ، ينعمون بشيء من الدفء ويكتفون
بمشاهدة (التلفزيون) ، ومتابعة برامج وأفلامه ، ونشرات
الأخبار ، التي أشارت إلى جهود الرئيس (جمال عبد الناصر) ،
لإعادة بناء الجيش والشعب ، والاستعداد لخوض معركة قادمة ،
لا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) وحده متى تندلع ..

وفي أحد الشوارع الرئيسية في المنطقة ، توقفت سيارتان
كبيرتان ، أمام بناء من طابقين ، وألقى أحد ركابهما نظرة على
ساعة يده قبل أن يقول في حزم وانضاب :

- والآن ..

ولم يكذب ينطق الكلمة ، حتى انفتحت أبواب السيارتين في آن
واحد ، واندفع منهما عدد من الرجال نحو ذلك المبنى الصغير ،
وتعالى وقع أقدامهم ، وهم يصعدون إلى الطابق الثاني منه قبل أن
يدق قائلهم باب الشقة المجاورة للسلم ، وينتظر في صمت وحزم :

ولم تمض دقائق معدودة حتى فتح رجل قصير أصلع الباب ،
وحقق في الوجوه في ذعر واضح ، وهم ببقاء سؤال ما ، لولا
أن يادره قائد المجموعة قائلًا :

- الرائد (عادل) .. من المخابرات العامة المصرية .

اخترقت العبارة أذن القصير كرصاصة ، انتفض لها جسده
كله في عنف ، وزاغت عيناه ، وارتجفت ركبته ، ولم تقو
ساقاه على حمله ، فتهالوى أمام الرجال ، الذين اندفعوا نحوه
والتقطوه في خفة ومهارة ، وقادهم يكمل في صرامة :

- أظنك تعلم لماذا نحن هنا ؟

لم يجب القصير ، وإنما اتهم باكيًا في حرارة وجعل يبكي ،
ويستعطف ، ويتضرع ، ويتوسل ، طوال الفترة التي استغرقها
الرجال في تفتيش منزله ، وإخراج أدوات التجسس ، والتصوير ،
والخبر السري من مكانها ، وحتى وهم ينطلقون به إلى أحد
الأمكن التابعة للمخابرات العامة ، حيث أخذ يدلى باعترااف
كامل في انهيار واستسلام ، بعد أن أدرك أنه لم تعد هناك فائدة
في الإنكار ..

وفي حزم سلكه وكيل النيابة :

- هل تعرف لحساب من تصل يا رجل ؟

لوماً القصير برأسه بإجلابا ، وهو يقول :

- لحساب المخابرات الإسرائيلية .

مط وکیل النبیة شفّتیة فی ازدرآء قیل أن یلقى عددًا آخر
من الأسئلة ، بدأها قائلًا :

.. کیف كنت تحصل علی المعلومات ؟

« ازدرآء الجاسوس لعابه فی صعوبة ، وهو یجیب منهارًا » :
.. من الإنصات إلى أحادیث الناس فی كل مكان .. إنهم
یتحدثون كثيرًا عما عرفوه ، أو رأوه ، أو سمعوه ، وكل ما أفعله
هو أنني أنقل كل ما أسمعہ إلى الإسرائيلیین .

راح وکیل النبیة یلقى أسئلته الأخری ، فی حین توقف عقل
الرائد (عادل) طویلًا عند هذا الجواب ..

نعم .. أكثر من نصف ما یحصل علیه العدو ینتس من
الإنصات السلبي للأحادیث العابرة ..

والناس لا تدرك أي جرم ترتكب فی حق الوطن ..

كل من یعرف حقيقة ما ، أو سمع أمرًا ما ، یتباهی
بالحديث عن معلوماته فی كل مكان ، دون اهتمام أو حذر أو
تقدير ..

فی العمل ، والبيت ، والشوارع ، وحتى فی المسینما
والمسارح والمقاهی وأماكن اللهو والمرح ..

وهذا التسریب الرهیب یخدم العدو ، بأكثر مما تخدمه
طائراته ودباباته وعرباته المصفحة والمقاتلة ..

ولم ینم الرائد (عادل) لیلتها ، وهو یفکر فی هذا الأمر ،

الذی استحوذ علی تفكيره وشغل عقله واستولی علی کلماته كله
حتى مطلع الشمس ..

وفی ساعة مبكرة من النهار ، كان یدخل مكتبه ویلنقظ ورقة
كبيرة ، ویبدأ فی وضع الخطوط العریضة لفكرة نبئت فی رأسه
فی المساء ، وراحت تنمو وتنمو ، حتى صارت شجرة وارفة ،
غزيرة الأغصان ، طیبة الثمار ..

وفی التاسعة وأربع دقائق بالتحديد ، كان یطرح فكرته علی
مائدة البحث ، فی حجرة الاجتماعات الخاصة فی الجهاز ، وفی
حضور المدير نفسه ، مع عدد من الضباط القدامی ، والخبراء
المعهودین ..

علی الرغم من أن الخطة كانت مكتملة من جمیع الجوانب ،
وتشتمل علی بیان مفصل بالجهود التي ینبغي بذلها ، إلا أنها
بدت للوهلة الأولى خیالية مرهقة ، كفیلة بیث روح الیأس فی
قلب أكثر الرجال تفاؤلًا ومثابرة ..

لقد أعد الضابط الشاب خطة محكمة وبعيدة المدى ، لإقناع
الناس بإغلاق أقواهم ، وبأن كل معلومة تتسرب منهم إلى
العدو تعنی أن طریق النصر سیمصبح أكثر بعدًا ، إن لم ینسد
أمامنا تمامًا ..

وناقش الرجال الخطة من كل جوانبها ، لأكثر من ثلاث ساعات
كاملة ، وأخيرًا ربت المدير براحته علی سطح مائدة الاجتماعات ،
وهو یتهد ، قائلًا :

- بعد كل هذا ، هل تعتقد أنه بمقدورك أن تقوم بهذه المهمة يا (عادل) .

أجابه الضابط الشاب في حسم وحماسة :

- بكل تأكيد .

أوما المدير برأسه متفهما ، قبل أن يقول :

- فليكن .. ابدأ على بركة الله .

وكان هذا إيذانا ببدء الخطة ، التي تعتمد على شن حملة ضخمة ، على كل المستويات لتوعية الناس بضرورات الأمن ، وتعريفهم بأساليب العدو في جمع المعلومات ، ومنعهم من الإفشاء بما لديهم في كل مناسبة - وبدون مناسبة - وسد الثغرة التي تتسرب منها الأسرار .

وعندما بدأ (عادل) خطته ، كان يدرك جيدا أن الخطوة الكبرى والأولى ، بل والعمود الفقري للخطة كلها هي الدين ، فلا بد أن يدرك الناس ، من خلال جهات يمنحونها كل ثقتهم ضرورة كتمان الأسرار ..

ولا توجد جهات لهذا الغرض ، أفضل من دور العبادة ، فغالبية المواطنين يترددون عليها بانتظام ، ويؤدون فيها مناسكهم وصلواتهم ، والتوعية من خلالها ستجد حتما الصدى المطلوب في نفوس الجميع ..

ولتحقيق هذا الغرض ، كان من الضروري أن يفهم رجال

الدين الفكرة ، ويستوعبوها ، ويقتنعوا بفائدتها وضرورتها ، حتى يمكنهم نقل هذا إلى مستمعهم ..

وعلى الرغم من أن طبيعة العمل في أجهزة المخابرات لا تميل قط - بل وربما تتنافى تماما - مع العلانية ، والاجتماعات الرسمية ، إلا أنه كان من الضروري أن يعقد الرجل اجتماعا موسعا مع رجال الدين ، من شيوخ وقساوسة ، ليتحدث إليهم مباشرة ، ويشرح لهم فكرته والأسلوب الأمثل لتعاونهم معه على تحقيقها ..

وكانت الفكرة ناجحة بحق ..

لقد افتنع الجميع بالفكرة بسرعة ، ولقد أضفى قيام ضابط مخابرات بشرح القضية جدية وخطورة على الموقف ، فتفاعل معه رجال الدين في حماسة ، واستوعبوا الموقف كله ، واتفقوا معه في الرأي تماما ..

وفي الأيام التالية بدا من الواضح أن الفكرة كانت مدهشة وناجحة إلى حد مدهل ، فقد انطلق خطباء المساجد ، والقائمون على الوعظ في الكنائس ، ينبهون الناس إلى ضرورة التزام الصمت ، حتى لا يستفيد العدو من أسننتنا ، وكان لحماسهم وإخلاصهم أثره البالغ في استجابة جموع الشعب للفكرة بسرعة مدهشة ، كما اتضح بشكل قاطع في السنوات التالية ..

ولكن الجعبة لم تكن قد فرغت بعد ..

فيعد رجال الدين ، جاء دور الطوائف الأخرى ، التي يمكنها التأثير في الجماهير ، التي تكتسب ثقتها واهتمامها ، مثل الأدباء والصحفيين ، ومؤلفي الأغاني ، ومعد التمثيليات ، ومخرجي المسلسلات الإذاعية والتلفزيونية ..

وفي هذه المرة ، عقد الرجل معهم اجتماعاً موسعاً أيضاً .

صحيح أن هذا يتعارض كثيراً مع نظم العمل في أجهزة المخابرات ، التي تحبذ السرية والصمت ، إلا أنه أروع ما في هذه النظم هو أنها ليست جامدة أو متحجرة ، وإنما يمكنها أن تتغير وتتبدل ، طبقاً للظروف ومقتضيات الموقف ..

ومن هذا المنطلق ، شرح الرجل الفكرة للحشد الذي اجتمع لينصت إليه ، وطلب منهم أن يعملوا على شد انتباه المواطنين ، من خلال ما يقدمونه من مقالات وكتب ، وروايات ، وأعمال فنية وترفيهية ، إلى الخطر الرهيب ، الكامن في الأحاديث غير المسنولة في الشوارع والمصانع ووسائل المواصلات ، وينبهوهم إلى مزايا الصمت والتكتم ، وحجب أنباء المنشآت والأسلحة والنوايا ..

ومرة أخرى أتت الفكرة ثمارها على نحو مذهش ..

لقد انطلق سبيل من الروايات ، والكتب ، والمقالات ، والمسلسلات ، والبرامج الإذاعية والتلفزيونية بغمر وسائل الإعلام ، ويملاً أسماع وعيون وعقول الناس ، على نحو لم يسبق له مثيل ..

وفي حملة ، لتفقد الناس حول أجهزة الراديو ، لمتابعة مسلسل (كلاب الحراسة) الذي كتبه (كمال إسماعيل) ، ابن الراحل (محمود إسماعيل) ، وأخرجه للإذاعة الفنان (على عيسى) ، ثم لم يلبث المسلسل أن تحول إلى (التلفزيون) ، من إخراج (نور الدمرداش) ، فتضاعف نجاحه مرات ومرات ..

وتواصل السبيل ، ليكتب (محمود صبحي) في برنامج (عيلة مرزوق أفندي) ، ويكتب (رأفت الخياط) (البعثة ٦٩) ويقدم (محمد كامل) (المصيدة) ، في حين أخرج (محمد شرابي) عشر تمثيليات في برنامج (صور من الحياة) حول الفكرة نفسها ، وقدم (على عيسى) برنامجين ناجحين (من قصص الجاسوسية) ، و (الحرب النفسية) كما شارك (فائق إسماعيل) بمسلسلين (اللسان والجاسوس) ، و (لا أسمع .. لا أرى .. لا أتكلم) ..

ومع تقديم هذه الأعمال تضاعف الحماس أكثر وأكثر ، وتضاعفت درجة الوعي ، وبدأ الناس يدركون أهمية إمساك الألسنة ..

ولكن الحملة لم تتوقف ..

والسبيل لم ينقطع ..

لقد قدم (محمد سعيد) برنامج (جند الله) ، في حين تبني

مذيع البرامج الدينية الأشهر (أحمد فراج) لفكرة في برنامجه (نور على نور) ، وجذبت الإذاعة الأذان والعقول والقلوب بثلاث خماسيات ، لاقت نجاحاً كبيراً في حينها ، وهي (تنكرة إلى أئينا) ، و (كمين) ، و (صراع حتى النهاية) ..

وفي نفس الوقت كان العشرات من أصحاب الأقلام يقدمون المقالات ، في الصحف المختلفة ، مثل (حصين فهمي) ، و (أنيس منصور) ، و (عبد السلام داود) ، و (صلاح هلال) ، و (جميل عارف) ، و (عبده مباشر) ، وغيرهم ..

وعلى الرغم من كل هذا النجاح ، ومن أن الدعوة قد وجدت طريقها إلى مختلف قطاعات الشعب على نحو شديد الإحساس والاستمرارية ، إلا أن رجل المخابرات كان يشعر بأن هناك شيئاً ما ينقص خطته ..

صحيح أن الناس تدرك الآن خطورة التشديق بالمعلومات ، والتباهي بالأهداف ، إلا أن العديد منهم مازالوا يتخذون موقفاً عدائياً من جهاز المخابرات العامة بعد المناخ الذي ساد عقب نكسة يونيو ١٩٦٧م ، والذي حاول البعض خلاله تشويه صورة الجهاز ، والانتقاص من قدره ، ونسب العديد من الأعمال المنافية للأخلاقيات إليه ، دون مبرر أو دليل ..

وكان من الضروري أن يتم تصحيح هذه الصورة ، وتعريف

الناس بحقيقة عمل المخابرات العامة ، وبأنها الدرع الواقية للبلاد ، والسبيل الأمثل لحماية الوطن من أعدائه خارج الحدود وداخلها ، وفي سبيل هذا الهدف النبيل ، فباتها تسعى للحصول على معلومات عن العدو وتأمين أفراد الشعب ومعداته ومنشآته ، بمكافحة التجسس والتخريب ، وأنه لا صلة لها قط بأعمال القمع ، التي لم ولن تدخل في نطاق عمل المخابرات ..

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف الجديد ، استعان (عادل) بواحد من أفضل وأبرع من توغلوا أدبياً في عالم المخابرات ، وهو الراحل (ماهر عبد الحميد) - رحمه الله - وطلب منه أن يكتب مقالات أسبوعية ، في إحدى الصحف الكبرى ، للتعريف بعمل المخابرات وأهميته ، وقال له في تأثر واضح ، وهو يشرح له ضرورة بذل أقصى الجهود ، لتوعية الشعب في هذا المضمار :

- هل تتصور أن أحد الجواسيس قد عرف بتحريك فرقة كاملة من فرق الجيش ، من حديث جنديين يثرثران في قطار ؟ وأن آخر نقل معلومات ثمينة عن الخواصات ، بعد أن استمع إلى رجل يعمل في قاعدة من قواعد تمويل الأسطول ؟ ثم تنهد في مرارة ، وهز رأسه في أسف ، قبل أن يستطرد :

- والأدهى أنك تسمع الناس ، وهي تطلق على إحدى محطات الأتوبيس - وبكل بساطة - اسم (محطة المطار السري) .

واقتنع (ماهر عبد الحميد) بضرورة المشاركة في هذه الحملة ،
خاصة وأنه جاسوس سابق ، كان له الفضل في الإيقاع
بشبكة تجسس إسرائيلية وإلقاء القبض على جاسوس بالغ
الخطورة ..

ووقع اختياره على فكرة جديدة شيقة ..

لقد نشر لأول مرة في (مصر) ، عملية تجسس حقيقية ،
بكل تفاصيلها ، التي لا تخل بمتطلبات الأمن ، تحت عنوان
(قصتي مع الجاسوس) ..

وكانت هذه تفاصيل العملية التي أسهم فيها بنفسه ، منذ
عدة سنوات ..

وكان لهذه الخطوة ، كسابقاتها ، تأثير مدهش على الناس ،
الذين أدرکوا وربما لأول مرة ، مقدار الجهد الذي يبذله رجال
المخابرات العامة المصرية والمخاطر التي يتعرضون لها
ويواجهونها ، وأهميتهم البالغة في الحفاظ على أمن الوطن
وسلامته ..

ونجحت الحملة أكثر وأكثر ، حتى إن جريدة (جيروزاليم
بوست) الإسرائيلية قد نشرت مقالاً ، في عددها الصادر بتاريخ
١٩٧٢/٤/٢٦م ، تحذر فيه بشدة من مغبة الحملة المكثفة ،
التي تقوم بها الأجهزة المصرية والإعلام المصري ، لتوعية

الشعب وإقناعه بضرورة الصمت وكتمان الأسرار ، وتقول :
إن تأثير هذه الحملة لن يؤدي إلى تقليص كمية المعلومات ،
التي يجمعها عملاء للمخابرات الإسرائيلية فحسب ، وإنما
سيتمدد إلى تغيير وتبديل مواقف بعض العملاء ، الذين يعملون
ضد الدول العربية الأخرى أيضاً ، ثم تؤكد ضرورة أن تعيد
المخابرات الإسرائيلية تقييم موقفها ، في ظل هذه الحملة
المكثفة ..

وعندما قرأ (عادل) هذا المقال ، ارتسمت على شفطيه ،
وفي أعماقه ابتسامة ارتياح كبيرة ، وطرح شعوره هذا في
الاجتماع الدوري ، الذي يتم عقده في الجهاز بحضور المدير
شخصياً ، لمتابعة نتائج الحملة وتطوراتها ، والخطوات
المقترحة لتحسينها ، وقال في اهتمام :

- أعتقد أن هذا يعني أن الحملة تؤتي ثمارها في وضوح ،
حتى إنها أصبحت تزعج الإسرائيليين بشدة .
والفقه معظمهم ، في حين قال المدير :

- هذا صحيح ، ولكن لنزعاجهم سيدفعهم إلى بذل المزيد من
الجهد لإنهاء خطتنا ، وتطوير وسائل جمع المعلومات لديهم
وهذا يعني مواصلة الحملة بجهد أكبر ، وحمايتها من أية
محاولات لتثوية الهدف منها أو تحطيمها .

دارت مناقشات الرجال حول هذا الأمر لفترة ، ولكنهم اتفقوا على أنه قد نجحت الحملة إلى حد كبير بلا شك ..
ولقد تأكد هذا تماماً ، مع الاستعدادات التي سبقت حرب أكتوبر ١٩٧٣ م ، عندما كانت تحركات قطع الجيش واضحة للجميع ، في قلب (القاهرة) ، التي قطعها قوافل للدبابات ، والمدفعية ، والذخائر ، والوقود ، وعربات نقل الجنود ، ووحدات الرادار الميدانية ، أمام أعين الجميع ، دون أن تتفك الأسن ، أو تفقد زمامها ، كما كان يحدث من قبل .. بل إن (عادل) قد اختبر هذا بنفسه ذات يوم ، وهو يركب سيارته الصغيرة المصرية الصنع ، قاطعاً الطريق الزراعي ، في طريقه إلى (الإسكندرية) ، فقد لمح ما بدا له أنه طائرات جاثمة بين الحقول ، فتوقف ليمسأل فلاحاً كهلاً عن تلك الطائرات ، فتعقد حاجباً الرجل ، ورفع رأسه في تحفز ، وكنهه فارس يستعد بسيفه لقتال شرس ، وقال في صراحة :
- ليس هذا من شأنك يا رجل .

ومن المؤكد أن نفس ذلك الفلاح الكهل قد امتلأت بدهشة لاحدود لها ، مع تلك الابتسامة الكبيرة الراضية ، التي ارتسمت على شفتي (عادل) ، وملأت وجهه ، على الرغم من صرامة الجواب وفظاظته ، وهو ينطلق بسيارته مواصلاً

طريقه ، ولكنه لم يدرك أبداً أن ذلك الجواب الصارم قد أثلج صدر رجل المخابرات ، كما لم تفعل أعظم كلمات المدح والتهنئة ..
لقد أدرك الآن فقط أن الحملة قد نجحت نجاحاً منقطع النظير ..

وأن المصري البسيط مازال يسمع الأسرار ويراهها ..
ولكنه لم يعد يتكلم بشأنها ..
أبداً ..



حرب الإدارة (٤٤) ..

اتهمرت الأمطار في غزارة غير مسبوقة ، في تلك الليلة من ليلالي شتاء ١٩٧٠م ، وانخفضت معدلات الحرارة أكثر من المعتاد ، فلزم الناس منازلهم ، وخلت شوارع (القاهرة) من المارة باستثناء أولئك الذين تضطروهم ظروف عملهم إلى الخروج ، مهما كانت الظروف والملايسات ..

ومن بين هؤلاء كان (خالد) ..

ضابط مخابرات شاب ، قطع طريقه تحت الأمطار الغزيرة في خطوات سريعة ، وخصلات شعره المبتلة تلتصق بجبينه ، وحاجباه المعقودان ، مع نظراته المركزة على الطريق كما يوحيان بأنه لا يشعر حتى بالمطر المنهمر ؛ لأنه غارق حتى أذنيه في تفكير عميق ، شغل عقله ، وأرهق ذهنه منذ ما يزيد على ساعتين كاملتين .

وفي آلية ، أبرز بطاقة هويته لحارس مبنى المخابرات ، الذي ابتسم وهو يلقي عليه التحية ، دون أن يلقي نظرة واحدة على بطاقته قائلًا :

مساء الخير يا (خالد) بك .

لم ينتبه الضابط الشاب إلى التحية ، وهو يواصل طريقه بنفس الآلية ، حتى بلغ ذلك المكتب من الطابق الثاني من المبنى ، والذي



بشاركه فيه زميل نحيل ، لم يكذب ولمحه ، حتى ارتفع حاجباه قسرياً دهشة ، وهو يقول :

مسء الخير يا (خالد) ماذا أصابك يا رجل ؟ تبدو وكأنك خرجت على الفور من أعماق البحر !! ألم تكن تحمل مظلة ؟

رفع (خالد) عينيه إليه ، وكأنما يراه لأول مرة ، وتمتم :

- مظلة ؟ لماذا ؟

ضحك النحيل ، مكرراً :

- لماذا ؟ قل لي يا (خالد) : ألم يخبرك أحد أن السماء تعطر بفزارة منذ غروب الشمس .

خلع (خالد) معطفه ، وألقاه على مقعد خشبي أمام مكتبه ، وهو يتمتم :

- آه .. العطر .

انعقد حاجبا زميله ، وتطنّع إليه بضع لحظات في دهشة ، قبل أن يسأله :

(خالد) . ما الذي يشغل بالك هذه الليلة ؟

نظر إليه (خالد) لما يقرب من نصف دقيقة كاملة ، قبل أن يجيب في ضيق واضح :

- فكرة تسيطر على عقلي منذ عدة أيام ، ويبدو أنها قد بلغت نروتها الليلة ، ولم تعد تحتمل أن تظل سجيئة في أعماقه لكثير من هذا .

اعتدل النحيل ، وهو يسأله في اهتمام :

- أية فكرة هذه ؟

بدا الاهتمام على وجه (خالد) ، وهو يجيب :

- الإسرائيليون يعتمدون ، في جزء كبير من حربهم على الشائعات ، وأساليب الحرب النفسية ، في محاولة للتأثير على معنويات شعبنا ، وبث روح الضعف والانهزام في أعماقه ، فيتحدثون عن قوتهم الأسطورية ، وجيشهم الذي لا يقهر ، و .. و .. فلماذا لا نتبع معهم الأسلوب نفسه ؟ لماذا لا نحاربهم بالسلح ذاتة ، الذي يستخدمونه ضدنا ؟ لماذا لا تكون لدينا إدارة خاصة لهذا الغرض ؟

ارتفع حاجب النحيل ، وهو يهتف في حماس :

- فكرة مذهلة يا (خالد) هل حاولت عرضها على الرؤساء ، في الاجتماع الدوري ؟

هز (خالد) رأسه نفياً ، وهو يقول في حزم :

- ليس بعد . لم تكن الفكرة قد اختبرت في رأسي بعد ، أما الآن ، فأنا على أتم الاستعداد لعرضها ، والدفاع عنها لو اقتضى الأمر .

كن حمسه مشتعل بالفكرة ، حتى إنه لم يمض أسبوع واحد ، إلا وكان يجلس مع عدد من خبراء الجهاز لمناقشة الفكرة ، حول مائدة الاجتماعات ..

ومن المؤكد أن الأمر قد راق للجميع ، ولأقلى استحيائهم
وتأييدهم ، حتى إن أحدهم لم يعترض عليه قط ، وإن قال المدير
في اهتمام مشوب بالقلق :

- المشكلة الوحيدة أنه ليست لدينا اعتمادات كافية لإنشاء
إدارة جديدة ، ولا يوجد حتى مكان لبدء عملها في الوقت الحالي

هز (خالد) رأسه في حزم ، وهو يقول :

- لا بأس . يمكنني أن أتولى هذا الأمر ، وأن أتجاوز تلك
العقبات .

وهكذا ، وفي نفس الليلة ، حصل (خالد) على الموافقة
الرسمية لإنشاء تلك الإدارة الجديدة ..

وفي الليلة الأخيرة من عام ١٩٧٠ م ، بدأت الفكرة تتخذ
خطواتها العملية الأولى . لتتحول إلى حقيقة ..

ففي تلك الليلة ، وصل مندوب من جهاز المخابرات العامة إلى
(ماهر) أحد ضباط الجيش السابقين ، وأحد الذين تعاونوا بكل
جهدهم ، وغامروا (بحياتهم ونفسها) لحساب المخابرات العامة
المصرية ، من أجل الوطن ، وسلمه رسالة تطالبه بالحضور إلى
أحد الأماكن التابعة للمخابرات ، في العاشرة من صباح اليوم
التالي ..

وعندما وصل (ماهر) ، في الموعد المحدد بالضبط كان في
استقباله (خالد) ، مع ثلاثة من الرجال ، قدمهم إليه قائلاً

إنهم زملاؤه في إدارة جديدة للحرب النفسية ، مهمتها هي كتابة
منشورات موجهة إلى المجتمع الإسرائيلي ، لتهز ثقتهم في قيادتهم ،
وبث روح الضعف والاستسلام في نفوسهم ، وتحطم روحهم
المعنوية ..

وفي نهاية حديثه ، قال (خالد) للرجال الأربعة . وهو يقودهم
عبر ساحة المبنى إلى بقعة ما في نهايتها :

- المشكلة الوحيدة هي أنه ليست لدينا اعتمادات مالية كافية .
ولكنني واثق أنه باستطاعتكم تجاوز هذه النقطة .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف في حزم :

- من أجل الوطن .

كان لجملة الأخير مفعول السحر . في نفوس الجميع ، حتى
إن أحدهم لم يعترض ، أو يبال بالاعتراض على المقرر الذي قدم
لهم . والذي بدا من راحته أنه كان مخزناً قديماً للوقود . ولم
يحاول أحدهم حتى أن يشكو من تلك المقاعد البالية والمكاتب
القديمة ، التي وضعت في المكان ..

لقد بدعوا عنهم في حماس ، وراحوا يصلحون المقاعد
والمكاتب . ويضيفون بعض اللمسات الجمالية الأنيقة هنا وهناك ،
حتى حولوا مخزن الوقود القديم إلى مقر لإدارتهم الجديدة ، التي
ظلت ولفترة ما ، بلا اسم أو رقم ..

ولكنها بدأت عملها على الفور . ومنذ اللحظة الأولى . تبين للضابط (ماهر) أن أحد رفاقه الثلاثة هو رئيس الإدارة . فقد اتخذ لنفسه مكتباً كبيراً ، وعقد لهم اجتماعاً فورياً ، ثم قسم العمل بينهم ، فأُسند لأحدهم كل ما يختص بالجيش الإسرائيلي . وللثاني ما يتعلق باليهود الشرقيين (السفرديم) ، ثم أعطى (ماهر) أمر اليهود الغربيين (الاشكازيم) ، وبعدها قال لهم في حزم :

- المطلوب من كل منكم الآن أن يعد منشوراً باللغة العبرية للقطاع المحدد له ، وأن تعملوا . من خلال هذه المنشورات على بث روح اليأس في نفوس من تحاطبونهم ، بأسلوب غير مباشر ، اعتماداً على معرفتكم لعقلية هذه الطوائف الإسرائيلية ، والظروف الاجتماعية السائدة فيها .

ثم التفت نفساً صمقاً ، قبل أن يستطرد :

- سأتولى بنفسى التعامل مع طائفة اليهود المولودين داخل (إسرائيل) ، أو ما نطلق عليه اسم (السابرا) ولكنى أعدكم ببذل كل ما يمكننى من جهد ، للحصول على كل ما يمكن أن يفيدكم من معلومات ، وعلى الصحف اليومية الإسرائيلية فى انتظام . ولكن لا داعى للإسراف فى التناول ، فهذا كله مرهون بإمكانيات ليست فى متناول يدنا بشكل كامل بعد .

كان يعلم أن كلاً منهم له خبرة سابقة فى التعامل مع

الإسرائيليين ، من خلال عمليات سرية ، وأنهم يصلحون تماماً للمواقع التى اختارها لهم ، لذا فقد دفعهم لبدء العمل دون إبطاء ، ومنح كلاً منهم رزمة من الورق ، وطقماً دقيقاً من الأقلام لرخيصة ، وبعض أدوات الكتابة الأخرى ..

وبدأت الإدارة الجديدة عملها ..

وعندما أمسك كل منهم قلمه ، واستعد لبدء عمله ، أعاد ذلك الرئيس على مسامعهم نصيحة تقليدية ، لا يمل رجال المخابرات المحنكين من ترديدتها على أذان الجدد قط .

- لا تترك أية أوراق فى مكتبك ، ولا تكتب كلمة واحدة ، قبل أن تتأكد من أن ورقك فوق جسم صلب .

وطوال الأيام التالية ، انهمك الجميع فى العمل بحماس شديد ..

كانوا يلتفتون الأبحار المثيرة للاهتمام ، فى الصحف الإسرائيلية ، ويراجعونها مع ما ورد إليهم من مطومات ، ثم يصوغون منشورات منتهبة ، تكشف بعض الحقائق للشعب الإسرائيلى ، مع إضافة بعض للتوفيل والمشهيات إليها ؛ لإحداث التأثير المطلوب ..

ولكن أحداً منهم لم يعلم مصير المنشورات التى يكتبها بالضبط ..

كانوا يؤنون عملهم فحسب ، ثم لا يلقون أية أسئلة عما يسفر عنه ذلك ، كما تنص تعليمات وقواعد العمل فى المخابرات .

و ذات يوم ، ألقى أحدهم تساؤلاً حول مصير منشوره ، الذي كُتبه للجيش الإسرائيلي ، فصغت رئيسه لحظت ، ثم أجاب في حزم :

- واجبتنا هو أن نكتب ما يطلب منا فحسب ، ولا شأن لنا بمصيره فإما أن يلقى في سلة المهملات ، أو فوق رءوس الإسرائيليين .. هذه مهمة الآخرين .

وعلى الرغم مما في هذا الجواب من غموض محبط إلا أن الرجال الثلاثة كانت لهم خبرات سابقة ، جعلتهم يتفهمون طبيعة عمل المخابرات ويتقبلونها ، ويواصلون عملهم بنفس الاهتمام ، دون أن يتكرر هذا السؤال على ألسنتهم قط .

وبين حين وآخر ، كان (خالد) يحضر لزيارتهم ، ويتابع عملهم ، ويستمع إليهم ، ويتناقش معهم ، ويتعرف مطالبهم ، ثم يختفي لفترة أخرى ..

وبعد أشهر قليلة ، انضم إلى المجموعة شاب قصير قوى البنية ، لم يرق للمجموعة في البداية ، إلا أنه لم يلبث أن اكتسب اهتمامهم واحترامهم بشدة عندما فوجئوا بأنه يعرف أسماء المدن والقرى والشوارع والأرقعة في قلب (إسرائيل) ، وكأنما عاش هناك طفلة عمره ، وكانت لديه إجابة فورية على أى سؤال يتعلق باليهود وحياتهم ، وعن المجتمع الإسرائيلي بأدق تفاصيله ..

وأيضاً كانت له ذاكرة مدهشة ، حتى إنه يحفظ تاريخ كل شركة

ومكتب ومتجر إسرائيلي عن ظهر قلب ، إلى جوار أسماء المسؤولين ومعاونيهم حتى الفئة الثالثة ..

ثم أضيف إلى الإدارة عدد من الموظفين ، والعاملين على الآلة للكتابة ، وضم إليها رئيسها جراحاً قديماً ، ونجح في إحضار سيارة لنقل الجميع إلى منازلهم ، و(فراش) لإعداد المشروبات الساخنة وعصير الليمون ..

وبدا العمل يتخذ صورة أكثر متعة ..

وفي ديسمبر ١٩٧١م ، وصل أول خبر عن وجود منشوراتهم في (تل أبيب) ، وعن اهتمام الإسرائيليين بها ، وبدأونها سرّاً ، وأكد أحد التقارير أنها تصل إلى جنود الجيش الإسرائيلي في خنادقهم ، وأن بعضهم ينجح في تهريبها إلى أسرته ..

وكان هذا أسعد خبر تلقته الإدارة الجديدة .

وكان للدليل الأول على نجاح عملها ..

لما للدليل الثاني ، فقد جاء على لسان رئيسهم ، عندما اجتمع بهم ، وقال في حزم :

للمعلومات التي سأخبركم بها الآن بالغة السرية ، وينبغي أن تتسوها فور استغلالها في كتابة منشوراتكم .

كان هذا يعني أن منشوراتهم صارت لها أهمية بالغة ، وبلغ تأثيرها مداه ، بين مختلف طوائف الشعب الإسرائيلي ..

وبدا هذا شديد الوضوح في مايو ١٩٧٢م ، عندما أصبح من حق الإدارة أن تطلب ما تشاء من معلومات ، يمكن أن تليد عملها ..

ولكن في بداية عام ١٩٧٣م ، أطل هذا النجاح برأسه في وضوح ، وأعلن نفسه على نحو لا يقبل للشك .

هذا لأنه في هذه الفترة بالتحديد ، أصبحت إدارتهم إدارة مستقلة وحملت اسم الإدارة (٤٤) ، وأصبح لها أوراق مطبوعة بهذا الاسم ، ومكاتب رسمية يزورها أفرادها ويتباهون ..

ومع هذا التطور ، استدعى الرئيس المباشر (ماهر) إلى مكتبه ، وطلب منه الجلوس ، ثم مال نحوه ، قائلاً :

- أظنك لاحظت أننا أصبحنا إدارة رسمية ، وأصبح لنا اسم واضح وهو الإدارة (٤٤) ، وسيؤدي هذا بالطبع إلى اتساع عملنا وتطوره ، مما سيضطرنا إلى الاستعانة بعدد من الموظفين والعاملين ، ولقد قررت إسناد مهمة اختيار هؤلاء الجدد لك

شعر (ماهر) بالفخر والسعادة ، وهو يقول في حماسة :

- سأبذل قصارى جهدي لاختيار العناصر الجيدة

أوماً الرئيس برأسه متفهماً ، واعتدل في مقعده ، قائلاً :

- قبل أن تفعل هذا ، ينبغي أن تدرك جيداً أننا لا نحتاج إلى عناصر عدوانية ، أو من المؤمنين بضرورة الحل العسكري .

بل على العكس ، نريد اختيار أولئك الذين يؤمنون بالسلام ، وبأن الحل السلمي هو أفضل الحلول .

شعر (ماهر) بالدهشة لهذا القول ، ولكنه لم يكن يملك الاعتراض أو المناقشة ، مادامت هذه هي السياسة العامة للدولة وقيلاتها السياسية ..

وحصل (ماهر) على مكتب جديد لاختيار المتقدمين ، تعلوه آية قرآنية تحض على السلم ، داخل إطار أثيق ، وبناء على تعليمات رئيسه المباشر ، ورئيسهما (خالد) ، وضع على مكتبه ملفاً كبيراً ، على نحو يوحي بالإهمال ، وفوقه وضع كتباً يخفى جزءاً من عناونه ، ولكن يترك للقسم الأكبر من هذا العنوان ، الذي يوحي بأن السياسة العامة تتجه نحو الحل السلمي ..

ولأن (ماهر) جاسوس قديم ، وله خبرة سابقة في العمل السري ، وفي التعامل مع الإسرائيليين بالتحديد ..

ولأن ضابط الحالة في عملياته السابقة كان (خالد) نفسه ، فقد أدرك أن كل هذه التفاصيل المدروسة تحمل بدون شك رسالة خاصة ، يراود توصيلها إلى القيادة الإسرائيلية على نحو ما ..

ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، راح يختبر المتقدمين بكل اهتمام ، ويلقى عليهم الأسئلة المدروسة ، لتسلي تحديد ميلهم للحلول العسكرية أو السلمية ..

وفي النهاية وقع الاختيار على أصحاب الميل للحل السلمي
وحدهم ..

وفي الدورة التدريبية ، التي تلقاها هؤلاء الجدد ، أوضح
رئيس الإدارة الجديدة أن الهدف من إنشائها هو دفع الإسرائيليين
إلى إلقاء السلاح ، وإلى الإيمان بالسلم بدلاً عن الحرب ، وأنهى
محاضراته بهبة واضحة :

- لا بد أن نعترف بالحقيقة بلا مواربة .. إننا لا نستطيع
خوض حرب مباشرة مع إسرائيل مادامت (أمريكا) تسادها بكل
قوتها ، وأنه لا بديل أمامنا عن السلم ، بأي ثمن كان ..
وكانت هذه أكبر خدعة في تاريخ الإدارة (٤٤) ..

لقد أدرك رجال المخابرات المصرية أن أمر الإدارة الجديدة قد
انكشف للإسرائيليين ، وأنهم يسعون لدس بعض عملائهم بين
صفوفها ، فحولوها إلى إدارة مستقلة ، ومنحوها ذلك الاسم
الجديد (الإدارة ٤٤) ، ثم أضيفوا عليها سمعة السعي للسلم ،
حتى يثق الإسرائيليون بأن المصريين لا يفكرون أو يخططون لأية
حروب في المرحلة القادمة ..

ثم كانت المفاجأة في السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م ..
ففي ذلك اليوم حدث العبور العظيم ، وحطمت قواتنا خط
(بارليف) الأسطوري ، وبحرت أسطورة جيش (إسرائيل) الذي
لا يقهر ..

وفي اليوم نفسه أنقذت المخابرات المصرية القبض على اثنين
من الموظفين الجدد في الإدارة ، والتي سمحت لهما بالانضمام
إليها من قبل ، لتستخدمهما كوسيلة لخداع الإسرائيليين ..
وبعدها أصدر (خالد) قراره بإنهاء الإدارة (٤٤) ، بعد أن أدت
مهمتها بنجاح ، وربحت الحرب التي أنشئت من أجلها .
حرب الكلمة ..
والعقل ..

★ ★ ★

الدرس ..

استيقظت (مصر) كلها ، فى الخامس من يونيو ١٩٦٧م ،
على خبر مهم ، قطعت وسائل الإعلام بثها التقليدى لتذيعه
على الناس ، بصوت مذيع شهير ، يفيض بالقوة والثقة
والحماسة ، وهو يعلن أن (إسرائيل) قد شنت علينا غارة
جوية ، انتهت بسقوط عدد من طائراتها ، دون أن نتكبد نحن
أية خسائر تذكر ..

واشتعلت القلوب باللهفة والحماسة ، واندفع الجميع إلى
أجهزة الراديو ، يستمعون منها إلى البلاغ تلو الآخر ، عن
حرب ضروس ، تدور رحاها عند خط المواجهة ، وتتقدم فيها
قواتنا بنجاح ساحق ، يفوق كل ما نقله إلينا التاريخ ، من
انتصارات ساحقة ، وبطولات مدهشة ، وتتساقط فيها طائرات
العدو كأسراب من الذباب ، سقطت فى فخ ميد حشرى قوى .

ولم يكد النهار ينتصف ، حتى بات الناس على ثقة ، من أن
قواتنا لن تلبث أن تدخل (تل أبيب) ، رافعة رايات النصر خلال
الساعات القليلة القادمة ..

ثم كنت المفاجأة ..

والنكسة ..

وانهار الحماس فى النفوس ، وتكوم مع المرارة فى أعماق
القلوب ، ثم توارى خلف الخوف والقلق ، والمظاهرات الصاخبة ،



الدرس

التي انطلقت تطالب للقائد بالعدول عن التتحي ، ومواصلة
المسيرة ، حتى يتحقق الثأر ، ونستعيد الأرض السليبية ..
وكان لابد من قربان ، لامتصاص أثر الهزيمة من النفوس ،
والقاء المسئولية على كاهله ، وتبرئة القيادة السياسية ،
ليحتفظ البعض بمقاعد السلطة ، ولتنشغل الجماهير عن البحث
عن الأسباب الحقيقية للنكسة ..

وهكذا بدأت حملة تشهيرية عيفة ، ضد إحدى قلاع الأمن
في البلاد ..
المخابرات العامة ..

وفجأة ، في يوم وليلة ، أصبحت المخابرات هي المسئولة
عن الصجون ، والمعتقلات والتعذيب ، وكل إجراءات القمع
الداخلية ، التي عانى منها الشعب لسنوات وسنوات ..

ووسط كل هذا أصدر (موشى دايان) وزير الدفاع
الإسرائيلي - حينذاك - كتاباً عن ذكرياته الحربية ، تحدث فيه
عن استخدامه لخطة هجومية واحدة في حربى ١٩٥٦ م ،
و ١٩٦٧ م . مبرراً هذا بعبرة متعالية متطرسة ، قال فيها :

لم يكن هذا عسيراً ، أو حتى مجرد مجازفة ، لأن العرب
لا يعرفون القراءة ..

وامتلأت نفوس رجال المخابرات بالتملوة . وهم يتابعون
تلك الحملة الشرسة ، دخلياً وخارجياً ، ولكنهم ترفعوا عن

الدخول في تلك الحرب . التي ستضر ، أكثر ما تضر ، أمن
الوطن وسلامته ، ثم إنه لم يكن لديهم في الواقع وقت كاف
لإضاعته في مثل هذه الأمور ، وهم يقومون بواجبهم . الأكثر
رفعة وسموا ، لحماية الوطن من الأعداء الذين يتربصون به
خارج الحدود . وجمع المعلومات عنه ، بكل الوسائل الممكنة .
لحماية وتأمين المنشآت والمعدات ، ومكافحة كل محاولات
التجسس والتخريب والتصدي للحرب النفسية ، التي يحاول
العدو بها النيل من معنويات الشعب . واستغلال الهزيمة لتدمير
كيانه . وتحطيم إرادته ودفعه إلى قبول الأذى الواقع ، والرضا
بهزيمة لم يكن له شأن فيها ..

وظنت عبارة (دايان) تؤثم الرجال ، في مناسم الصمت
الممكن دليلاً ، في حقائق القبة ..
للعرب لا يعرفون القراءة ..

وفي أحد اجتماعاتهم الدورية ، ذرأه أثار العدوان .
والإعداد لخطة استعادة الثقة ، وأثار من العدو . طرح المدير
هذه العبارة ، وهو يواجه الرجال قائلاً :

من الواضح أن انتصار الإسرائيليين في حرب ١٩٦٧ م . قد
ملأ نفوس الإسرائيليين بالغرور . وجعلهم يتفخون زهوا
وخلاء ، حتى أنهم تصوروا أنها نهاية للمباراة . وليست مجرد
جولة من الجولات . لا يمكنها أن تحسم الأمر إلى الأبد . مهما
بلغ عنفها .

ثم مال إلى الأمام ، وتألقت عيناه ، وهو يضيف في حزم :

- ولكننا سنستغل غرورهم وزهوهم هذا ، لنرد لهم الصاع صاعين ، ونلقتهم درساً لا يمكن أن ينسوه ، مهما طال الزمن .

كان لكلماته الحازمة القوية ، التي تحمل ثقة واضحة ، ورفضاً معلناً للاستسلام للهزيمة أثر قوى في نفوس الرجال ، الذين تدفق الحماس في عروقهم ، وجرى فيها مجرى الدم فأقبلوا على مناقشة خطة استعادة الثقة في اهتمام بالغ ، جعل أحدهم يقول :

- الواقع أن كل ما نفعله لن نكون له فائدة ، لو ظلت صورتنا قائمة على هذا النحو ، في عيون الشعب

سأله المدير :

- ما الذي تقترحه بالضبط ؟!

أشار بيديه في حماسة ، قائلاً :

- خطة كبيرة للتوعية ، لتعريف الشعب بطبيعة عمل جهاز المخابرات ، وبأهمية وجوده ، لحماية أمن الوطن ، والحفاظ على سلامته .. خطة لإعلان دورنا ، دون الإخلال بمبدأ السرية ، وإبراز البطولات في مضمارنا ، على نحو لا يكشف للعدو أساليبنا أو خباياتنا .

كانت فكرته جريئة ومفاجئة للغاية ، خاصة وأن أعمال المخابرات ، في كل دول العالم ، تعتمد على السرية المطلقة .

والكتمان التام ، ويحيط بها الغموض من كل النواحي ، حتى ترددت مقولة شهيرة ، تعبر عن طبيعة عمل المخابرات معلنة :

النجاح سر لا يعرفه أحد ، والهزيمة فضيحة على كل المستويات .

وكان من الطبيعي أن يثير الاقتراح اهتمام الجميع ، وأن تطول مناقشته لأكثر من ثلاث ساعات كاملة ، قبل أن يلقى موافقة الجميع ، ويتم إسناده - كالمعتاد - إلى صاحبه ليتولى أمره ، ويعمل على تحويله إلى حقيقة ..

كان هذا في أوائل عام ١٩٦٩م ، بعد أن هدأت حملة التشهير الضيقة ، واستقر الأمر في جهاز المخابرات العامة ، وبدأ التفكير فعلياً وعملياً ، في الإعداد لحرب الثأر القادمة .

ولم يمض شهر واحد على هذا الاجتماع ، حتى انتشرت في كل المصالح والوزارات ، وحتى وسائل المواصلات العامة ، ملصقات تدعو إلى الحفاظ على الأسرار ، والحذر من العدو ، وعدم للثرثرة فيما يمكن أن يمنح خصمنا معلومات جديدة .

وعبر وسائل الإعلام ، تلقى الناس عشرات الدروس في هذا المضمار ، ما بين الرسوم الكاريكاتورية بين البرامج ، لتوضيح أساليب العدو ، في الحصول على المعلومات ، والبرامج التليفزيونية والإذاعية ، والمسلسلات التي تدور حول الجاسوسية ، ودور المخابرات في مواجهتها ، مثل مسلسل

(كلاّب الحراسة) . الذى كتبه (كمال إسماعيل) وأخرجه
للإذاعة الثّقان (على عيسى) . وللتليفزيون المخرج الراحل
(نور الدمرdash) . وعشر تمثيلات . أخرجه (محمد شرابي) .
فى برنامج (صور من الحياة) . وخماسية (تذكرة إلى أثينا) .
التي كتبها (طبعث المرصفي) . وخماسية (كمين) للكاتب
(حسن عبد الله) . كما تسمى المذيع الذائع (أحمد فراج)
قصبة الأمر والحمية . فى برنامجة الثّينى (نور على نور) .
وقده (على عيسى) برسامحين عن الأمر نفسه . أحدهما
بعنوان (من قصص الجواسيس) . والثّانى تحت اسم (الحرب
النفسية) ..

وراحت الحمير تتابع تلك البرامج والمسمّلات فى ضعف
واهمام . وتتداعى معها بكيّاتها كنه . كما بدأت تنتبه . وربما
بمرة الأولى . إلى الدور الحقيقي لجهاز المخابرات العامة .
وإلى الجهد المصنّى . الذى يبذلّه طوال الوقت . دون كلل أو
مثل . من أجل الحفاظ على أمن الوطن وسلامته .
ومن المؤكد أن الصورة قد تغيرت كثيراً ..

ونكن (ع) . صابط المخابرات . الذى تم إسناد العملية
إليه . ثم يشعر بأنه قد حقق أهدافه بعد . أو أن المهمة قد بلغت
الغاية المنتظرة منها

فما زال فى جعبته المزيد . والمزيد . والمزيد .

وفى نوفمبر ١٩٦٩ م . اتصل (ع) بضابط جيش سابق .
عمل ذات يوم لحساب المخابرات العامة . ونجح فى إسقاط
شبكة جاسوسية ضخمة . فى عملية مبهرة . كان نهى صدى
رائع فى أيامها . ثم لم يلبث أن أصدر كتاباً عن العملية كتب .
برز فيها أسنوبه الأدبى المنمق . وظهرت معه براعته
المدهشة . فى صياغة الأحداث . على نحو شيق جذاب . شد
انتباه الجميع فى حينه ..

وعندما التقى (ع) مع (ماهر) . طرح عليه الخطوط
العريضة . والهدف المنظر منها . دون الدخول فى التفاصيل .
ثم مال نحوه . يسأله فى اهتمام :

- قل لى يا (ماهر) .. أنت على استعداد لتعاون معي ؟

قبل أن يجيبه (ماهر) كال (ع) يستطرد فى حماسة
إننى أود لو نشرت عدداً من المقالات الاسوعية . فى إحدى
الصحف أو المجلات . بهدف توعية الشعب بأساليب العدو
وجواسيسه . فى قلب مشرق . يجذب اهتمام قطاع كبير من
الناس . ويغرس الهدف المنشود فى أعماقهم

وبعد مناقشة طويلة . تم حلانها طرح كل حوائب الموضوع .
وتحليل كل مايمكن تقديمه للمواطن العادى . الذى لايعلم
الكثير عن طبيعة عمل المخابرات . ثم الاتفاق على النقاط
الرئيسية للأمر . وتصافح (ماهر) و (ع) فى حرارة . والاحير
يقول :

.. مرحباً بك بين الصقوف ، ووفقك الله (سبحانه وتعالى)
في مهمتك للصيرة .

وفي التاسع من يناير ١٩٧٠ م . دخل (ماهر) مكتب رئيس
تحرير أخبار اليوم - آنذاك - الكاتب الكبير (إحسان عبد
القديس) الذي راح يناقشه في أحب جم - كعادته - عن الفوائد
التي تكمن في نشر تلك المقالات ، التي كانت عبارة عن عملية
تجسس ، تنشر بتفاصيلها الحقيقية ، دون الإخلال بقواعد
ومتطلبات الأمن لأول مرة في (مصر) .

وفي صباح السبت ، السابع عشر من يناير ، قرأت (مصر)
كلها تلك المقالات المثوقة ، على صفحتين متقابلتين في أخبار
اليوم ، على رأس إحداها صورة كبيرة للكاتب (ماهر) ، الذي
كان يواجه تجربته الأولى في عالم الكتابة للنصحف .

وكان لتلك المقالات صدى هائل ، في مصر كلها ، حتى إن
أعداد الصحيفة كانت تنفذ فور صدورها ، وكان القاريون
يتحدثون عنها في مجالسهم الخاصة والعامة ، ويرددون
عباراتها في حماس ، وكأنهم قد شاركوا بأنفسهم في مواجهة
العدو ، والتعامل معه ، وإمقاطه في النهاية .

وقفز (ماهر) فجأة ، من شخص عادي إلى كاتب شهير ،
ينتظر الناس مقالاته في لهفة ، من أسبوع إلى أسبوع .

وغنى عن الذكر أن نقول : إن (ع) كان أكثر الجميع سعادة
بما حدث ، ولقد بدا هذا واضحاً ، في أحد الاجتماعات ، التي تم

عقدتها في جهاز المخابرات العامة ، لمناقشة تطورات الخطة ،
وهو يقرأ تقريره للجميع ، ثم يتنسم ابتسامة كبيرة قائلاً :

أعتقد أن نجاح مقالات (ماهر) قد أصبح واقعاً مفرحاً أيها
السادة ، وأنتم ترون النتائج بأنفسكم ، صباح كل سبت .

قال المدير في حسم :

- هذا صحيح .. لقد حقق (ماهر) المطلوب منه بالضبط .

صمت (ع) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- ليس بعد في الواقع .

سأله أحد زملائه في حيرة :

- ما الذي تنتظرونه من الرجل أكثر من هذا ؟

صمت (ع) بضع لحظات أخرى قبل أن يميل إلى الأمام
مجبباً في حزم وإقتضاب :

- الكثير ..

كانت هذه الكلمة بداية لمنقشة طويلة ، استغرقت الليل كله تقريباً ،
قبل أن يتم اتخاذ قرار حازم بشأنها ، تنفس (ع) بعد الصعداء ،
واستعاد ابتسامته الوثيقة الكبيرة ، المفعمة بالثقة والارتياح ..

وفي الصباح التالي ، حررت المخابرات مذكرة لوزير
الحربية ، بشأن ما اتفق عليه في اجتماع الليلة السابقة .

ولم تمض أيام قليلة ، حتى كان وزير الحربية قد ذيل

المذكورة متوفيه . وأشر عليها بالموافقة . لبدأ (ماهر) عمله الجديد ، في مجال التوعية واستعادة الثقة ..

لقد تقرر ان ينقى سلسلة من المحاضرات اليومية ، في مدارس الجيش ، استمع اليها آلاف الضباط والجنود . ليس بسبب مصمونها انشئ واستورها الحذاب فحسب . ولكن أيضا بفصل ذلك لاسنوب المبتكر . الذي استخدمه (ماهر) ببدء محاضراته . حيث كان ينطق مكبر الصوت . ليقول في لهجة حاسمة حازمة :

- أيها السادة ان حاسوس . وودو التحدث اليكم .

كاست هذه البداية تحذب اهتمام الجميع في شدة . مما جعلهم يهتمون كنماته انشائية في نهج ونهضة . حققت الهدف المنشود من تلك المحاضرات تماما ..

ومع مرور الوقت . انشغل (ماهر) في بعض الأعمال الأخرى . الخاصة بالحرب النفسية . وأسند إليه بعض الامور المهمة . على نحو انزاعه من مقالاته ومحاضراته

حتى مايو ١٩٧٣ م .

وفي تلك الحين ، استدعاه (ع) مرة أخرى لمقابلة . وطلب منه ان يعاود كتابة المقالات . على ان يتناول في هذه المرة جانب من أنشطة عملاء (مصر) . في قلب (إسرائيل) . وهو يقول بصوته الهادئ الرصين :

- لقد قطعنا شوطا طويلا بالفعل ، في مجال تصحيح النظرة إلى المخابرات للعلماء ، وتوضيح دورها الحقيقي ، وبقي أن نصحح ذلك التصور الخاطئ عن قوة العدو وقدراته الأسطورية ، التي يحاول إيهام الجميع بها .. وأعتقد أن لديك خبرة كافية الآن ، في مجال الكتابة للصحف ، ثم إن خبراتك في المرحلة السابقة ستفيدك كثيرا في المرحلة القادمة بالتأكيد .

ثم مال نحوه ، قليلا بلهجة حاسمة :

- وسيكون لها أثر أكبر . وفوائد أكثر بالتأكيد

أترك (ماهر) ، في تلك اللهجة الحاسمة الحازمة ، أن ساعة الصفر قد اقتربت ، وأن الوطن بحاجة إلى كل جهد يبذله في الأيام القادمة ..

لذا ، لقد توجه في الخامس والعشرين من مايو ، بعد كتابة أول مقالاته ، في سلسلة اختار لها اسم (رحلة إلى الجانب الآخر في القل) ، لمقابلة (موسى صبرى) رئيس تحرير جريدة (الأخبار) الذي استقبله في اهتمام ، وطالع مقاله بنظرة خبير ، ثم راح يناقشه في أمره ، مقترحا تبديل العنوان إلى (قصص من قلب إسرائيل) .

ووافق (ماهر) على التعديل ، الذي لاقى منه قبولا ، واتهمك مع رئيس التحرير في مناقشة الموعد الأنسب لصدور المقال الأسبوعي ، والذي اتفق الطرفان على أنه يوم الجمعة

التالى مباشرة ، على أن يقدم (ماهر) مقالاته يوم الأربعاء من كل أسبوع .

ومرة أخرى ، عاد شعب (مصر) يتابع تلك المقالات المثيرة ، حول عملاء المخابرات المصرية ، فى قلب (إسرائيل) ، وعملياتهم النجحة والمهيرة هناك

وقرأ الناس أسماء مثل (إيد كارمن) .. (عبد البواب) وغيرهم ..

لم تكن الأسماء حقيقية بالطبع ، ولكن الشخصيات ، والأحداث ، ومعظم التفاصيل كانت حقيقية ومثيرة ، وجذابة إلى أقصى حد

وأصبح عدد الجمعة ، من جريدة (الأخبار) يرتبط فى أذهان الناس بتلك القصص فى قلب (إسرائيل) ، والتي يكتب (موسى صبرى) بنفسه مقدمة قصيرة فى بدايتها ، وكأنه يعلن اهتمامه بها ، ويجذب إليها أنظار القراء أكثر وأكثر

وفى أحد أعداد أغسطس ١٩٧٣ م ، كان موضوع مقال (ماهر) يدور حول غارة ، قام بها رجال الضفادع البشرية المصريون ، فى الواحدة من صباح الأحد ، السادس عشر من نوفمبر ١٩٦٩ م ، على ميناء (إيلات) ، أسفرت عن تدمير مدمرتين حربيّتين إسرائيليتين ، وأحدثت دويًا هائلًا ، فى كل الأوساط ..

ولقد ذكر (ماهر) بخطأ غير مقصود ، أن الهجوم قد وقع صباح السبت ، وليس صباح الأحد . ثم قال : إنه يعتقد أن اختيار يوم السبت جاء بسبب أنه عطلة رسمية ، بالنسبة لليهود ، ثم أضاف أن تاريخ اليوم كان يتوافق مع السادس من رمضان ، وذكر أثر شهر رمضان فى نفوس الناس فى (مصر) ، وكيف أن الروح الدينية ، التى تحيط بهم فى ذلك الشهر الكريم ، تملأ نفوسهم ثورة وحماسا ، وخاصة عندما يواجهون عدوا .. وفى النهاية ، اقترح أن يكون تاريخ المواجهة القادمة متناسبا مع نفس الأمور .. وعلى الرغم من أن المقال قد تم نشره قبل شهرين فحسب من حرب أكتوبر ، ومن أن الجرائد والصحف والمطبوعات ، على اختلاف أنواعها ، تعد مصدرا رئيسيا لما يطبق عليه اسم (المعلومات للعنية) ، وأنه من المحتم أن يكون هناك قسم كامل ، فى (تل أبيب) تقتصر مهمته على قراءة ومتابعة هذه المعلومات للعنية بعناية فائقة ، وتحليلها بدقة ، مع إعداد كل التقارير الخاصة بها ، إلا أن أحدا من الإسرائيليين لم ينتبه إلى ما فى هذا المقال من حقائق ..

والدليل على هذا أنه فى يوم السبت ، السادس من أكتوبر ، العاشر من رمضان ، اندلعت الحرب الشارية ، بين (مصر) و (إسرائيل) ..

وانها كانت مفاجأة مذهنة لهم . بكل المقاييس ..

مفاجأة جعلت المصريين يعبرون قناة السويس ، أكبر وأخطر
متاع مائى عرفه التاريخ ، ويحطمون خط (بارليف) . أقوى
خط دفاعى عسكرى فى التاريخ . بل ويحققون النصر على
الجيش الإسرائيلى . الذى ظل يوهم للعالم طوال عقد كامل من
الزمان بأنه جيش أسطورى لا يقهر ..

وفى هذه المرة كانت البيانات كلها حقيقية .

وكذلك النتائج ..

الإسرائيليون انهزموا هزيمة ساحقة ..

تهار خط (بارليف) ..

ارتفع العلم المصرى . على الضفة الشرقية لقناة
(السويس) ..

تساقطت الطائرات الإسرائيلىة كالذباب .. بالفعل — أمام
صواريخ (سام - ٦) الدفاعية . التى كانت أكبر مفاجأة تنقذها
العدو ..

وفى المرة التالية . التى التقى فيها (ماهر) مع (ع) .
داخل مكتبة المخابرات الكبيرة ، التى تحوى آلاف الكتب فى
شئى الموضوعات ، إلى جانب كل ماتم نشره عن أعمال
المخابرات بكل اللغات المعروفة . كان الاخير يمسك نسخة من

جريدة (الأخبار) . التى نشرت مقال أغسطس هذا . وهو
يضحك قاتلاً :

- يبدو أن الإسرائيليين أيضاً لا يقرءون .

التفت ضحكتها الخافتة . وهما يجلسان متجاورين ، وسط
هدوء المكتبة ، وكل منهما يدرك أن الإسرائيليين ، وعلى
رأسهم وزير دفاعهم المتغطرس ، قد تلقوا الدرس أخيراً ..
وأنه كان درساً قاسياً ..
للغاية .

★ ★ ★

عبر الأنير ..

تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل بدقيقة واحدة ، في تلك الليلة من ليالى الشتاء الأخيرة ، في فبراير ١٩٧٢ م ، في نفس الوقت الذى توقفت فيه سيارة مصرية بيضاء ، حديثة الطراز ، أمام أحد الأبواب الجانبية ، لمبنى المخابرات العامة المصرية ، وبرز سائقها برأسه من نافذتها ، وقد أحاط عنقه بكوفية سمكة ، وأبرز بظافته الرسمية لحارس البوابة ، الذى لبستم قفلاً :

— مساء الخير يا سيد (ف) .. تفضل ..

لم يكن (ف) زائراً غير تقليدى للمكان ، وإنما كان أحد ضباطه المعدودين ، الذين أقيم الجهاز منذ نشأته على أكتافهم ، إلا أن طبيعته شديدة الالتزام ، كانت تدفعه دوماً إلى اتباع كل القواعد وترتيبات الأمن الرسمية ، على الرغم من أنه لا يوجد رجل أمن واحد فى الجهاز كله يحمله ، أو لا يكن له الاحترام والتقدير للشعبين ..

وفى سرعة اعتادها كل من يعرفه ، انطلق (ف) بسيارته عبر ساحة المبنى ، حتى أوقفها فى المكان المخصص لها ، أمام بناء صغير من طابقين ، وغادرها وهو يحكم كوفيته الصوفية حول عنقه ، ودلف إلى المكان فى خطوات واسعة سريعة ، وهو يقول :



عبر الأنير

— مساء الخير يا رجال .. كيف حالكم ؟!

استقبله الجميع بترحاب شديد ، وراحوا يعرضون عليه ما أنجزوه طوال النهار ، على نحو يؤكد أنه يرأس المكان ، الذى لم يكن سوى القسم الخاص بالحرب النفسية والمضوية ، فى جهاز المخابرات العامة للمصرى ..

وكان من الواضح أن (ف) يولى كل الأمور اهتمامًا فائقًا ، وأنه يراجع بنفسه كل كلمة ، بل كل حرف يتم وضعه فى لية منشورات ، من تلك التى يتولى القسم إعدادها ، والتى يؤكد البعض أنها كانت تصل إلى خنادق الجيش الاسرائيلى ، فى نفس يوم كتابتها تقريبًا ..

وليس فى هذا القول لية مبالغة فى الواقع ، فمنذ ديسمبر ١٩٧١ م ، اتخذت الحرب النفسية مسارًا قويًا ، فى الصراع العربى الاسرائيلى ، واتخذ المسئولون قرارًا بتكثيفها بشدة ، رداً على محاولات الاسرائيليين المستمرة ، لمهاجمة الجبهة الداخلية ، والتأثير على الحالة المضوية للمواطن المصرى ، الذى يقلقه ويثير توتره ، وجود العدو على الضفة الشرقية لقناة السويس ، وعدم شعوره بما يتم من استعدادات للتلار مما حدث فى يونيو ١٩٦٧ م ، والقتال لاستعادة الأرض السليبية .. ولأول مرة ، شعر الاسرائيليون بقوة المصريين ، وتفوقهم فى هذا المجال الذى تصوروا أنهم استلذته وملوكة منذ الأزل ..

فيمهارة مذهشة ، راح فريق من أبرع العملاء المصريين ، يجمع كل ما يمكنه من معلومات ، عن أحوال جنود الجيش الاسرائيلى ، ومشكلاتهم ، ومعاناته اليومية ، وحتى الأخطاء للقانونية والصكرية ، التى تحدث فى ثكناتهم ومعسكراتهم بصورة يومية ..

وفى (القاهرة) كان هناك فريق آخر ، يرأسه (ف) يتلقى كل تلك المعلومات ، ويقضى الساعات الطوال فى دراستها وفحصها وتمحيصها ، ثم صياغتها فى منشورات قوية ، مدروسة ، تستخدم للمخابرات كل الحيل والوسائل ، لدفعها إلى أهدافها بمنتهى الدقة ، عبر الأحراش ، أو الدروب الجبلية ، وفوق ظهور الإبل ، أو بالمظلات ، وأحيانًا بوساطة فرق قنحرية خاصة ، تدرك جيدا مدى قوة وأهمية ما تنقله إلى قلب الأرض المحتلة ..

ولقد جن جنون الاسرائيليين ، مع ما لاقتنه تلك المنشورات من نجاح ، وخاصة عندما وصلت إلى (تل أبيب) ، وألقى القبض على أحد اليهود السود ، وهو يقوم بتوزيعها فى شوارع (القدس) . وكشف أحد المحققين الاسرائيليين أن الجنود فى جبهة القناة ، يقومون بتفريدها إلى ذويهم وأصدقائهم فى المستعمرات ، وبلغ جنونهم هذا ذروته ، عندما فجرت تلك المنشورات فضيحة كبرى ، أهانت فيها السلطات

الإسرائيلية أحد جنود المظلات الإسرائيليين ، واعتدت على زوجته ، على نحو استفزازي عدواني شرس ، ثم حاولت التستر على ما حدث ، إلا أنها فوجئت بتلك المنشورات المصرية في الشوارع ، حاملة أدق التفاصيل ، بما فيها أقوال الجندي (بيتر كوباش) شخصيًا ، ورقم محضر الشرطة الأول ، وذلك بعد مرور ثلاثة أيام فحسب على الواقعة .

- وعلى الرغم من كل هذا ، ومن النجاح الساحق ، الذي حققه ذلك القسم ، في المحادثات العامة المصرية ، إلا أن (ف) كان يشعر بأنه يستطيع أن يبلغ المزيد والمزيد ، إذا ما استخدم وسيلة جديدة ، لإيصال المعلومات إلى الإسرائيليين .

وفي تلك الليلة ، كان يحمل لفريقه الأخبار الجديدة ، عن تلك الوسيلة ، التي ستضاعف من كفاءة عملهم عشرات المرات ..

وعندما اجتمع الجميع في حجرة مكتبه المتواضعة ، بناء على طلبه ، أدار عينيه للضيقين في وجوههم ، ثم تراجع في مقعده ، وأشار بيده ، قائلاً بابتسامة كبيرة ..

.. لقد افترضوا بفكرة الإذاعة العبرية .

ولا أحد ، من خارج ذلك القسم ، يمكنه أن يتخيل ما فجرته تلك العبارة القصيرة البسيطة من حماس جارف ، وسعادة بالغة ، في ذلك المبنى البسيط ، فقد انطلقت هتافات الجميع ،

وراحوا يتحدثون مع بعضهم في افعال ، تركه (ف) حتى خفتت حدته ، وهو يتسم ، قبل أن يقول في حزم :

.. سيضيف هذا إلينا عبئاً جديداً ، فمنشوراتنا لن تسافر إلى (إسرائيل) عبر الجبال والأحراش ، أو تهبط إليها بالمظلات فحسب ، وإنما سيمكننا أيضاً أن ننقل أفكارنا إليهم أولاً ، عبر الأثير ، وهذا يعني المزيد والمزيد من العمل ، وأوقات إضافية في المكتب ، يتم خصمها كالمعتاد من أوقات الراحة ، والإجازات ، وفترات الترفيه العائلي ..

وأجابه أحد رجاله في حماسة :

.. كل شيء يهون من أجل (مصر) ..

كانت هذه بالضبط هي العبارة ، التي تمنى (ف) سماعها من رجاله ، لذا فقد أثلجت صدره ، وجعلته يتراجع في مقعده ، وعيناه تتألقن بحماس جارف ، وهو يقول :

.. عظيم .. عظيم ..

لم تكن الإذاعة العبرية أمراً وليداً ، في تلك الأيام ، فقد بدأ إرسالها في يوليو ١٩٥٣ م ، عندما أدرك رجال الثورة الأوائل أهمية إرسال أفكارهم ومبادئهم ، وبثها إلى الإسرائيليين ، ولكنها انتصرت حينذاك على نصف ساعة من البث اليومي ، يقوم به اثنان من المذيعين ..

ولكن بعد هذا الاجتماع بسبعين يوماً تقريباً ، وبناء على ما تقرر مسبقاً ، زاد إرسال الإذاعة العبرية إلى ست عشرة

ساعة ، فى منتصف مايو ١٩٧٢ م . وارتفع العاملون بها إلى اثنى عشر مذيعة ، وأربعة من معدى البرامج ، إلى جانب الفنيين ، ومهندسى الصوت ، وغيرهم ..

ومع هذه الزيادة ، بدأت مرحلة جديدة من التطوير ، بحيث أصبح برنامج الإذاعة العبرية متنوعا ، مثيرا ، مشوقا ، على نحو نجح فى جذب مئات الإسرائيليين إليه بحيث أصبح استماعهم إلى الإذاعة العبرية المصرية أمرا يوميا ، لا يمكنهم الاستغناء عنه . وبذلكاء مدهش ، راح (ف) وفريقه يدرسون منشوراتهم وكلماتهم ، وكل ما يرغبون فى نقله إلى الإسرائيليين ، عبر برامج الإذاعة العبرية ، وخاصة برامج المنوعات ، والسهرات المثيرة للشيقة ..

ولأن الإذاعة العبرية لم تكن تهاجم السياسة الإسرائيلية ، أو تدعو إلى التمرد عليها على نحو سافر مباشر ، فقد حظيت بشعبية خرافية ، فى قلب المجتمع الإسرائيلى ، وبخاصة فى أوساط الشباب ، وبين أولئك الذين استقبلوا كل ما ترغب المخابرات المصرية فى بثه إليهم ، دون أن يدركوا هذا فعليا .

وكان (ف) على حق فى كل ما قاله لرجاله .

لقد تضاعفت ساعات العمل ، وتضاعفت معها المتاعب والمسئوليات ، حتى إن بعض أفراد القسم قد جعلوا من إحدى

حجرات المبنى جزءا مخصصا للنوم والراحة ، فنقلوا إليها ثلاثة أسرة معدنية صغيرة ، فرشوها بما جادت به بيوتهم ليحفظوا داخلها ببعض النوم ، بين فترات العمل ، التى تقاربت وتقاربت ، حتى امتزج بعضها ببعض ، فلم تعد تترك بينها ما يكفى للعودة إلى المنزل ، فى معظم الليالى .

وعلى الرغم من كل هذا ، لم يكن (ف) يشعر بالاكتماء ، أو الارتياح ، وإنما كان يخبر الجميع أن الدور الفعلى للإذاعة العبرية لم يبدأ بعد ..

والعجيب أنه كان على حق ، فى قوله هذا ..

فما إن اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣ م ، حتى أثبت الموقف أن الدور الحقيقى للإذاعة العبرية قد بدأ ، حتى إن تقارير عملاء المخابرات المصرية ، فى قلب (إسرائيل) ، كانت تؤكد أن أكثر الأغنيات شعبية ، فى كل الأوساط الإسرائيلية ، فى أثناء الحرب ، كانت أغنية (إريك اينشتين) ، (أبناء العشرين يريدون ويحبون للسلام) ، وهى الأغنية التى كانت تتردد فى الإذاعة العبرية يوميا ، قبل إذاعة تسجيلات الأسرى الإسرائيليين ، ورسائلهم إلى ذويهم ..

ثم حان الدور الأكبر بالفعل ..

ف ذات صباح ، والقتال فى نروته ، خرجت صحف (القاهرة)

كلها ، تعلن وقوع ضابط المدرعات الإسرائيلية (عساف
ياجورى) فى الأسر ، وقد كان يقود لواء لبلبات كاملاً ، مدعماً
بوحدات مدفعية ذاتية الحركة ، ومضادة للدبابات والبطائرات ..
ولقد أعلن البيان العسكرى حينذاك .. أن (عساف) عقيد
(ألوف) ، فى الجيش الإسرائيلى ..

ولكن الحقيقة كانت تختلف ..

فالواقع أن (عساف ياجورى) لم يكن سوى مقدم (سجين
ألوف) ، فى الجيش الإسرائيلى ، وليس عقيداً ، كما ذكر البيان
العسكرى ..

ولكن هذا لم يكن خطأ فى البيان العسكرى الرسمى ..

وإنما كان جزءاً فى خطة عبقرية بسيطة ، لتوجيه ضربة
قوية إلى الروح المعنوية الإسرائيلية ، كجزء من الحرب
النفسية ، التى بلغت ذروتها ، فى أيام الحرب والقتال ..

فمنذ وقع (عساف ياجورى) فى الأسر ، أدرك رجال
المخابرات أن هذا الخبر كفيل بهبث الكثير من القلق والتوتر ،
وسط جنود الجيش الإسرائيلى ، وفى قلب المجتمع الصهيونى
كله ، الذى اعتاد أن يسمع من قادته ما يؤكد بأن لديهم جيشاً
أسطورياً لا يقهر ، ومن المستحيل أن يظفر المصريون ، والعرب
كافة ، بجزء واحد منه ، فما بالك بضابط من كبار الضباط ؟!

ولكن كيف يمكن إثبات وقوع (عساف) فى الأسر ؟!

صحيح أن التليفزيون المصرى سيجرى لقاء مع الرجل ، إلا أن
إرساله ، فى ذلك الوقت ، لم يكن من القوة ، بحيث يصل إلى
(إسرائيل) ، وهذا يعنى أن المصريين وحدهم سيشاهدونه ،
ويمكن للإسرائيليين نفس الأمر ، أو إنكاره تماماً ، بل واتهام
المصريين بتلفيق الحدث كله ، للتأثير على معنويات الجيش
والشعب الإسرائيلى ..

لذا فقد تم طرح الأمر على مادة المناقشة ، التى ضمت
بالتطبع (ف) الخبير فى مثل هذه الأمور ، والذى استمع إلى
الأمر كله فى صمت ، وهو غارق فى تفكير عميق ، قبل أن
يشير بصمته ، قائلاً :

- فليكن . دعونا ندفع الإسرائيليين أنفسهم للاعتراف بأسرنا
للرجل ..

سأله المهتمون :

- وكيف يمكن هذا ؟!

تراجع (ف) فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ،
كعادته كلما بدأ فى شرح أمر ما ، وقال :

- سنثير فى نفوسهم شكاً حقيقياً ، يجعلهم يتصورون أننا لم
تنجح فى أسر ضابطهم فعلياً ، بحيث يسرعون بالتشكيك فى

الأمر واستكباره ، وعندما يعلنون رفضهم واستهجانهم ،
نفاجئهم بنيل لا يقبل الشك ، فيرتبون ، ويهتزون ،
ويضطرون للاعتراف بوقوع ضابطهم في الأسر ، مما يكون له
أبلغ الأثر في تحطيم مغزياتهم ، وتوجيه ضربة نفسية قاصمة
لجبهتهم للدخالية ..

سأله أحد رؤسائه في اهتمام بالغ :

.. ما خطتك بالضبط يا (ف) ؟!

ابتسم (ف) في هدوء ، مجيباً :

.. خطة بسيطة للغاية .. سنمنح (عصف) هذا رتبة تخالف
رتبته الحقيقية ، ولأن الإسرائيليين يعمنون جيداً ، أن أول
ما يجيب به الأسير هو اسمه ورتبته ، فسيتصورون أننا لم نلق
القبض عليه فعلياً ، وسيسارعون بإعلان هذا ..

كانت الخطة بسيطة وعبقريّة بحق ، حتى إنها لاقت قبول
واستحسان الجميع فور طرحها ، ولم تستغرق مناقشتها أكثر
من ربع الساعة ، وبعدها صدر البيان العسكري ..

ووقع الإسرائيليون في الفخ ..

وعندما اجتمع فريق مخابراتهم لدراسة الأمر ، كان معظم
أعضائه يميلون إلى الاعتقاد بأن المصريين لم يأسروا
(ياجوري) فعلياً ، وإلا ل تضمن بيئتهم العسكري رتبته الحقيقية !

وكان الأرجح - بالنسبة إليهم - أن (عصف) قد لقي
مصرعه ، مع رتل دبابة ، ولم يقع أسيراً في قبضة
للمصريين ..

ولأن الوقت لم يكن يسمح بمناورة طويلة ، فقد أصرع
الإسرائيليون بإعلان كذب المصريين ، وبأنهم لم يأسروا
(عصف ياجوري) فعلياً ..

وفي نفس اللحظة ، التي صدر فيها إعلانهم هذا ، كان كبير
المنيعين ، في الإذاعة العبرية المصرية (أحمد الحملي) يستعد
للقاء مع الأسير ، على شاشات التلفزيون ، بحيث يتم بثه
عبر الإذاعة العبرية ، في الوقت ذاته ..

وكجزء من الخطة ، ترجم (أحمد الحملي) رتبة (عصف)
باعتباره عقيداً ، وليس مقدمًا في الجيش الإسرائيلي ..

ولقد أدهش هذا المنيعين بالعبرية ، في العالم العربي ، فقد
تصوروا أن كبير المنيعين قد أخطأ للترجمة ، وارتضى هو
لنفسه أن يوصم بهذا ، لإيمانه ومصلحته بالدور الذي يلعبه ، في
تلك اللعبة الخداعية الإعلامية الذكية ، التي تلعبها المخابرات
المصرية ، عبر الأثير ..

وكم أسعده أكثر وأكثر ، أن الإسرائيليين قد ابتلعوا الطعم ..
وبمنتهى المصرة ..

فقبل أن ينتهى اللقاء ، كان المعلق الإسرائيلى (دوف أينون) يعلن ، فى راديو (إسرائيل) ، أن (عساف) لم يؤسر ، وأن (القاهرة) تكذب ..

وعندما استمع (ف) إلى ذلك البيان الإسرائيلى ، شعله حماس جارف ، جعله يتخلى عن وقاره للتقليدى ، ويقفز ضارباً الهواء بقبضته ، وهو يصرخ :

.. لقد فعلوها هؤلاء الأغبياء ووقعوا فى الفخ

أما (أحمد الحملى) فقد سرى الحماس والانفعال فى عروقه ، عندما رأى الخطة توتى ثمارها بهذه السرعة المدهشة ، فانتقل على الفور إلى الجزء التالى من الخطة ، وطلب من (دوف أينون) أن يجرى اتصاله ببنات (عساف ياحورى) الثلاث وبزوجته ، لى يتأكد من أن الأسيرة تستمع بالفعل إلى صوت عائلها ، ومنحه خمس عشرة دقيقة ، للقيام بهذا الاتصال ..

وكان تحدياً مدهشاً ، عبر موجلت الأثير ..

وأسقط فى يد الإسرائيليين ..

لقد تم التحدى على الهواء مباشرة ، ولم يعد التراجع ممكناً ..

لقد جرهم المصريون إلى الفخ ، وأسقطوهم فيه ، ثم أحكموه عليهم بمنتهى الدقة ، دون أن يمنحوهم فرصة واحدة للفرار .

حتى هذا الفرار لم يكن ليفيد ، فى مثل هذه الظروف ..
ففى كل الأحوال ، ستبدو الهزيمة واضحة جلية ، أمام كل من تابعوا الموقف منذ بدايته ، وجذبهم الأمر ، وأثار فضولهم وقلقهم ..

لذا ، فقد أجرى (أينون) اتصاله ببنات (عساف) وأمه ..
وبكل الخذى والأسى ، أعلن هزيمته ، وهزيمة كل من تابعوا الأمر من الإسرائيليين ..

واضطر الإسرائيليون أنفسهم إلى إعلان سقوط ضابطهم فى أسر المصريين ..

وكانت صدمة عيفة للجميع ، فى قلب (إسرائيل) .
بل كانت صفة ، هوت على جيشهم الأسطورى ، وأظهرته على حقيقته أمام عيونهم جميعاً ..

مجرد جيش على لدولة استعمارية ، يمكن أن يمسقط وينهار ، عندما يضطر إلى مواجهة مباشرة صريحة ..

ولا أحد يمكنه أن يصف سعادة (ف) وحماسه ، عندما نجحت خطته للعقوبة البسيطة ..

ولا أحد يمكنه أن يعبر عن انفعال فريقه للجارف . مهما بنفت فصاحة كلماته ، فعلمهم لم يؤت ثماره عبر الأوراق والكلمات والمنشورات فحسب ..

لقد حققوا أيضاً انتصاراً ساحقاً على الإسرائيليين ، ووجهوا
إليهم ضربة قاصمة . لن تتمحى من عقولهم وأذهانهم
وتاريخهم أبداً ..
ضربة فريدة ، انطلقت من قبضة المصريين إلى كيان
الإسرائيليين كله ..
عبر الأثير .

★ ★ ★



عملية

الأذن الخفية

عملية الأذن الخفية ..

سطعت الشمس في كبد السماء ، على نحو غير مألوف ، في تلك الفترة من العام . مع انتصاف شتاء ١٩٧٢ م ، وانتشرت اشعتها الذهبية في تلك الحديقة الأنيقة الواسعة ، في (الحيزة) ، لتبعث دفئا محببا في الأجساد ، حتى إن الجميع شعروا بنشاط وانتعاش ، وبالذات الرئيس (أنور السادات) الذي استرخى في مقعده ، مستمتعا بأشعة الشمس ، وأرخى جفنيه على نحو قد يخدع المشاهد غير المدقق ، ويوحى إليه بأن الرئيس غارق في سبات عميق ، لولا الدخان المتصاعد في غيونه ، وتلك الإشارات والإيماءات الخفيفة ، التي تصدر عنه بين الحين والآخر ، وهو يستمع إلى الرجل الذي يجالسه ، والذي بدأ مسهمك في التحدث إليه في اهتمام بالغ والواقع أن الرئيس (السادات) كان على عكس ما يبدو ، شديد الانتباه لكل كلمة ينطقها الرجل ، الذي لم يكن سوى مدير أكبر وأقوى جهاز أمنى في (مصر) ، وربما في الشرق الأوسط كله ..

مدير المخابرات المصرية ..

كان الرجل ينقل إلى الرئيس تفاصيل آخر عمليات ، قام بها جهاز المخابرات ، ويلخص له آخر النتائج والمعلومات .

التي توصل الرجال إليها ، بذكائهم وحنكتهم ، ومهاراتهم المتعددة ..

حتى بلغ مرحلة شرح آخر تطورات المخابرات الإسرائيلية ، وعند تلك النقطة بالذات ، اعتدل الرئيس في مجلسه ، وأعاد حثو غيونه وإشعاله ، وبدأ عليه اهتمام زائد ، وأصغى جيدا لمدير مخابراته ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وقال :

- من الواضح أن الاسرائيليين يعقدون اجتماعات سرية للغاية هذه الأيام ، وهذا لا يشعرني أبدا بالارتياح .

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه ، وقال :

- نحن أيضا لا نشعر بالارتياح ياسيدي الرئيس ، ولكننا لانقب أمام هذا الشعور فحسب ، وإنما نبذل قصارى جهنم ، ونحقق نتائج معقولة في كل الأحوال تقريبا ، فلنا عملاء في صفوف المخابرات الإسرائيلية ، ووسط ضباط وجنود الجيش الإسرائيلي ، وفي (الهستدروت) والصحف ، و ..

قاطعته الرئيس في اهتمام :

- وماذا عن مقر (جنود) ؟

كان الرئيس (السادات) يشير إلى واحد من أخطر مقر المخابرات الإسرائيلية في (أوروبا) ، إذ يجتمع فيه قادتهم هناك ، مع بعض أهم القادة في (تل أبيب) ، لاتخاذ قرارات غاية في الخطورة والأهمية ، بشأن الصراع العربي الإسرائيلي ..

وكان الإسرائيليون يؤكدون طوال الوقت في ثقة وزهو
مبالغين ، أن التوصل إلى مقرهم هذا ، أو اختراقه ، ضرب من
المستحيل ، وأنهم أحاطوه بنظام أمني خاص ، بالغ الدقة ، على
نحو لم يسبق له مثيل ..

لذا فقد انعقد حاجبا مدير المخابرات بشدة ، عند الإشارة إلى
هذا المقر ، في مدينة (جنوة) الإيطالية ، وقال في حزم :
- إننا نبذل قصارى جهنم في هذا الشأن ، يا سيادة الرئيس ..
أجلبه للرئيس بسرعة :

- هذا لا يكفي في الوقت الحالي . أنت تعلم أننا مقدمون
على حرب شاملة ، وكل قرار يتخذ في مقر (جنوة) قد يربك
خططنا الرئيسية ..

ثم مال نحوه ، مضيفا بلهجة صارمة حاسمة :
- لذا فمن الضروري أن تكون لنا أذن خفية داخل هذا المقر ..
وبأى ثمن يا مدير المخابرات .. هل تفهمنى ؟ بأى ثمن ..

صمت مدير المخابرات بضع لحظات ، وعيناه لا تفارقان عيني
الرئيس ، ثم لم يلبث أن أجاب في صوت قوى :
- أفهمك يا سيادة الرئيس .. أفهمك جيدا ..
وكانت البداية ..

فبعد ساعة واحدة من هذا الاجتماع ، كان مدير المخابرات
العمامة داخل حجرة الاجتماعات ، في مبنى المخابرات ، يروى

لفريق من أقرب مساعديه ما حدث ، في لقائه مع الرئيس ،
ويطرح الأمر أمامهم للمناقشة واتخاذ القرار .

واستوعب لرجال الأمر بسرعة .. كالمعتاد ..

وكان الهدف واضحا ، على الرغم من صعوبته الشديدة ،
التي تصل إلى حد الاستحالة .. أن يتم التوصل إلى المقر
السرى لقيادات المخابرات الإسرائيلية في (جنوة) ، وزرع
أجهزة تنصت داخله ..

وعلى الرغم مما يبدو عليه الأمر ، من الاستحالة ، راح
الرجال يناقشونه بكل اهتمام وعقلانية ، وبلا أدنى بأس
أو إحباط ..

فالخطوة الأولى ، وهي للتوصل إلى المقر ، تحتاج إلى
معرفة أولئك الذين يجتمعون فيه ، وتحديد شخصياتهم ،
وطبائعهم ، واهتماماتهم ، وميولهم ، وحتى أوجه القصور
والثغرات في حياتهم ..

وصدر الأمر لكل مكاتب المخابرات المصرية ، في مختلف
بلدان (أوروبا) ، لبذل جهد مضاعف ، وجمع كل المعلومات
المطلوبة ، بمنتهى الدقة والسرية ..

ولم يكن هذا بالأمر السهل أو البسيط ..

لقد انطلق رجال مكاتبنا في (أوروبا) ، في كل الاتجاهات ،
وبكل السبل الممكنة ، وراحوا يبذلون جهدا خرافيا ، حتى إن

بعضهم لم يكن يتنوق النوم إلا لعدد محدود من الساعات ،
لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة . فى كل ثلاثة أو أربعة أيام ،
ليراقبوا كل من ينتمى الى المخابرات الإسرائيلية ليلا ونهارا ،
وليجمعوا أدق التفاصيل والمعلومات عنهم .

ولحسن الحظ ، لم يضع كل هذا الجهد هباء ..

لقد اجتمعت لدى المخابرات العامة المصرية فى النهاية ،
كمية هائلة من المعلومات والحقائق والتفاصيل تكفى لمعرفة كل
من يجتمعون فى مقر (جنوة) السرى ، بدءا من هيتلر ،
وحتى أنواع كريم الحلقة المفضلة لديهم ..

ومرة أخرى ، اجتمع مدير المخابرات برجاله ، وراجعوا معا
كل ما لديهم ، قبل أن يقول فى حزم :

- الآن أصبحت لدينا اللبنة الأساسية للعملية . والمطلوب أن
ننتقل الآن إلى الخطوة التالية ، أو بمعنى أدق إلى مرحلة
التنفيذ ..

وطوال الساعات العشر التالية ، وبلا انقطاع تقريبا ، إلا
لتناول بعض الشطائر السريعة ، أو أقذاح الشاي للساخنة ، راح
المدير يناقش الأمر مع رجاله بكل التفاصيل ، لتحديد الوسيلة
المناسبة لمعرفة موقع المقر السرى ، وزرع أجهزة للتنصت
داخله ..

ف قادة المخابرات الإسرائيلية ، الذين تم تحديدهم فى

(أوروبا) ، كانوا يحاطون بسرية بالغة ، ويتنظم أمنية شديدة
التعقيد ، عندما يتحدد موعد أحد الاجتماعات فى مقر (جنوة) ،
ثم يستقل كل منهم طائرة خاصة ، تحمله إلى جهة مجهولة ،
وعلى نحو يستحيل تعقبه ، ليصل إلى المقر السرى ، ويتم
الاجتماع ..

وكان من المحتم أن نجد وسيلة لتعقب أحدهم ، حتى المقر ،
وتحديد موقعه ، ونظم الأمن الخاصة به ، والتي يستحيل
اختراقها ، كما يؤكد الإسرائيليون ..

وبعد أن احتدم النقاش ، ونوقشت كل الاقتراحات ووجهات
النظر ، وتبين استحالة كل منها ، من الناحية العملية ، وبدأت
روح اليأس والاحباط تتسلل إلى الرجال ، اندفع (ر ج) يقول
بغثة :

- الأمر يحتاج إلى شخص بينهم .

التفت إليه الجميع فى دهشة وتساؤل ، وسأله المدير فى
شيء من الحذر :

- شخص بين من ؟!

اعتدل (ر ج) فى مقعده ، وبدأ عليه الاهتمام والحماس ،
وهو يجيب :

- شخص بين المجتمعين ، يقودنا إلى المقر السرى ،
ويسهم فى زرع أجهزة للتنصت فيه ..

تفجرت دهشة عارمة في وجوه الحاضرين ، وتبادلوا نظرات حائرة ، مع بعضهم ، ثم تطلعوا جميعا إلى (ر . ج) ، وسأله أحدهم في استنكار شديد :

- هل تفكر في تجنيد أحد قادة المخابرات الإسرائيلية في (أوروبا) ؟!

أوما برأسه إيجابيا في هدوء عجيب ، وهو يقول :

- بالضبط .. هذا هو الحل الوحيد في رأيي ..

كان أقل ما يمكن أن توصف به فكرته ، هو أنها مجنونة ، إلا أنه ، وعلى ما جرت عليه العادة في جهاز المخابرات ، لم يكن هناك ما يمنع من مناقشتها ، ودراستها ، وبحث إمكانيات تطبيقها ..

والمعجيب أنه ، كلما نوحل (ر . ج) في شرح خطته ، كان الاستنكار والاعتراض يتراجعان رويدا رويدا ، ويحل محلهما استعداد للفهم ، والاستيعاب ..

بل وربما بعض الاستحسان والتقدير أيضا ..

صحيح أن تجنيد أحد ضباط المخابرات ليس بالمهمة السهلة أو البسيطة ..

بل هو أمر غاية في الصعوبة والدقة ..

إلا أنه كان البديل الوحيد المطروح ، في تلك اللحظة ، بعد أن استحالت كل البدائل الأخرى ، ولم تلق قبولا أو اقتناعا ..

وفي نهاية الاجتماع ، اتفق رأيهم على بذل المحاولة ، على الرغم من خطورتها ، وأطلقوا على العملية اسم (عملية الأذن الخفية) ، وتم إسنادها رسميا إلى (ر . ج) .. ولم يضع الرجل لحظة واحدة ..

فبعد انصراف الجميع إلى بيوتهم ، وعلى الرغم من أنه لم يذق النوم منذ أكثر من ثلاثين ساعة متصلة ، جلس (ر . ج) يراجع كل التفاصيل والمعلومات مرة أخرى ، وهو يفرد أمامه صور القادة الإسرائيليين ، ويتطلع إليها بين الحين والحين ، وكأنهم يحاول أن يستشف من ملامحهم ما لم توردته تقارير المراقبة والمتابعة ..

ولسبب ما ، توقف طويلا أمام صورة المرأة الوحيدة بين القادة ..

(سارة جولد شتاين) ..

لا أحد يدري لماذا وقع اختياره عليها بالذات كهدف محتمل ، على الرغم من أنها امرأة قاسية ، شرسة ، قضت أيام طفولتها الأولى في مصسكرات الاعتقال النازية ، إبان الحرب العالمية الثانية ، ثم هاجرت مع والديها إلى (فلسطين) ، قبل حرب عام ١٩٤٨ م ، حيث التحق والدها بصفوف المقاتلين ، ولقى حتفه في (الفلوجا) ، ونشأت هي عن شتف العيش مع أمها ، في إحدى المستعمرات البدائية ، في صحراء النقب ، والغضب

والمرارة يملآن قلبها . ويتضاعفان بمرور الوقت . حتى التحقت بصقوف الجيش الإسرائيلي . ثم بالمخابرات الإسرائيلية . التي ترقّت فيها بسرعة . نظراً لصرامتها الشديدة . وقلبها الذي لا يعرف الرحمة . في تعاملاتها مع الأسرى والمعتقلين . وكل من يتم اتهامه بالتجسس لحساب العرب

ولو أن أحداً من رفاق (ر . ج) علم باختياره لها . كأول هدف للبحث . لاحذته الدهشة . وامتزجت في أعماقه بفيض من الاستنكار . والاعتراض . ورفض الفكرة تماماً .

بل . ولربما اتهم (ر . ح) بالحماسة والجنون أيضاً .. ولكن شيئاً ما في أعماق الرجل كان يدفعه دفعا نحو (سارة جولد شتاين) بالذات ..

ربما هو ذلك التحدى الدائم . الذي يجري في عروقه مجرى الدم ..

أو هي غريزة خاصة . نبعت من موهبة شخصية . ونمت مع الزمن والخبرة . حتى صار يمنحها الثقة نفسها . التي يمنحها لعقله وقراسته وحسن استنتاجه ..

المهم أنه اختار (سارة) ..

وأطلق كل فريقه خلفها ..

لم يكن يبحث عن أخطاء قديمة . أو نقاط ضعف يمكن استغلالها . وإنما ركز تفكيره وعمه كله على الثغرة الوحيدة التي يمكن النفاذ من خلالها إليها

صديقها (ميخائيل بوروسكي) ..

و (ميخائيل) هذا مهاجر يهودي بولندي . يصغرها بسبعة أعوام . ويعمل في المصانع الحربية الإسرائيلية . ولقد التقت به منذ عدة سنوات . في أثناء تفتيش دوري روتيني . بعد حرب ١٩٦٧ . وجذبها إليه ابتسامته الهادئة . وعيناه الزرقاوان . ولم تمض عدة أشهر . حتى كانت غارقة في حبه حتى النخاع .. (سارة) الذنبة الشرمسة . وقعت في غرام (ميخائيل) للحمل الهادئ للويع ..

ولأن (سارة) محترفة . فلم تسمح للحب بإلغاء عقلها ومنطقها . وأتت قامت بعمل تحريات واسعة حول الشاب . وراقبته لشهر كامل . حتى تتأكد من سلامة أمره .. وبعدها أعلنته حبها له ..

ولم يفتربا منذ ذلك الحين قط ..

ولهذا السبب الأخير بالذات . ركز (ر . ج) كل جهوده على (ميخائيل بوروسكي) . وطلب من فريقه مراقبته بمنتهى الإحكام . وإحصاء تحركاته . وحطواته .. وحتى الأنفاس التي تتردد في صدره ..

وظال الوقت . واتهمك الرجال في التتبع والمراقبة . ومضى الزمن . واقتربت نهاية عام ١٩٧٢ م . وبداية عام ١٩٧٣ م . و ...

« خبر مدهش عن (ميخائيل بوروسكى) .. »

انتفض جسد (ر . ج) فى انفعال جارف ، عندما نطق أحد رجاله العبارة فى مكتبه . وهب من مقعده ، يسأله فى لهفة :

- هل أصفرت المراقبة عن شيء ؟!

أشار الرجل بسبائنه ، مجيباً :

- بل أوقعته بين أصابعنا . ثم مال نحوه ، مستطرداً بلهجة خاصة :

- الولد يعمل لحساب المخابرات السوفيتية ..

كانت مفاجأة مذهلة ، لا يمكن هضمها أو استيعابها بسهولة :

- (سارة جولد شتاين) . التى نالت كل هذه الشهرة

الواسعة ، فى عالم المخابرات الإسرائيلية ، خدعها مهاجر

بولندى ، هادئ الملامح ، ساحر النظرات ..

الأنقى الرقطاء . وقعت فى فخ القط للسياسى الرقيق ..

وبقدر ما كانت المفاجأة ، قرر (ر . ج) استغلالها على

نحو لم يسبق له مثيل ، فى عالم المخابرات . بكل سحره

وغموضه وأسراره ..

كان عام ١٩٧٣ م قد بدأ بالفعل ، وبدأ معه العد التنازلى

لحرب أكتوبر ، ولم يعد من الممكن إضاعة المزيد من الوقت ،

قبل زرع الأذن الخفية فى مقر اجتماعات قيادة المخابرات

الإسرائيلية السرى فى (جنوة) ..

كان من المحتم أن تبدأ عملية التتصت على اجتماعاتهم

وقراراتهم السرية ، فى هذه الفترة بالذات ..

لذا ، فقد قرر (ر . ج) اقتحام الأمر مباشرة ..

ودون إبطاء ..

وعندما طرح خطته الجديدة على مائدة الاجتماعات ، عاد

رفاقه يحدقون بعضهم فى البعض ، ثم ينقلون تحديقاتهم إلى

وجهه ، قبل أن يتفجروا بالاعتراض والاستنكار .

ثم بدأت مناقشة الفكرة الجنونية الجديدة .

وتلاشت الاعتراضات رويداً رويداً ، خلال الساعات الست ،

التى استغرقها ذلك الاجتماع ، والتى انتهت بأن حزم (ر . ج)

حقائبه ، وسافر فى طائرة السابعة والرابع صباحاً إلى

(باريس) . حيث تقضى (سارة) إجازتها مع حبيبها (ميخائيل

بوروسكى) ..

ومن المؤكد أن (سارة جولد شتاين) لن تنسى أبداً ما حدث

فى تلك الليلة ، عندما عللت وحدها إلى حجرتها بالفندق ،

وأضاعت الأنوار ، لتجد أمامها (ر . ج) يتنسم فى هدوء ،

ويقول فى بساطة مدهشة ، وبلغه عبرية تتفوق فى إجادتها

وسلامتها على لغتها هى نفسها :

- مساء الخير يا (سارة) . أنا (و.و) . ضابط فى

المخابرات العامة المصرية ..

كانت مفاجأة مذهنة . ومواجهة مباشرة . لا مثيل لها في تاريخ المخابرات كلها . بكل أجهزتها ونظمها . لذا فقد تجمدت (سارة) في مكانها . ولم تجد ما تفعله . وهي تحديق في (ر . ج) . الذي اتسعت ابتسامته . وأشار إلى حقيقته قائلاً :
- عندي لك أشياء تهلك رؤيتها ..

ولأنها ضابطة مخابرات محترفة . تملكت (سارة) أعصابها . وواجهت رجل المخابرات المصري بجرأة مماثلة . وسألته عما تحويه الحقيبة . فأفرغ محتوياتها في هدوء . ووضعها كلها أمام عينيها . وتركها تحديق فيها . وتلتهمها ببصرها طويلاً وقلبها يكاد يهوى بين قدميها .

كانت مجموعة كبيرة من الصور . والوثائق . والأفلام . التي تؤكد أن حبيبها (ميخائيل بوروبسكى) جاسوس سوفيتي . وأنه يستنزف منها الأسرار الحربية والصكرية . طوال خمس سنوات كاملة ..

وتم تستطع (سارة جوند شتاين) احتمال المفاجأة المذهلة . لقد اتهار تاريخها الصكرى والسياسى دفعة واحدة .. بل تحطم كياناتها كله . كضابطة مخابرات محنكة .. وعندما عجرت قدميها عن حملها . وسقطت على أقرب مقعد إليها . مال (ر . ج) نحوها . وهمس في أذنها .
- كل شيء له حل .. كل شيء ..

لم تسأله (سارة) عما يعنيه . فقد كانت تفهم الموقف جيداً كمحترفة ..

لقد أصبح مصيرها كله في قبضة المصريين . إما أن يكشفوا أمرها . وأمر حبيبها الجاسوس السوفيتي . ويحطمون تاريخها ومستقبلها كله .. وإما ...

وفي هدوء . راح (ر . ج) يقدم لها الجزء المتبقى من العرض ..

المكافأة المالية السخية . والحماية المستقبلية . و . . . وعندما تم عقد الاجتماع التالى فى مقر (جنوة) السرى . كانت (سارة جوند شتاين) أول الحاضرين . وأكثرهم حماسة وثقة ..

وعند انصرافها . تأكدت من أنها قد تركت خلفها ذلك القرص الأسود الصغير . الذى أعطاها إياه (ر . ج) . فى المكان الذى حدده لها بالضبط ..

وفى منتصف شتاء ١٩٧٣ م . وبعد عام واحد من بدء العملية . ارتسمت على شفتى مدير المخابرات العامة المصرية ابتسامة كبيرة وهو يجلس فى حديقة منزل الرئيس فى الحيزة . ويقول فى ثقة وزهو ولارتياح :



- تم تنفيذ العملية يا سيادة الرئيس - صرنا نسمع دبيب
النمل في مقر (جنوة) ..
وهنا ابتسم الرئيس السادات ابتسامة كبيرة ، تموج
بالارتياح ، وهو يومئ برأسه في سعادة بمدير المخابرات ..
وراحت ابتسامة الرئيس تتسع ، وتتسع ، حتى جاءت حرب
أكتوبر ١٩٧٣ م ، لتعلن النجاح الحقيقي للعملية ..
عملية الأذن الخفية ؟

★ ★ ★

الصادق

فجأة ، هبطت الهزيمة كالصاعقة ، على رأس كل مصري ، في يونيو ١٩٦٧ م ، واعتصرت القلوب بقبضة من الثلج ، لتنتزعها من الصدور ، مع كل ما احتشد فيها ، طوال سنوات وسنوات ، من الفخر ، والزهو ، والحماس الملهب ، الذي قاضت به الأعماق طويلا ، مع الخطب الحماسية ، والوعود الرنانة ، وأحلام الانتصار للوردية ..

وعلى الرغم من ذلك الفيض الشعبي الجارف ، الذي شمل (مصر) كلها ، من أقصاها إلى أقصاها ، والمظاهرات التي أغلقت شوارع القطر كله ، لمناشدة الرئيس (جمال عبد الناصر) العودة إلى مقعد الرئاسة ، كانت هناك مرارة حبيسة في الصدور ..

مرارة النكسة ..

ولو أن مرارة الشعب كله كانت تماوى قيراطا ، فتلك المرارة ، التي استقرت في أعماق ووجدان فئة خاصة من الرجال ، كانت تماوى ألف قدان ..

فهذه الفئة بالذات ، من رجال المخابرات العامة المصرية ، كانت تشع وكان الهزيمة خنجر مسموم ، انغرس في قلوبهم .. صحيح أنهم قاموا بعملهم خير قيام ، وقدموا للرئيس

شخصيا تقريراً مفصلاً وافياً ، عن التحركات الإسرائيلية المريبة ، التي بدأت منذ النصف الثاني في شهر مايو ، وأن الرئيس (جمال) قد أطلع قادة الجيش والمسؤولين على ما جاء بالتقرير ..

ولكن الهزيمة أتت ..

أيّا كانت الأسباب ..

وعندما اجتمع الرجال في مقرهم الخاص ، في منتصف يونيو ، كان الصمت يخيم عليهم على نحو كئيب ، والمرارة تطل من عيونهم .

« دعونا لا نمتسلم للحزن واليأس .. »

نطق مدير المخابرات الجديد العبارة في حزم وقوة ، على نحو خفقت له قلوب الرجال ، الذين تطلّعوا إليه في اهتمام ، وهو يتابع في أفعال .

- ما حدث قد حدث . إننا لا نملك إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ، ولكننا نملك طرح اليأس جانباً ومواصلة العمل والكفاح ، حتى نزيل آثار الهزيمة ، ونقفز منها إلى نصر قوى ، يثبت للعdu الإسرائيلي أن نتصاره السريع هذا ، لا يعني أبداً أنه الأفضل أو الأقوى .. وانتفضت كلماته في حمان جارف ، وهو يضيف في قوة .

- وهذا ما سنسعى لمنع تكراره ، مهما كان الثمن .. بل

ومنقلب العائدة على رؤوسهم في المرة القادمة . ونجعل
المفاجأة من نصيبهم . وكل ما أطلبه منكم ، هو أن تصبح تلك
المفاجأة القادمة صاعقة ساحقة ..

- هل يمكنكم هذا ؟!

انتقل حماسه وانفعاله اليهم ، وهم يهتفون :

- بكل تأكيد .

تألفت عيناه في ارتياح ، قبل أن يقول :

- عظيم .. هذا يعني أن روحكم المعنوية تسمح بالقتال ..

ثم مال إلى الأمام ، متابعاً في حزم :

- وبقبول تحديثات جديدة .

جذبت العارة الأخيرة انتباههم واهتمامهم بشدة . فاعتدلوا

في مقاعدهم ، والمدير يقول :

- عندما التقيت بالرئيس (جمال) ، منذ يومين فحسب .

كان له مطلب رئيسي أن نحصل على المعلومات من قلب
القيادة الإسرائيلية ، حتى يمكننا إعادة بناء الجيش ، والاستعداد
للمرحلة القادمة .

وعاد يعتدل في مقعده ، ثم يقول في حزم وحسم :

- وهذه هي مهمتكم الجديدة يا رجال .. نريد زرع شخص

لا يمكن أن يتطرق إليه الشك . في قلب القيادة الإسرائيلية .

وعاد الصمت يخيم مرة أخرى على المكان ..

★ ★ ★

للمابع من يناير ، عام ١٩٦٩ م ..

يوم دافئ من أيام الشتاء في (تل أبيب) ، نشطت فيه
الحياة على نحو ملحوظ ، بعد أسبوعين كاملين من الأمطار ،
غابت فيهما الشمس ، خلف الغيوم الكثيفة ، وانخفضت خلالهما
درجات الحرارة كثيراً ..

وفي بقعة خالية ، على مشارف المدينة ، اتهمك فريق من
العمال في العمل ، لصب أساسات مصنع الحلوى الجديد ، الذي
يقيم (إيد كارمن) ، رجل الأعمال الشاب ، الذي برز اسمه
خلال العلمين الماضيين ، كواحد من أكثر رجال الصناعة نشاطاً ،
وأرقى نجوم المجتمع الاقتصادي ، ومحط أنظار عدد من أجمل
جماليات المدينة ، نظراً لوسامته المطرطة ، ولكونه أعزب ثرياً ،
لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره بعد .

وبينما اتهمك (إيد) في مراقبة العمال ، لاحظت له سيارة
أمريكية فارهة ، تقترب من موقع العمل بسرعة كبيرة نسبياً ،
فتابعها ببصره في اهتمام ، واتخذ حاجباً في شيء من التوتر ،
عندما لاحظ أنها تتجه نحوه مباشرة ، ونهض من مقعده في
نفس اللحظة التي توقفت فيها أمام مكتبه ، ذي الجدران
الزجاجية ، وتحرك ليتجه نحوها ، عندما وقع ببصره فجأة على
وجه قائدها ، فالتفت عيناه عن آخرهما ، ووجد نفسه يهتف
في قفعلال :

- سيادة وزير الدفاع ؟!

اتجه وزير الدفاع الإسرائيلي - حينذاك - (موشى دايان) نحوه ، بوجهه المستدير ، وتلك العصابة السوداء الشهيرة ، التى تخفى عينه اليسرى ، ومد يده ليصافحه ، قائلاً :

- أنت (إيد كارمن) .. أليس كذلك ؟!

هتاف (إيد) فى حماسة :

- بنى ياسيادة وزير الدفاع .. إنه لشرف كبير أن تأتى إلى هنا .. الواقع أنتى أشعر بمزيج من الزهو والدهشة ، فلم أكن أتوقع أن تأتى وحدك . أعنى دون حراسة رسمية . و .

قاطعه الوزير بإشارة من يده ، قائلاً :

- لم يكن هناك داع لكل هذا . إنها ليست زيارة رسمية .

أجابه (إيد) ، وهو ينحنى نصف التحناء :

- ولكنها بالنسبة لى ، أعظم جائزة نلتها فى حياتى كلها . ياسيادة الوزير .

أطلق الوزير ضحكة قصيرة ، تشف عن استمتاعه بالعبارة ، ولوح بيده ، قائلاً :

- تمامًا كما يقولون عنك يا (إيد) . أستاذ فى فن المجاملة

عاد (إيد) ينحنى فى لباقة ، قائلاً :

- على العكس ياسيدى الوزير . أنا لم أتجاوز الحقيقة قط .

هز الوزير رأسه ، وكأنما راق له ما سمعه ، ثم سأله بغتة :

- ما الذى عثر عليه عمالك ، فى أثناء حفر الأساسات يا (إيد) ؟!

أخفى (إيد) ابتسامته بصعوبة بالغة ، وهو يقول :

- آه .. تقصد تلك التمثال قصير ؟! إنه لا يتجاوز العشرين سنتيمتراً طوياً ، ولكن كيف بلفك الخبر ياسيدى الوزير ؟!

ارتسمت على شفתי الوزير ابتسامة ، وهو يقول :

- لى مصافرى يا (إيد) .

قالها ، بلهجة الرجل الذى يدرك تمامًا مدى قوته ، ثم لم يستطع إخماء شغفه الواضح وهو يسأل :

- أيمكننى رؤية ذلك التمثال يا (إيد) ؟!

- بالطبع ياسيادة الوزير .. تقبل اعتذارى ، فقد بهرتنى رؤيتك ، حتى إتنى نسيت قواعد اللياقة ، ولم أدعك للجلوس ، أو أسألك عما ترغب فى تناوله ، بعد أن قطعت الطريق إلى هنا .

تقدم الوزير داخل المكتب ، قائلاً :

- لا بأس يا (إيد) .. لا بأس . هل يمكننى رؤية التمثال .

التقط (إيد) حقيقته الخاصة ، وأخرج منها تمثالاً فرعونيًا صغيراً ، ناوله للوزير ، وهو يقول :

- ها هو ذا يا سيدى الوزير .. أرجو أن يروق لك .

تألفت عينا الوزير فى لهفة ، وهو يتناول التمثال فى حرص زائد ، وراح يفحصه فى اهتمام بالغ ، وب نظرة خبير وهاو قديم للآثار ..

فالشىء الذى لا يعرفه الكثيرون عن (موشى دايان) هو هوايته لاقتناء الآثار والتحف ، وبالأذات المصرية منها ..

وبالنسبة لشخص مثله ، كان التمثال الذى يحمله بين أصابعه تحفة مذهشة ، حقق لها قلبه فى حماس مفرط ، أطل واضحاً من بين شفتيه ، وهو يسأل (إيد) :

- أنت واثق من أنها قطعة أصلية ؟!

هز (إيد) كتفيه ، وقال فى شىء من اللامبالاة :

- لست أدرى .. إتنى لا أفهم شيئاً عن هذه التماثيل .. وعلى أية حال ، يمكنك الاحتفاظ بها ، لفحصها جيداً .

التقى حاجبا الوزير ، وهو يتطلع إليه ، قائلاً :

- الاحتفاظ بها ؟! هل تعنى هذا حقاً ؟! ألا تخشى أن ..

قاطعه (إيد) وهو يربت على كتفه ، كما لو كتبا صديقين قديمين :

- ماذا تقول يا سيادة الوزير ؟! إنه لشرف لى أن أهديك هذا

التمثال للصغير عن طيب خاطر .

تألفت عينا الوزير بشدة ، وهو يتطلع إليه فى صمت ،

يحمل الكثير من الدهشة والحيرة والتساؤل والحذر ، قبل أن يصافحه ، قائلاً :

- سأتصل بك .

قالها ، واستقل سيارته ، وتطلق يغادر الموقع و (إيد) يتابعه ببصره وابتسامته الهائلة ، قبل أن يتمم فى خفوت وانخضاب :

- عظيم .

ثم عاد يتابع عماله ، وكمياته كله ينتفض من فرط النشوة .. نشوة النصر ..

كان التمثال قطعة فنية لثيرة بالفعل ..

قطعة تساوى أكثر من عشرين ألف دولار ، بمقاييس ذلك الزمن ، أهداها (إيد كارمن) لوزير الدفاع الإسرائيلى ، دون أن يطلب أدنى مقابل ..

ومن الطبع ، والحال هكذا ، أن يحمل له الوزير شيئاً من الامتنان ..

والصداقة ..

ولقد بدأت هذه الصداقة بدعوة من الوزير ، ليتناول مع (إيد كارمن) طعام الغداء ، فى مطعم صغير ، يتبع قيادة الجيش الإسرائيلى ، بعد ثلاثة أسابيع من لقاتهما الأولى . فى منطقة الحفر .

وكإجراء تقليدي . نشطت المخابرات الحربية الإسرائيلية (أمان) ، لجمع المعلومات ، وعمل التحريات المكثفة عن ضيف الوزير للتأكد من أنه شخص طبيعي مسالم ، لا ينتمى إلى أية جهة معادية . أو منظمات معارضة ، أو ... أو ... وعلى مكتب الوزير ، وضع مدير المخابرات الحربية نتائج التحريات ، التي قرأها الوزير في إمعان واهتمام بالغين . ثم تنفس الصعداء ، مغفماً :

- عظيم .

واستقبل (إيد كارمن) على مائدة الضواء ..

وكانت بداية لصداقة قوية ..

عميقة .

ومفيدة ..

فمع شخص مثل (إيد كارمن) كان من الطبيعي أن تتقارب وجهات النظر ، وتلتقى الآراء ، ويفتح الجميع قلوبهم بلا حذر ..

أو على الأقل ، بأدنى قدر ممكن من الحذر ..

ولقد وجد وزير الدفاع الإسرائيلي في صديقه الجديد ذاتاً مصفية ، تجيد الاستماع إلى أحاديثه . وروايات بطولاته الفذة وقصص معاركه الحربية المتميزة ، التي لم ينافسه فيها الجنرال (ماك آرثر) نفسه ..

الشيء الوحيد . الذي لم يدركه الوزير طوال الوقت ، ولم تنبئه إليه قط مخابراته الحربية ، هو أن (إيد كارمن) لم يكن يصفى بدافع المجاملة فحسب .. لقد كان لديه دافع أكثر قوة .. المعرفة ..

فذلك الإسرائيلي الشاب الثرى الوسيم ، لم يكن مجرد رجل أعمال أثيقاً ، يسعى لمصادقة رجال الحكم والسياسة . لتتسيط أعماله للتجارية فحسب ..

لقد كان أيضاً عميلاً خالصاً ، تم تجنيده لحساب واحد من أقوى وأنشط أجهزة المخابرات ، في منطقة المشرق الأوسط كلها ..

جهاز المخابرات للعبة المصرية ..

ففي أوائل عام ١٩٦٨ ، نجحت المخابرات العامة المصرية في تجنيد (إيد كارمن) ، المهاجر اليهودي الشرقي ، الذي لم يكذب مستقراً في (إسرائيل) . حتى صدمته تلك العنصرية الواضحة ، والتفرقة المهيبة ، بين اليهود الغربيين (الاشكنازيم) ، الذين يتمتعون بكل الامتيازات ، ويحصلون على أرقى المهن ، وأرفع المناصب ، واليهود الشرقيين (السفرديم) ، الذين يضطرون لقبول لحظ وأدنى المهن والوظائف ..

ولأن التراجع لم يعد ممكناً ، اضطر (إيد) لقبول إحدى

الوظائف الوضيعة ، وراح يكافح فيها بلا أمل ، والحقه والمقت
والنقمة تملأ قلبه ، وعقله ينتبه ، وربما لأول مرة ، إلى تلك
الطبيعة الصهيونية الاستعمارية ، التي قامت عليها دولة
(إسرائيل) . والتي لم تستوعبها أو تهضمها طبيعته ، فراح
يبحث عن وسيلة لمقاومة ما يحدث ، وللأمر ممن خدعوه ،
وألقوا به فيما اعتبره جحيماً أرضياً مأساوياً ، لا فكاك منه إلى
الأبد ..

وبوسيلة ما ، تم الاتصال بين (إيد كارمن) ورجال المخابرات
المصرية ..

وبدا (إيد) مرحلة جديدة من حياته ..

وطوال عام ١٩٦٨ م ، راح (إيد) ينشئ تجارة صغيرة
للحلوى ، لم تلبث أن تطورت على نحو ملحوظ ، حتى أصبح
ذائع الصيت ، في منتصف العام نفسه ، وسرعان ما لبع اسمه
في المجتمع الاقتصادي ، وتضاعفت أرباحه ، وصار واحداً من
رجال الأعمال المعروفين ، مع نهاية ١٩٦٨ م ..

وفي الأسبوع الأخير من ديسمبر ، طلبت منه المخابرات
العامية إنشاء مصنع صغير للحلوى ، والتقى به مندوب
المخابرات في (باريس) وسلمه ذلك التمثال الأثري الصغير ،
وطلب منه أن يدفنه في قطعة الأرض ، التي سيتم حفرها لبدء
إنشاء المصنع ، بعد ثلاثة أيام فحسب ..

وكانت لعبة متقنة للغاية ، من المخابرات المصرية ، التي
تدرك مدى شغف واهتمام وزير الدفاع الإسرائيلي بالآثار ،
وتعلم أن ظهور التمثال سيصبح طعماً مثالياً ، لجذب اهتمام
الوزير ، ودفعه للقاء (إيد) ..
وكان ما كان ..

ولقد ارتبط (إيد كارمن) بصداقة وثيقة مع وزير الدفاع
الإسرائيلي لأكثر من أربع سنوات كاملة ، نقل خلالها كل ما بلغ
مسامعه من أحاديث ومعلومات ، إلى جهاز المخابرات العامة
المصرية ، عبر الخطابات السرية ، والاتصالات اللاسلكية ،
والعديد من اللقاءات الشخصية ، مع رجال المخابرات المصرية ،
في دول (أوروبا) وعواصمها ..

وإحفاً للحق ، لا يمكننا أن نقول : إن (إيد كارمن) قد
حصل على كل هذه المعلومات من وزير الدفاع الإسرائيلي ، إذ
إن الرجل ، يحكم مصيره وخبراته ، كان يدرك جيداً أهمية
وخطورة المعلومات العسكرية ، التي يطلع عليها طوال
الوقت .

ولكن هذا لم يكن ينطبق على الجميع .. فمع الصداقة القوية
الواضحة ، بين وزير الدفاع و (إيد) ، راح معظم جنرالات
الجيش ، وكل مساعدي ومعاوني الوزير ، يسعون لمصداقة
الأخير ، والتقرب منه ، وصار معا يزهو به الواحد منهم ، أن

تتم دعوته إلى إحدى الحفلات الفخمة ، التي يقيمها (إيد كارمن) . بين الحين والحين ، على شرف الوزير ..
وفي تلك الحفلات ، يتحرر الجميع - عادة - من مسئولياتهم ، وأعبائهم ، ومتاعبهم ، والتزاماتهم ..
وحتى أسرارهم ..

وكمحاولة لإثبات أنهم أهل لصدافته ، راح البعض يفرغون الكثير والكثير من أسرارهم في أذننى (إيد) ، وتحت قدميه . وكان هو يستمع إليهم جيدا . ثم لا يلبث أن ينقل كل هذه المعلومات ، فور اتصرافهم . إلى الرجال في (القاهرة) ، والذين كانوا ييلفونها بدورهم للرئيس (جمال عبد الناصر) ، ومن بعده للرئيس (أنور السادات) ..

ومع نهر المعلومات المتدفق ، من أكثر المواقع خطورة وحساسية في (إسرائيل) كلها ، راحت (مصر) تعيد بناء جيشها ، استعدادا للمواجهة القادمة حتما ، والتي تخفق القلوب شوقا ولهفة لها ..

وعندما حانت ساعة الصفر ، في السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م ، كان لنهر المعلومات هذا فائدة ضخمة ..
وكانت المفاجأة صاعقة ، مدمرة ، سحقته الفرور الإسرائيلية ، ونسفت نظرية الجيش الذي لا يقهر ، تحت أقدام جنود (مصر) الأبطال ..

والطريف أن وزير الدفاع الإسرائيلي ، عندما تلقى خبر نشوب الحرب ، كان في ضيافة صديقه الصدوق (إيد كارمن) ..
وفي نفس اللحظة تقريبا ، كان الرجال في القاهرة يبتسمون في زهو مظفر ..

فصحيح أن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا ..
وصحيح أيضا أن أحد عوامل الهزيمة الإسرائيلية الساحقة ، كان (إيد كارمن) ..
صديق وزير الدفاع الإسرائيلي ..
وصانع أفضل الرجال ..
رجال (مصر)

★ ★ ★

عين السماء

مات الرئيس (جمال عبد الناصر) ..

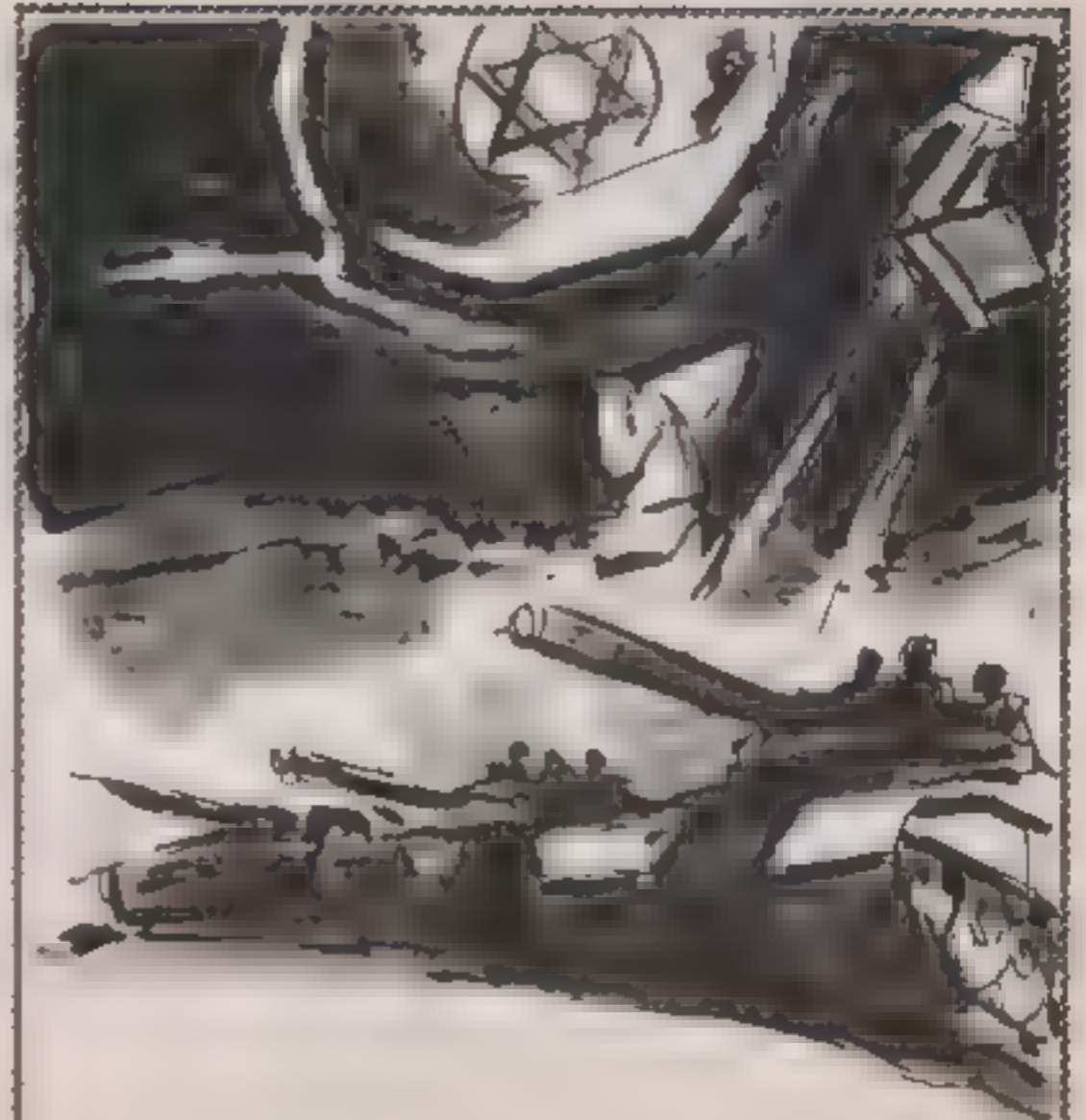
لم يكد ذلك للخبر يعلن ، على الشعب المصري والشعوب العربية ، في سبتمبر ١٩٧٠ م ، حتى قامت الدنيا ولم تقعد ، فتطلقت صرخات الذعر والارتياح من الحلق ، واتهمرت الدموع من العيون كالسيول ، وخرجت الأمة العربية عن بكرة أبيها ، تنعى الزعيم الراحل ، وتبكي على الأمل ، الذي وضعته فيه ، لتحرير الأرض السليبية ، والثأر من العدو الإسرائيلي ، الذي غدر بشبابها وأبطالها ، منذ سنوات ثلاث ..

ولم يشهد العالم كله جنازة شعبية مهيبه ، مثلما شهد جنازة (عبد الناصر) ..

ولكن الحياة لا بد أن تستمر .. والمركب حتماً يسير ..

لذا ، فقد انتقلت السلطة بتلقائية وهدوء إلى الرئيس الجديد (محمد أنور السادات) ..

ومنذ الساعات الأولى ، التي تبوأ فيها (السادات) منصبه ، بدأ اتصاله على الفور بجهاز المخابرات العامة ، فقد حرر بيده مذكرة إلى إدارة المخابرات ، يطلب فيها معلومات تفصيلية حول الأسطول الإسرائيلي ، وقوته ، ودرجة صلاحية قطعه البحرية ، ومدى تسليحها ، والمواقع التي تحتلها .



عين السماء

ولقد شعر الرئيس بغبطة شديدة ، عندما وصلتته كل المعلومات التي طلبها ، في غضون ساعتين ونصف فحسب ..
وبكل التفاصيل ..

وبات من الواضح أن الرئيس لم يكن يسعى خلف المعلومات وحدها ، وإنما كان يختبر في الوقت ذاته ، قوة جهاز مخابراته وكفاءته ، واستعداده لتقديم أدق وأخطر المعلومات ، في أسرع وقت ممكن ..

وبمنتهى الكفاءة ..

ومنذ ذلك الحين ، راح الرئيس يعتمد على جهاز المخابرات في أمور شتى ، وخاصة مع الاستعداد لمواجهة القلعة الشاملة ، التي يحرق الإعداد لها ، لاستعادة (سيناء) ، والنار من العدو الإسرائيلي ، وتكبيده خسائر فادحة ، يدرك معها أنه من الخطر ، كل الخطر ، أن يعيث مرة أخرى مع المصريين .

وفي ذلك الوقت ، كانت هناك لحظة عممة ، جرى إعدادها وتنسيقها ، في مبنى وزارة الدفاع (الحربية في ذلك الحين) باشتراك معظم مؤسسات الدولة ، وكل نظمها الأمنية ، لخداع العدو ، وإيهامه بأن الحرب ليست الخيار الأمثل أمام المصريين ، وأنهم يخشونها ، ويسعون لتفادي اندلاعها بأي ثمن ..

وكان من الواضح أن الرئيس (السادات) يسعى لخلق فريق عمل جديد ، يحمل كل رجاله موهبة محددة ، انتقاها بعناية .

موهبة رجل المخابرات ..

فقد جمع فريقه الجديد مديراً سابقاً للمخابرات العامة كقائد للجيش ، ومديراً سابقاً أيضاً للمخابرات كمستشار للأمن القومي ، ومديراً سابقاً للمخابرات الحربية كرئيس للعمليات وغيرهم من الطراز ذاته ..

ومن المؤكد أن الأيام التالية قد أثبتت ذكاء الرئيس وحصافته ، فعلى الرغم من أنه ، عند اندلاع حرب أكتوبر ، كان سرها منوطاً بأكثر من مائة وخمسين شخصاً ، في (مصر) و (سوريا) ، إلا أن اندلاعها أذهل العدو وأربكه بحق ، مما يعني أنه لم تكن هناك ثغرة واحدة ، يمكن أن تتسرب منها المعلومات آنذاك ..

وهذا يشف - بالتأكيد - عن حسن اختيار الرئيس ، وكفاءة فريقه النادر ..

ولقد نجح هذا الفريق في تسير خطة التمويه والخداع على أفضل ما يكون ، وخاصة في الشهور الأخيرة قبل الحرب ..
وكخطوة أولى ، تم نقل ورش إصلاح المعدات وصيانتها إلى الخطوط الأمامية للجبهة . مما كان له أكبر الأثر ، عند قيام الحرب فعلياً ، فنقد تم نقل أطقم الدبابات مثلاً إلى الجبهة ، في عربات نقل جنود عادية ، ثم أرسلت الدبابات فيما بعد ، يقودها سائقوها فحسب ، مع أوامر بالذهاب إلى الورش للإصلاح .

وهذا يختلف بالطبع عن حالة الاستعداد للحرب ، حيث تنتقل الدبابات بكامل طاقمها في المعاد ..

وإمكانيات في الخداع ، ترك رجال المخابرات للعبة جاسوساً إسرائيلياً يمرح في المنطقة ، ويجمع للمعلومات عن الدبابات والعربات المصفحة ، التي تتجه إلى الجبهة ويرسل إلى الإسرائيليين ما يؤكد أنها قوافل إصلاح فحسب ، ثم أطلقوا عليه ، وأوقعوه في شباكهم ، فور اندلاع الحرب ، عندما لم تعد هناك فائدة في تركه يواصل عمله ..

ولقد تم وضع كمية كبيرة من الهياكل الخشبية للدبابات والعربات المصفحة .. ووزعت بطول الجبهة ..

ولكن الإسرائيليين فطنوا إلى أنها مجرد هياكل خداعية ، وارتفعت ضحكاتهم الساخرة إلى غنان السماء ، من سذاجة المصريين وتفاهتهم ، وأعلن أكثر من خبير إسرائيلي أنه يرثي لحال المصريين ، الذين استخدموا هياكل بدائية الصنع إلى هذا الحد ، متصورين أنها قادرة على خداع الإسرائيليين ، وإيهامهم بأنها دبابات ومعدات حقيقية ..

وعندما اندلعت الحرب ، اتسعت عيون هؤلاء الخبراء ذهولاً ، والتهم الخجل عقولهم وكرامتهم ، وتحولت ضحكاتهم الساخرة إلى شهقات ألم ومرارة ، عندما اكتشفوا أن تلك الهياكل البسيطة ، كانت تخفي في أعماقها كل المعدات الحقيقية ،

التي استخدمت في عبور القنارة ، وتحطيم خط بارليف الأسطوري ..

وصول معدات العبور في حد ذاته ، خضع لخطة خداع بسيطة وعبقورية في الوقت ذاته ، فقد تم شراء كمية أكبر من المعدات المطلوبة للعبور ، وعندما وصلت المعدات الزائدة إلى (الإسكندرية) ، تم شحنها ونقلها على نحو عطنى ، يوحى بالإهمال والاستهتار ، إلى منطقة صحراوية في ضاحية (حلوان) ، حيث تم تكديسها فوق صناديق خشبية ، تم إعدادها مسبقاً ، وغطيت في إهمال ، وظلت كذلك ، تحت بصر كل عيون العدو ، حتى قيام الحرب ..

لما وصلت المعدات المطلوبة فعلياً ، فقد تم نقلها سراً إلى الجبهة ، حيث أخفيت داخل الهياكل الخشبية للساذجة .

وعندما حلفت للطائرات الإسرائيلية الاستطلاعية ، فوق الصحراء الغربية ، لتفقد الموقف هناك ، التقطت عشرات للصور بمواقع عمالية ، تحمل اسم مقاول شهير ، ورصدت سيارته ، التي تنقل العمال إلى المواقع المختلفة ، كما التقطت صورة واضحة للافتة كبيرة ، أسقطتها الرياح لتتفرس في الرمال ، دون أن يبالى أحد بإعلانيها إلى وضعها الأول ، وكانت اللافتة تحمل عبارة : « المؤسسة المصرية للعبة لاستصلاح الأراضي » ..

خريطة مسارات الأقمار الصناعية ..

فعلی خريطة الطرق ، كان من الممكن أن تتم التحركات بأسلوب مدروس للغاية ، بحيث تتحرك القوافل طوال الوقت على طرق لا ترصدها الأقمار الصناعية ، لو تم الالتزام بجدول زمني بالغ الدقة ، في وجود خريطة المسارات تلك ..

وكان من الطبيعي أن يقفز فكر الجميع إلى الجهة الوحيدة ، التي اعتاد رجالها اختراق المستحيل ، وتحقيق المعجزات على للصاعدين ، الأمنى والعربى ..

وفي زيارة مفاجئة للجهاز ، طرح الرئيس الأمر على الرجال ، وأشعل غليونه الشهير في نهاية حديثه ، قبل أن يلخص مطلبه في عبارة واحدة ، نطقها بكل الحزم والصرامة قائلاً :

- إننا نحتاج إلى هذه الخريطة ، بأسرع ما يمكن .

ثم نفث دخان غليونه ، وضافت عيناه بشدة وهو يضيف :

- وبأى ثمن .

والتقط الرجال الأمر ، وبدعوا التنفيذ على الفور ..

وطوال أسبوعين كاملين ، درس الرجال كل ما يتعلق بأقمار التجسس الصناعية ، والصور التي تلتقطها ، وكيفية التعامل معها ..

وكان من الطبيعي أن يقودهم هذا لإعادة دراسة أسلوب التعاون ، بين مخابرات الدولة ، صاحبة الأقمار الصناعية ، والمخابرات الإسرائيلية ..

ولم يخطر ببال الإسرائيليين لحظة واحدة ، أن كل تلك المواقع كانت مراكز تدريب حربية ، أقيمت فيها نماذج متفرقة لعدة قطاعات من خط (بارليف) مع متاع مائى صناعى ، لتدريب الجنود على اقتحامها والتعامل معها ..

المشكلة الحقيقية ، التي واجهت الجميع - آنذاك - هي أن الجواسيس وطائرات الاستطلاع لم تكن للعيون الوحيدة للعدو ، التي ترصد كل ما يكون ..

كانت هناك أعين أخرى أكثر خطورة .. عين تطل من السماء مباشرة ..

عين القمر التجسس الصناعية ..

واجتمع الجميع لدراسة ما يمكن أن تكشفه تلك الأقمار الصناعية . التي تقطع السماء طوال الوقت ، ويمكن رصد وتصوير كل تحركاتنا العسكرية ، على نحو يصعب معه نقل الجنود المطلوبين إلى الجبهة ، دون أن يكشف العدو ما نقوم به من استعدادات للحرب القادمة ..

وكانت نتائج الدراسة مقلقة للغاية ..

فمع العدد الكبير لأقمار التجسس الصناعية ، كانت تحركاتنا مراقبة طوال الوقت تقريباً ، بالتبادل بين كل قمر وآخر .. وأكد الفريق (الجيمسى) أيامها أن التغلب على هذه المشكلة ليس مستحيلاً ، ولكنه يحتاج إلى شيء واحد .

وفي نهاية الأسبوعين ، أصبحت الصورة واضحة أمامهم ..

فالأقمار الصناعية تلتقط للصورة على طول مسارها ، وتقوم بتحليل ألوانها إلى اثنين وثلاثين قصماً ، تتدرج من الأبيض للناصع ، إلى الأسود القاتم ، وترسل هذه الأرقام إلى محطات الاستقبال الأرضية ، حيث يعاد استبدال الأرقام بألوانها ، فتتكون الصورة ..

وبعد الحصول على الصور المرفقة ، تتولى مجموعة من الخبراء دراستها في الدولة الرئيسية ، ثم ترسل للصورة ، التي تحوى معلومات مهمة ، إلى (إسرائيل) ، حيث يعيد دراستها عدد من خبراء الأرصاد الجوية هناك ، للحصول على المعلومات اللازمة ..

واجتمع الرجال كالمعتاد ، وتم طرح ما توصلوا إليه ، ثم قال أحدهم :

- من الواضح أنه لا توجد سوى وسيلتين ، للحصول على مسارات الأقمار الصناعية ، وما تحصل عليه من معلومات ، فإما أن نزرع عميلاً في مركز استقبال المعلومات ، في الدولة الكبرى ، أو نسعى لتجنيد أحد الخبراء ، من مركز الأرصاد الجوية ، في (إسرائيل) ، وفي الحالة الأولى ، سنحصل على خرائط للمسارات مباشرة ، ولكننا سنحتاج إلى وقت طويل ، وربما أكثر مما لدينا بالفعل ، لنزرع عميلاً جديداً ، في مكان

شديد الحساسية والخطورة كهذا ، أما في الحالة الثانية ، فيمكننا استنتاج المسارات الفعلية من الصور الملتقطة وتوقيت كل منها ، وسيستغرق هذا بعض الوقت بالتأكيد ، ولكن تجنيد أحد خبراء الأرصاد أمر ممكن نسبياً ، مما قد يؤدي إلى نتائج أفضل .

كانت وجهة النظر سليمة ومنطقية بالفعل ، حتى إن مناقشتها لم تستغرق وقتاً طويلاً ، قبل أن يتم اختيار الأسلوب الثاني بالإجماع ، وكالمعتاد أسندت المهمة لصاحب الاقتراح ، باعتباره الفضل من يتعامل معه ..

وفي مساء اليوم نفسه ، بدأت عملية (عين السماء) ..

وفي حماسة وهمة شديتين ، ودون نوم (تقريفاً) ، طوال أكثر من يومين ونصف اليوم ، جمع ضابط المخابرات (م . ن) كل المعلومات الممكنة ، عن كل فرد من خبراء مركز الأرصاد الإسرائيلي ، وبالأخص أولئك الذين تلقوا دورات تدريبية في قراءة صور الأقمار الصناعية وتحليلها ..

ووقع الاختيار على (زلفى) ، وهو شاب في أوائل الثلاثينات من عمره ، من أصل بولندي ، حصل على شهادته الجامعية من جامعة (وارسو) ، قبل أن يبلغ الحادية والعشرين من عمره ، ونال رسالة الدكتوراه في الثالثة والعشرين ، قبل أن تهاجر أسرته كلها إلى (إسرائيل) ويحصل هناك على عمل في هيئة الأرصاد الجوية لا يتناسب أبداً مع مؤهلاته وخبراته

وظوال ست سنوات كاملة ، لم يحصل (زلفى) على أية ترقية أو علاوات ، وإنما على العكس ، كان مديره ورئيسه المباشر يتعاملان معه بصلف وتكبر وتعت ، وكأنما يغاران من ذكائه وعبقريته وتفوقه ..

ومع الوقت تصاعدت فى أعماق (زلفى) نبرة غضب وكراهية لمجتمعها الجديد ، وأحجم عن الزواج ، وراح يقضى معظم وقت فراغه فى أماكن اللهو والعبث ، وإن لم يتورط قط فى أية علاقات عاطفية ، أو قمار أو غيره ..

وفى الثلاثين من عمره ، تم اختياره ضمن فريق جديد ، لفحص صور الأقمار الصناعية وتحليلها ..

وعلى الرغم من أهمية عمله ، لم يشعر (زلفى) بليّة حملته ، خاصة وإن رئيسه الجديد شعر أيضا بالغيرة من عبقريته فاستبدده فى ترقية ، وأسند إليه عمليات لفحص الأولية ، التى لا تحتاج إلى مهارات خاصة ، أو كفاءات نادرة . وهنا ، بلغ غضب (زلفى) وبقته ذروتها

وعندما أوشك على الانفجار ، وجد نفسه بين ذراعى المخابرات العامة المصرية ..

ولم تستغرق عملية تجنيد (زلفى) وقتًا طويلاً ؛ إذ عندما التقى به (م . ن) بنفسه .. فى واحدة من دول (أوروبا) فى بدايات عام ١٩٧٣ م ، كان

مستعداً ومؤهلاً لبيع المعلومات إلى المصريين ، دون أن يسأل عن الثمن . وكأنما يجد كل متعته ولذته فى الانتقام من الإسرائيليين فحسب ..

والأمر الذى يؤكد هذا ، هو أن (زلفى) كان يحمل فى جيبه ، فى أول لقاء له مع (م . ن) ، قاتمة كاملة بأسماء كل القادة العسكريين ، الذين يتعاملون مع مركز الأبحاث الإسرائيلى ، ليثبت حماسه ورغبته الحقيقية فى التعاون . وعلى الرغم من كل هذا ، لم يشرح له (م . ن) الأمر قط ، وإنما أخبره أنهم يسعون إلى معرفة ما يعرفه الإسرائيليون عن المصريين فحسب ..

وأولاً فاولاً ، ولمدة شهر كامل راح (زلفى) يرسل المعلومات ، التى يحصل عليها من الصور ، إلى المصريين . الذين استخدموها لتكوين صورة أولية عن الأمر ، إلا أنها لم تكن تكفى للحصول على المطلوب ، ولهذا فقد سافر (م . ن) مرة أخرى إلى (أوروبا) ، والتقى هناك بعميله (زلفى) وقال له فى هدوء ، وهما يحتسيان القهوة ، فى شقة آمنة ، أمام برج لثرى شهير ، مع غروب الشمس :

- قل لى يا (زلفى) : هل يمكنك أن ترسل لنا الصور نفسها ، بدلا من ملخص ما تحويه من معلومات ؟ !
لتعقد حاجبا (زلفى) فى شدة ، وهو يسأله :

.. لعلنا ١٩ ألا تتقون بتحليلي لها ١٩

هز (م.ن) كتفيه ، وقال :

.. إبتنا نرغب في إلقاء نظرة عليها فحسب .

صمت (زلفى) طويلاً ، وكأنا نحاول لاستيعاب الأمر

وهضمه ، وعيناه تكادان تنفذان إلى أعماق (م.ن) ، قبل أن

يومي برأسه ، مضغماً :

.. فليكن .

ثم استدرك في قلبي :

.. ولكن إرسال الصور ينطوى على مخاطرة بالغة و ...

قأطعه (م.ن) في حزم :

.. لن ترسل الصور .

رفع (زلفى) عينيه إليه في دهشة ، فاستطرد في سرعة :

.. نريد أرقامها وتوقيت كل منها فحسب .

وعلى الرغم من دهشة (زلفى) وحيرته ، فقد نفذ الأمر

كما طلبته منه المخابرات المصرية بالضبط .

وانتهالت المعلومات على الرجال في تواصل مدهش ،

وانهمك فريق من العلماء في إعادة تركيب الصور ، ودراساتها ،

وتحديد مساراتها ، وتوقيتاتها ، و ...

وفي منتصف يوليو ١٩٧٣ م ، كانت كل المعلومات أمام

الرئيس وقادته ، وفريق العمل الخاص بالإعداد للحرب ..

وتم إعداد عدد من الجداول الزمنية شديدة التعقيد ، تحدد

مواعيد تحرك القوات ، ومساراتها ، وأماكن توقفها ، وزمن

التوقف بالدقيقة والثانية ، وصدرت أوامر مشددة باتباع جداول

المواعيد بمنتهى الدقة مهما كان الثمن ..

وهكذا بدأت الطوابير تتحرك إلى الجبهة في مجموعات

صغيرة ، فوق طرق مختارة بعناية ، ثم تعود العربات بأعداد

كبيرة في الطرق الرئيسية ، لترصدها الأقمار الصناعية ،

وترسل إلى الإسرائيليين معلومات خاطئة ، أدت إلى فشل

حساباتهم ، وتصورهم أن الحرب بين العرب وإسرائيل لن تأتي

أبداً .

لذا ، فقد هوى خبر اندلاع الحرب على رعوس الجميع

كالصاعقة ، وصرخ بعضهم بأنه من المستحيل أن يفعل

المصريون هذا ، ومن غير الممكن أن ينجحوا في عبور القناة ،

وتحطيم خط (بارليف) الأسطوري ..

ولم يدرك الذين أطلقوا صرخاتهم ، أن تلك العين ، التي

وضعوها فوق رعوسنا ، لم تكن تملأ شيناً ، أمام عين

السماء ، التي ترعانا وتسدد خطانا ، وتقودنا إلى النصر .

عين الخالق (سبحانه وتعالى) ..

عين الحق .

★ ★ ★

١٠٩

١٠٨

العائلة المسمومة

منذ اشرقت شمس الثلاثين من أغسطس ، عام ١٩٧٤م لم يهدأ (اهارون ياريف) المستشار الأمنى لرئيسة الوزراء الإسرائيلية (جولدا مائير) لحظة واحدة . وهو يعد كل الأوراق والمستندات التى تحتاج إليها رئيسة الوزراء فى اجتماع المجلس . الذى تقرر عقده فى الواحدة ظهرا ...

كل ما كان ينقصه ، ليتم أوراقه ، هو رسالة لاسلكية ، تحوى بعض المعلومات العسكرية المصرية المهمة ، التى طلبتها رئيسة الوزراء ، واتى وعدها مدير المخابرات شخصيا بإحضارها فى الوقت المناسب ، فور وصولها من (القاهرة) عبر جهاز إرسال حديث للغاية ، يبدأ بثه لأول مرة ، على يد واحد من أهم وأخطر عملاء (إسرائيل) فى قلب (مصر)

مع مرور الوقت واقترب عقارب الساعة من منتصف النهار ، تضاعف توتر (ياريف) وخاصة عندما اتصلت به (جولدا مائير) وطُلبت منه استكمال كل أوراقه قبل الواحدة

وفى الثانية عشرة والنصف بالضبط ، أبلغه مدير مكتبه أن مدير المخابرات الإسرائيلى وصل بنفسه ، فطلب منه إحالته على الفور ، واستقبله فى لهفة متوترة ، وهو يهتف .

- أهلا يا رجل لماذا تأخر وصول الرسالة كل هذا الوقت ؟! لقد أثرت أعصابى بشدة ! المفترض أن .



بتر عبارته بغثة ، عندما لمس ذلك التوتر الضيق ، الذي
يطل في إصرار ، من كل خلجة في خلجات مدير المخابرات
الإسرائيلي ، وسأله في قلق شديد :

- ماذا حدث ؟! ألم تصل الرسالة ؟!

تردد مدير المخابرات الإسرائيلي لحظة ، قبل أن يناوله
ورقة مطوية ، وهو يجيب :

- الواقع أن الرسالة قد وصلت ، ولكن ليس على النحو
الذي كنا نتوقعه .

اختطف (ياريف) الورقة في يده ، وفضها في سرعة ،
وارتجف جسده كله في عنف ، وهو يقرأ أسطرها القليلة ، قبل
أن يترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليه ، وهم يتمتم :
- كارثة .. كارثة .

وافق مدير المخابرات الإسرائيلي بوجه شاحب ، وإيماءة
مبتورة فدفن الرجل وجهه بين كفيه بضع لحظات قبل أن يطلق
من أعماق صدره زفرة ملتهبة ، ثم يلتقط سماعة الهاتف ،
ويطلب رقم رئيسة الوزراء ، التي لم تكد تتعرف صوته حتى
سأله في لهفة :

هل أحضرت الأوراق المطلوبة ؟!

ازدد (ياريف) لعبه في صعوبة ، وقال :

- كلا .. لم تكتمل الأوراق .

هتفت محنقة :

- كيف هذا ؟! الاجتماع سيبدأ بعد ..

قاطعها في توتر زائد :

- أعتقد أن أفضل ما يمكن عمله الآن هو إلغاء الاجتماع ،
حتى إشعار آخر .

صمتت رئيسة الوزراء الإسرائيلية لحظة ، من غرط الصدمة ،
قبل أن تسأله في خفوت ، شف عن مدى انفعالها :
ماذا حدث ؟

أطلق زفرة أخرى ، قبل أن يجيب :

- المصريون فعلوها مرة أخرى .. لقد أوقعوا بأقوى رجالنا
(في القاهرة) وبضربة واحدة .

ولم تنبس رئيسة الوزراء بحرف واحد ..

فقد كانت للصدمة عذبة ..

وإلى أقصى حد ..

* * *

(إبراهيم سعيد شاهين) ، موظف سلبى ولد سكان مدينة (العريش) ،
الذين عاشوا الأمرين ، بعد الاحتلال الإسرائيلي في يونيو ١٩٦٧ م .

لقد خسر وظيفته وعمله ، في نفس الوقت الذي قشطت فيه عائلته ،
إذا كان ولداه (نبيل) و (محمد) يدرسان في (القاهرة) في حين يقيم
هو وزوجته (قشراح علي موسى) في (العريش) ، ويكافحون
كالآخرين ، للحصول على دخل يكفي لحياة متوازنة ، في ظل الاحتلال ..

كثيرون هم من عاثوا من هذه الظروف ..

وقلة من فعلوا مثل (إبراهيم شاهين) ، الذى رأى أن السبيل الوحيد للتخفيف من وطأة ومتاعب الاحتلال ، هو اللجوء إلى المحتلين انفسهم ..

وفى صباح أحد الأيام الدافئة ، توجه (إبراهيم) إلى الحامية العسكرية . وطلب مقابلة أحد المسئولين فيها ، طلبا لفرصة عمل أو مساعدة . فالتقى به بالفعل الضابط (نعيم) ، واستمع إليه جيدا ، ثم طلب منه الحضور فى اليوم التالى ..

وكعادة الإسرائيليين قضى الضابط (نعيم) ذلك اليوم ، فى جمع المعلومات عن (إبراهيم شاهين) ، ومعرفة طباعته وسماته ومراجعة تصرفاته ، حتى جاء اليوم التالى ، وهو يدرك جيدا طبيعة الرجل الذى حضر فى الموعد المحدد ، فأعطاه (نعيم) جوال دقيق ، وطلب منه الاتصال به مرة أخرى ، إذا ما احتاج إلى المساعدة .

وعاد (إبراهيم) إلى منزله بجوال الدقيق ، الذى سعدت به زوجته (انشراح) ، وراحت تلقى عليه عشرات الأسئلة ، حول الضابط (نعيم) ، وأسلوب حديثه ، وما طرحه عليه من أسئلة ثم لم تلبث أن شجعتة على الاتصال به مرة أخرى . وطلبت منه أن يتقدم بطلب للسفر إلى (القاهرة) ، لينتتم الشمل بولديهما (نبيل) و (محمد) .

وبفصل تشجيع (انشراح) المستمر ، ذهب (إبراهيم) مرة

أخرى لمقابلة الضابط (نعيم) الذى أحسن استقباله ، ودعاه إلى مكتبه ، مما شجع (إبراهيم) ، فطلب منه تصريح السفر إلى (القاهرة) وهنا تراجع (نعيم) فى مقعده ، وسأله :

وما الذى ستفعله فى (القاهرة) يا (إبراهيم) ؟

أجابه (إبراهيم) فى حذر :

لى ولدان هناك ، وسوف ...

قاطعته الضابط (نعيم) فى صرامة ، مكرراً :

- ما الذى ستفعله فى (القاهرة) ؟

تلفت (إبراهيم) حوله فى حذر قلق هذه المرة ، قبل أن يميل نحو مكتب الضابط (نعيم) متسكلاً فى همس ، وكأ أنه يخشى أن يسمعه أحد :

- ماذا تريدون منى أن أفعل فى (القاهرة) ؟

وهنا ابتسم الضابط (نعيم) وضافت عينه ، وهو يقول :

- هذا يحتاج إلى مقابلة شخص مسئول .

وفى اليوم التالى ، اصططحبه (نعيم) إلى (بنر سبع) ، حيث التقى بالضابط (أبى يعقوب) ، الذى عرض عليه العمل معهم فى وضوح ، وأخبره أن كل المطلوب منه فى (القاهرة) هو معرفة أسعار الخضراوات والفاكهة ، بحجة إرسالها إلى شقيقه ، الذى يمتلك مكتباً للاستيراد والتصدير فى (لندن) .

ووافق (إبراهيم) على الفور وخاصة بعد أن علم أنه

سيحصل على راتب مقداره مائتا دولار شهرياً ، بالإضافة إلى مكافأة خاصة ، عن كل معلومة مهمة يرسلها ، ولقد أعطاه (أبو يعقوب) ألف دولار ، وبعض الضالوين في (أوروبا) ؛ لإرسال المعلومات إليها ..

وعند عودته إلى منزله أخبر (إبراهيم) زوجته (تشراح) بكل ما حدث ، فسمعت بالراتب وقررت مساعدته في عمله القذر ، فور وصولهما إلى (القاهرة) .

وهكذا انتقل (إبراهيم) و (تشراح) إلى (القاهرة) حيث استقبلهما مسئول محافظة (سيناء) في (القاهرة) في تلك الحين ، ومنحهما بعض التسهيلات المالية المخصصة لضحايا العدوان ، كما حصل على منزل في حي (المطرية) ، واستقر بهما المقام هناك مع ولديهما (نبيل) و (محمد) والتأم الشغل أخيراً ..

ولم يضع الزوجان لحظة واحدة ، منذ وصولهما إلى (القاهرة) ، فقد بدءا في جمع كل ما يمكنهما من معلومات على الفور وأخذا يرسلان حصيلتيهما أولاً فلولاً إلى تلك الضالوين في (أوروبا) ...

ويبدو أن تلك المعلومات كانت جيدة بالفعل ؛ إذ لم يلبث الإسرائيليون أن طلبوا من (إبراهيم) و (تشراح) السفر إلى (روما) وهناك تم سحب جوازي سفرهما المصريين ، وحصولا

بدلاً منهما على جوازي سفر إسرائيليين ، باسم (موسى عمر) و (نينا عمر) وحملتهما واحدة من طائرات (العال) إلى مطار (تلد) في قلب (إسرائيل) ومنه انطلقت بهما سيارة حربية إسرائيلية إلى (بنر سبع) مباشرة ، حيث استقبلتهما (أبو يعقوب) ، الذي سألتهما عن مصادر معلوماتهما ، قبل أن يقول في حزم : إتينا نتي بأقولكما بالتأكد ، ولكن هناك اختياراً ينبغي القيام به .

وكانت صدمة للزوجين ، عندما علما أن السبب الرئيسي لإحضارهما إلى (تل أبيب) هو إخضاعهما لاختبار خاص على واحد من أحدث أجهزة كشف الكذب الأمريكية .

وعندما جاءت نتائج الاختبار لتؤكد أنهما يتعاونان بالفعل مع المخابرات الإسرائيلية ، وليس لحساب المخابرات المصرية ، اعتذر لهما (أبو يعقوب) ، وأخبرهما أن هذا يحدث مع كل العملاء بلا استثناء ، بين كل فترة وأخرى ، ثم أبلغهما أنهما سيتلقيان بعض التدريبات ؛ لرفع مستوى كفاءتهما في أعمال التجسس وجمع المعلومات ..

وبالفعل تلقى (إبراهيم) و (تشراح) دورة تدريبية متقدمة ، على أعمال التجسس ، واستخدام الأخبار السرية واللاسلكي وغيرها ، قبل أن يعودا مرة أخرى إلى (أوروبا) ، ويستعدا جوازي سفرهما الحقيقيين ؛ ليعودا بهما إلى (القاهرة) ..

وفي هذه المرة ارتفع الراتب إلى ثلاثمائة دولار ،
وتضاعفت مكافأة جمع المعلومات مما شجع الزوجين الخائنين
على المضى قدماً في خيانتهم ، وشجعهما أيضاً على القيام
بخطوة غير مسبوقة ، في مجال الجاسوسية ..

ف ذات يوم ، وبمحض الصدفة كشف (نبيل) حقيقة والديه ،
وكونهما جاسوسين ، يعملان لحساب المخابرات الإسرائيلية .

وعلى عكس ما توقع (إبراهيم) و (اشراح) لم يفضب
(نبيل) ، أو يثر ، أو حتى ينظر إليهما نظرة احتقار ولزراء
بل طالب بنصبييه من الكعكة ما دامت تكفي للجميع

وبأسلوب عملي بحت ، وبلا أننى لمحة من المشاعر الأبوية ،
أخبر (إبراهيم) ابنه أنه لا نقود بلا عمل ، وما دام يرغب في
الحصول على أجر كبير ، فليقم بجمع المعلومات المطلوبة أيضاً ..

وهكذا انضم عضو جديد إلى شبكة الجاسوسية العائلية .

ولم يمض شهران آخران حتى انضم (محمد) أيضاً إلى
مستنقع الخيانة ليكمل بهذا النصاب العائلي كله ، وليكتب تاريخ
الجاسوسية اسم أول عائلة تعمل بالكامل في هذا المضمار ،
وفي الجانب القذر منه فحسب .

ومع تعاون الأسيرة ، بدأ الإسرائيليون يتلقون فيضاً من
المعلومات التي أسالت نعالهم ، وأثارت اهتمامهم ، وخاصة في

تلك الفترة بعد وفاة الرئيس (جمال عبد الناصر) وتولى
الرئيس (أنور السادات) السلطة وسعى الجميع لمعرفة قراره
بشأن الموقف المتجدد في (سيناء) ..

حرب لم لا حرب !!

ولأن الموقف كان يستحق الانتقال إلى خطوة تالية فقد تم
استدعاء الزوجين مرة أخرى إلى (روما) ، ومنها سافرا بجوازي
السفر الإسرائيليين إلى (الد) ومنها إلى (بنر سبع) ، حيث
استقبلهما (أبو يعقوب) ، بترحاب بالغ هذه المرة ، وأخبرهما أن
راتبهما سيرتفع إلى ثلاثمائة وخمسين دولاراً ، كما أن المكافآت
ستضاعف مرة أخرى ، ثم أبلغهما أنهما سيتلقيان دورة تدريبية
جديدة متقدمة ، على كيفية تصوير الأهداف والمستندات ، وأن
بانتظارهما مفاجأة مذهشة بعد انتهاء الدورة مباشرة ..

وخاض الزوجان الدورة التدريبية الجديدة ، وتلقى كل منهما
آلة تصوير حديثة دقيقة ، يمكنها التقاط الصور في الضوء
الخافت ، وبسرعة كبيرة ، ودون الحاجة إلى مصابيح تصوير ..
ومع اجتياز الدورة بنجاح ، كانت تلك المفاجأة في انتظارهما
بالفعل ..

فبعد اطمئنان الإسرائيليين إلى إخلاص (إبراهيم)
و (اشراح) في الخيانة قرروا ضمهما إلى الجيش الإسرائيلي

فحصل (إبراهيم) على رتبة مقدم ، فى حين حصلت (انشراح) على رتبة ملازم أول ..

وعاد الخائن إلى (مصر) وهما يحملان رتبتيهما الجديتين ، وآلات التصوير الحديثة . وعادت عجلة الخيانة تدور ...

وفى أوائل أكتوبر عام ١٩٧٣م سافرت (انشراح) وحدها إلى (روما) وانتظرت هناك قدوم (أبى يعقوب) ، الذى وصل يوم السابع من أكتوبر ، وهو يحمل حزن ومرارة الدنيا كلها ، وسألها عن ظروف الحرب ، وسقوط خط (بارليف) ، وتفوق المصريين والسوريين على الجبهتين ، فتلقت الخبر كالصاعقة ، وأخبرته أنها لا تعلم أى شيء عن تفاصيل الحرب وأنها تسمع الأمر منه لأول مرة ..

ويومها بكى (أبو يعقوب) منهزماً وأخبرها أن هذا أسوأ يوم فى حياته كلها وأن مفاجأة حرب السادس من أكتوبر كانت فوق طاقتها فهدأت (انشراح) من روعه وأخبرته أنها تشعر بالصدمة نفسها ..

ولم تكذ (انشراح) تعود إلى (القاهرة) حتى وصل استدعاء إلى (إبراهيم) لیسافر وحده إلى (بئر سبع) . وفى أبريل ١٩٧٤م سافرت الأسرة كلها إلى (تركيا) ثم لفصل (إبراهيم) عنهم وسافر وحده إلى (بئر سبع) ، حيث

استقبله (أبو يعقوب) مع طاقم جديد من ضباط المخابرات الإسرائيليين بعد أن أسقطت الحرب الطاقم القديم ، وهناك واجهه السؤال الأكثر أهمية :

- كيف لم تشعر ببؤس الحرب فى (القاهرة) ؟

وكان (إبراهيم) مخلصاً فى جوابه تماماً ، عندما قال :

- لم يشعر أحد ببؤس الحرب .. كل شيء كان يصير على مايرام .. حتى الذين يعملون كضباط فى الجيش المصرى ، لم يشعروا قط أن الحرب على الأبواب .. بل لقد فتحت القوات المسلحة المصرية باب التقدم لعصرة (رمضان) وبعض الضباط لكبار حجزوا أماكنهم بالفعل .

كان جوابه سليماً ومنطقياً للغاية ، وكل الجالسين حول مائدة الاجتماعات يطمنون هذا جيداً ، فقد أجاد الرجال فى (القاهرة) اللعبة تماماً ، حتى إن كل أجهزة المخابرات الإسرائيلية ، وحتى الأمريكية لم يمكنها التنبؤ بالأمر فى حينه ، فجاءت الحرب مفاجأة صاعقة للجميع ..

لذا فقد ابتلع الإسرائيليون الجواب وأخبروه أن أكثر ما يقلقهم الآن هو أن يشن عليهم المصريون حرباً أخرى فى هذا الوقت الذى لم تلتئم فيه جراحهم بعد ، خاصة وأنهم لم يستعيدوا (سيناء) كاملة ..

وبصوت حمل كل نوته ، قال قائدهم :

- المطلوب منك في المرحلة القادمة هو كشف ثوابنا المصريين ، والسعي لمعرفة هدفهم للقادم بالتحديد ، ولو نجحت في إبلاغنا بموعد الحرب القادمة ، قبل اندلاعها بيوم واحد على الأقل ستحصل على مكافأة ضخمة .

ثم مال نحوه مستطرذا :

- مليون دولار .

شهق (إبراهيم) من فرط الدهشة والانبهار ، إلا أنه لم يلبث أن عبر عن قلقه الخاص ببطء وسائل الاتصال ، وصعوبة إيصال المعلومة لو نجح في الحصول عليها ، في الوقت المناسب . لذا فقد أخبره رجل المخابرات الإسرائيلي أنهم سيمنحونه أحدث جهاز اتصال لاسلكي ، ويمكنه بث رسائله بسرعة خمس كلمات في الثانية الواحدة ، وطلبوا منه الحفاظ على الجهاز ، واستخدامه لإبلاغهم بالمعلومات أولاً فآولاً .. وعاد (إبراهيم) وأسرته إلى (القاهرة) هذه المرة ورعوسهم جميعاً تحلم بمكافأة الخيانة الكبرى .

بالمليون دولار ..

وفي منزلهم الجديد قام (إبراهيم) بتجربة إرسال ، بواسطة الجهاز الجديد ، إلا أن البث لم يكتمل ، بسبب عطل في أزرار الجهاز وحاول (إبراهيم) إصلاح العطل ولكن ذلك لم يكن ممكناً ، دون طاقم أزرار جديد ..

ولأن هذه الأشياء لا يمكن أن تتوافر للمستهلك العادي ، تطوعت (انشراح) بالسفر وحدها إلى (إسرائيل) ، لإحضار طاقم أزرار بديل ..

وسافرت (انشراح) دون أن تدري أن وصول جهاز الاتصال الجديد كان للبداية ..

بداية نهاية رحلة الخيانة للطويلة ..

فالتواقع أن المخابرات المصرية كانت تضع عينيها على عائلة (إبراهيم شاهين) منذ فترة طويلة ، وخاصة مع أسفارهم المتعددة ، وعلامات الثراء التي ظهرت عليهم ، والبذخ الذي ينفق به الابن (نبيل) بالتحديد ..

ومع المراقبة المستمرة كانت الصورة تتضح أكثر وأكثر .

وكانت الخيانة ترسم صورتها بحروف من طين ..

كل ما كان ينقص الرجال هو الدليل المادي القوي الذي يكفل لهم إلقاء القبض على عائلة الحونة بأكملها ، دون ثغرة واحدة ..

وعندما بدأ (إبراهيم) ذلك البث الذي لم يكتمل ، لم يكن يدرك أنه بذلك يمنح الرجال الدليل الذي يمتدونه ..

للدليل على خيائته وخيانة أسرته كلها ..

ففي ذلك الحين ، وعلى الرغم من تصور الإسرائيليين أنهم

يملكون تكنولوجيا غير مسبقة ، كان لدى (مصر) جهاز جديد ، يعرف باسم (صائد الموجات) له قدرة مذهشة على اصطياد أية موجة قصيرة ، وتحديد مصدر بثها ، بدقة تبلغ واحد في كل مائة ألف كنسبة خطأ ..

وهكذا علم الرجال أن الجهاز قد وصل إلى (القاهرة) .. وأن عائلة الخونة قد سقطت .

وفي السادسة من صباح الخامس من أغسطس عام ١٩٧٤م تم اعتقال (إبراهيم شاهين) وولديه (نبيل) و (محمد) في منزلهم ..

والعجيب أن (إبراهيم) لم يقاوم الاعتقال !!

بل ولم يعترض بحرف واحد ، لو يسأل الرجال حتى عن هويتهم ، أو إذن النيابة العامة ، الذي يحملونه !! وفي استسلام ذليل كتب اعترافه كاملاً ، ونيله بتوقيعه ..

وعندما عادت (إنشراح) ، في السادس والعشرين من أغسطس ، فوجئت برجال المخابرات في منزلها ، يواجهونها بخيانتها . فهاجت وماجت وصرخت وبكت واستكرت ثم استعطفت وتوسلت وأعلنت استعدادها للتعاون ..

ولكن بعد فوات الأوان .

وفي الثلاثين من أغسطس ، وبعد أن كشف المصريون موجة الإرسال التي يبث بها الجهاز الجديد رسالته إلى

(إسرائيل) . أرسلوا إلى رجال المخابرات الإسرائيلية رسالة قصيرة تقول :

لا تزعجوا أنفسكم بالاتصال بعميلكم (إبراهيم) و (إنشراح) ، فقد تم كشف أمرهما ، وأصبحا في قبضتنا .. وإلى جولة أخرى ... المخابرات المصرية .

وهي نفس الرسالة التي قرأها (أهرون ياريف) المستشار الأمني لرئيسة الوزراء الإسرائيلية حينذاك ، (جولدا مائير) التي أدركت ، كما أدرک الجميع ، أن المصريين قد ربحوا هذه الجولة أيضاً ..

وبتفوق ..

وفي الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٧٤ ، أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بإعدام (إبراهيم سعيد شاهين) وزوجته (إنشراح على موسى) ، وبالسجن خمس سنوات لآبئهما (نبيل شاهين) ، وبتحويل (محمد) إلى الأحداث ..

وكان هذا هو الفصل الأخير في قصة الخيانة ، التي دفعت ثمنها عائلة بأكملها .

للعائلة المسمومة !

★ ★ ★

الصمت

الأول من أكتوبر عام ١٩٧٣م - الخامس من رمضان عام

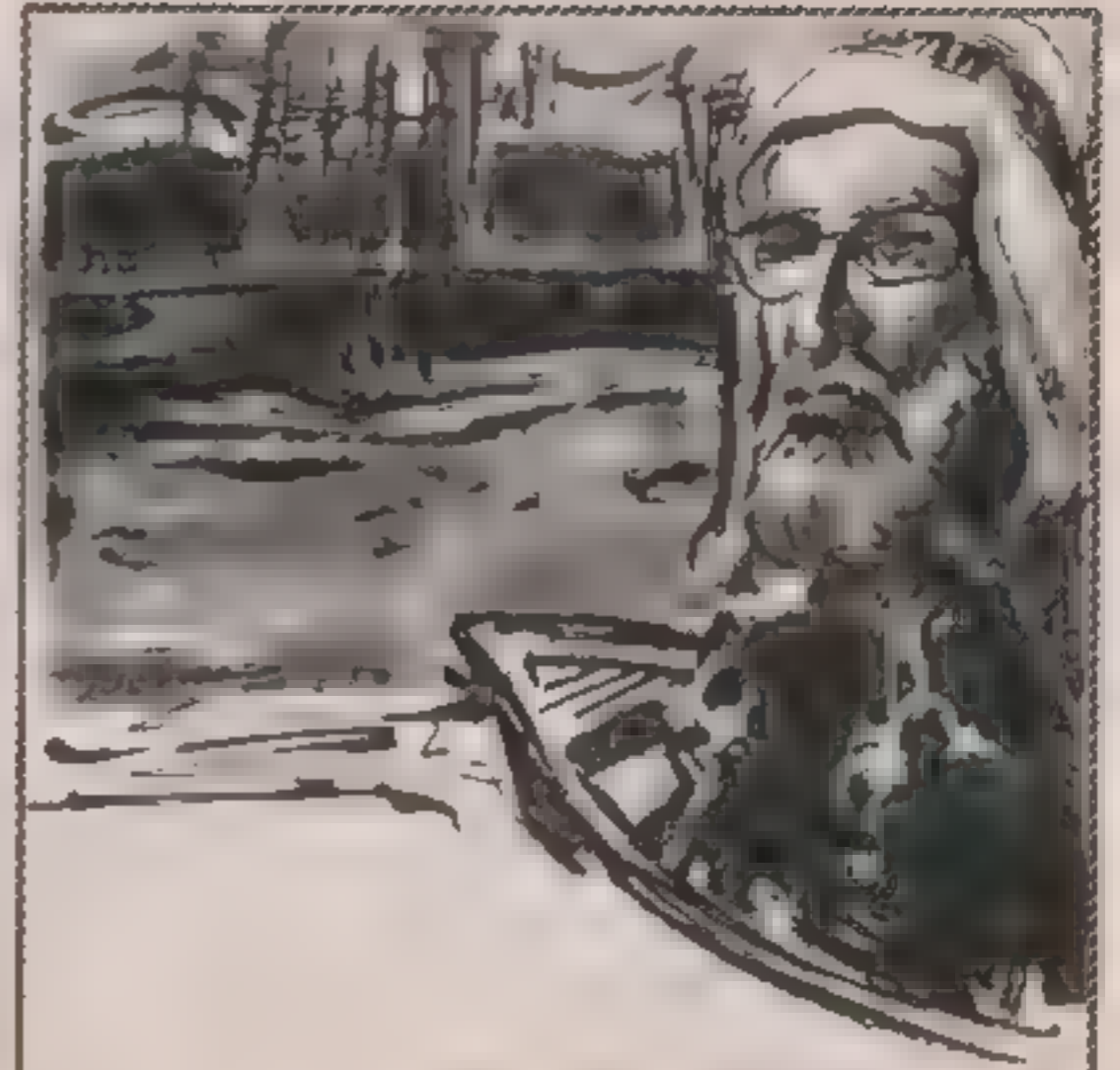
١٣٩٣ هـ ..

كل شيء يبدو هادئاً على السطح في (القاهرة) ، التي
تشغل معظم قاطنيها بمتابعة فوازير ومسلسلات شهر رمضان ،
وانهمك البعض في أعمالهم ، التي تشهد رواجاً ملحوظاً ، في
ذلك الشهر الكريم ، مع إقبال الناس على الشراء ، واستمتاعهم
بالسهر والتجوال ، حتى مطلع الفجر ..

ولكن ، دعنا نبتعد عن قلب (القاهرة) ، ونتجه إلى ذلك
المبنى القابع خلف القصر الجمهوري ، في حدائق القبة ،
وستبدو لنا الصورة مختلفة تماماً ..

ففي قاعة الاجتماعات ، في أحد طوابق المبنى الفامض ،
التف عدد من الرجال حول خريطة مجسمة ضخمة ، تحل
منضدة كبيرة ، في منتصف القاعة ، وتمثل نموذجاً شديداً
الاتقان لصحراء (سيناء) بكل مدنها وطرقها ، والمنشآت التي
أقامها الإسرائيليون عليها ، حتى بجبالها وتبائها وكثبانها
الرمليّة .

وكانت المناقشة محتدمة للغاية ، بين هؤلاء الرجال ، الذين
هم صفوة جهاز المخابرات العامة ، وخلاصة خبراته وعقوله ،



الصمت

والذين أدركوا قبل غيرهم أن الحرب على الأبواب ، وأن المهمة التي أسندت إليهم منذ فترة طويلة ، قد شارفت ذروتها ، واقتربت من اللحظة التي تحسم عندها الأمور ، والتي لن يشهد نهايتها إلا المنتصرون ..

وفي حزم ، أشار قائد الرجال إلى مبنى صغير على الخريطة ، يرتفع فوقه برج معننى طويل ، وهو يقول هنا تكمن المشكلة الحقيقية ، فهذا هو مركز التنصت ، الذى أنشأته المخابرات الإسرائيلية فى منطقة محمية للغاية ، على ساحل (سيناء) الشمالى ، وهو يضم بين جدراته أحدث الأجهزة الإلكترونية وأكثرها تطوراً ، وبفضلها يصبح بمقدور الإسرائيليين الاستماع إلى الإشارات المتبادلة ، بين وحدات الجيش المصرى ، وبين هذه الوحدات وقبائلها فى جبهة قناة السويس .. وهذا أمر بالغ الخطورة ، وخاصة فى ساعة القتال .

ثم اعتدل ، ودار بعينه فى وجوه الرجال ، قبل أن يضيف فى حزم أكبر : ولهذا ، لابد من تدمير ذلك للمركز ، قبل ساعة الصفر .

التقط الرجال عبارته ، وعادوا يتناقشون فى حماسة ، واقترح أحدهم فكرة مهاجمة المركز بالطائرات المصرية ، أو بوساطة فريق من رجال الكوماتدوز ، ولكن مرعان ما تم طرح الفكرة جانباً ، لأنها ستنبه الإسرائيليين إلى قرب حدوث هجوم

مصرى شامل ، ثم إن الإسرائيليين اختاروا للمحطة نقطة حصينة للغاية ، وأحاطوها بحراسة مشددة ، ومراقبة دائمة دقيقة ..

وفى أثناء المناقشات والمحاورات ، هتف أحد للرجال فجأة :
- ولمَ لا نلجأ إلى ضربة غير مباشرة ؟!

التفتت إليه العيون كلها فى تساؤل ، فأضاف فى حماسة ، وهو يشير إلى نقطة أخرى على الخريطة :

هذه هى محطة المحولات الكهربائية ، للمقامة خلف جسر (وادى العريش) وتشتمل على ثلاثة محولات ضخمة ، كل منها له ثلاثة أوجه ، من الطراز الذى يجرى فيه الزيت مضغوطاً ، ويتم تبريده بتيار من الهواء ، وهذه المحطة تمد مصكرات الجيش الإسرائيلى فى (سيناء) وثلاجات حفظ الأطعمة الضخمة ، وأجهزة التكييف فى غرف العمليات والقيادة بالتيار الكهربى ، ولكن الأكثر أهمية هو أنها مصدر الطاقة الرئيسى لهذا المبنى .

قلها وهو ينقل سبابته إلى مبنى مركز التنصت ، فتألفت العيون كلها فى آن واحد ، وفهم الجميع الفكرة فى لحظة واحدة ، وهتف أحدهم :

فكرة عبقرية .. إذن فالتت تفتوح تدمير محطة المحولات للكهربائية ، وقطع للطاقة عن مركز التنصت :

أشار للرجل بكفيه ، وهو يقول مبتسمًا :

بالضبط . إننا لن نشغل أنفسنا بتدمير مركز التنصت ،
ولكننا سنقطع أنفيه ، ونغرقه في عالم من الصمت .

بدا القلق على وجه قائد الرجال ، وهو يقول :

- إنها فكرة جيدة بالفعل ، ولكن المشكلة أنها تحتاج إلى
إعداد مسبق . وليس لدينا الوقت الكافي لتدريب الرجال ،
وإرسالهم إلى هناك ، و

قبل أن يتم عارته ، اندفع رجل آخر يقول في حماسة :
- ربما لا نحتاج إلى هذا .

تطلع إليه زملاؤه ، فتابع بسرعة :

لدينا في العريش من يمكنهم تنفيذ المهمة ، وبكفاءة مذهلة ..
إنني أعني تلك المجموعة . مجموعة (صباح الكاشف) .
ومرة أخرى تألفت كل العيون ، فقد كان هذا الاقتراح رائعًا ..
رائعًا بحق ..

★ ★ ★

الرابع من أكتوبر عام ١٩٧٣م الثامن من رمضان عام
١٣٩٣ هـ .

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفתי الصيدلي (محمود
حمودة) وهو يفتح باب صيدليته في الصباح الباكر . في شارع
(٢٣ يوليو) ، أهم شوارع العريش . وبدأ أتيقًا بسيطًا ،

في معطفه الأبيض النظيف ، وهو يلقي التحية على المارين ،
أو يتلقاها منهم ، ولم يلبث أن استقر خلف ذلك الحاجز
الزجاجي في الصيدلية ، وبدأ عمله في قراءة التذاكر الطبية
وتسليم الأدوية ، من خلال نافذة صغيرة في الحاجر ، دون أن
تفترقه ابتسامته للبشوش لحظة واحدة ..

ثم دلف الرجل إلى الصيدلية ..

كان شابًا نحيلًا ، في حوالى الأربعين من عمره ، تبدو عليه
العصبية في وضوح ، وهو يمسك تذكرة طبية . ناولها للصيدلي ،
قليلًا في توتر :

هل يمكنني أن أجد هذا عندك ؟

ألقى الدكتور (محمود) نظرة مدققة على التذكرة ، التي
تحتوي تركيبة طبية بسيطة ، لعلاج آلام المفاصل ، ثم أشار إلى
مقعد في ركن الصيدلية ، قليلًا في هدوء :
انتظر قليلًا يا أستاذ (عبد الحميد) ، فالتركيبة يحتاج
إعدادها إلى بعض الوقت .

جلس (عبد الحميد عبد الله الخليلي) على ذلك المقعد في
الركن ، وراح يحرك قدميه في عصبية واضحة ، وكان يحتاج
إلى هذا الدواء في شدة ، في حين أجب الصيدلي طلبات زبون
أوزبونين في سرعة ، ثم أعاد قراءة التذكرة في اهتمام واضح
شديد ، وبأسلوب تدرب عليه طويلًا ، فالتقط الحرف الأول من

اسم العقار الأخير ، ثم الحرف الثاني من اسم العقار السابق له ، وهكذا ، حتى تكونت لديه فى النهاية كلمة (الهدف - ١٢٦ ب) ..

وفهم الصيدلى على الفور تلك الرسالة ، التى وصلتته من الرجال فى (القاهرة) ..

لقد تقرر تدمير ذلك الهدف ، الذى لم يكن سوى محطة توليد الكهرباء الكبيرة ..

وفى حسم ، سأل الصيدلى :

- ومتى تحتاج إلى هذا الدواء ؟

أجابه (عبد الحميد) فى سرعة حازمة :

- الليلة .

كان الموعد قريباً للغاية ، والمهمة صعبة إلى حد مخيف ، إلا أن الصيدلى لم يتردد لحظة واحدة ، وهو يجيب :

- ستحصل عليه فى الموعد المطلوب بأذن الله .

ولم يكذب (عبد الحميد) بفادر الصيدلية ، حتى أراح الصيدلى ستارة قريبة ، والنقطة من خلفها صندوقاً يحمل اسم شركة أدوية شهيرة ، ونقله فى عناية إلى ما خلف مكتبه ، ثم النقط منه علبتين كبيرتين من علب أدوية فرومقنزم ، وسمهما فى جيبه ، وأغلق باب الصيدلية ، ثم اتجه مباشرة إلى شارع المحطة ..

كان يعلم أن العلبتين لا تحويان أية عقاقير طبية ، كما يقول غلافهما ، وإنما يحملان خمسة مفجرات طرفية تحتاج إليها المهمة ، ضمن عدد آخر من المعدات ، المبعثرة فى طول المدينة وعرضها ، فلكى يتم تدمير المحطة ، يحتاج الرجال إلى عشرة كيلوجرامات من مادة (T.N.T) تم إخفاؤها فى قاع زورق مهجور على الشاطئ ، وعشرين متراً من الفتيل المتفجر ، يحتفظ بها (عبد الحميد الخليلي) فى بيته الكائن فى شارع الشهيد (محمد الخليلي) ، وهو شقيقه ، ويحتاجون أيضاً إلى قلم أو قلمين زمنيين ، لتحديد موعد التفجير ..

وفى شارع المحطة ، كان (محمود العزازي) فى ورشة السيارات التى يمتلكها ، بقامته الممشوقة وكثفيه العريضين ، وإلى جواره واحدة من سيارات الجيب الإسرائيلية ، التى تحتاج إلى إصلاح عاجل ، ولكنه لم يكذب بلمح الصيدلى ، حتى أوكل أمر إصلاحها إلى أحد الصبية فى الورشة ، ومسح جبهته بكم سترته الملطخة بالشحم ، واتجه مباشرة إلى الصيدلى وصافحه فى حرارة ، وسأله بصوت مسموع عن عقار جديد : لعلاج التهابات الأذن ، ثم انتحى به جانباً ، وهمس فى اهتمام :

هناك جديد .. أليس كذلك ؟

أجابه الصيدلى بسرعة :

- بلى .. لا بد من تدمير الهدف ١٢٦ ب الليلة .

أوماً (محمود العزازي) برأسه موافقاً ، دون أن يلقي أية

أسئلة أخرى ، وقال :

- سألتك بك عند الحاج (صباح) ، في الموعد المعتاد ..

والحاج (صباح الكشاف) هذا هو قائد المجموعة ، وعلى الرغم من أنه في ذلك الحين كان يتجاوز الستين من العمر ، إلا أنه يحتفظ بنشاط وحيوية شاب في العشرين ، وجرأة مقاتل لا يشق له غبار . وكان هادئاً بطيء المسير والحديث ، إلا أنه في أعماقه داهية مكر ، وعقري يتميز بين رفاقه في قدرته على دراسة وتخطيط أعقد الأمور ، ثم إنه كان همزة الوصل ، بين مقاتلي (العريش) ، ورجال المخابرات العامة المصرية ..

وفي منزل الحاج (صباح) ، اجتمع الفريق كله الصيدلي ، و (عبد الحميد) ، و (الغزالي) ، ومسئول الملاصكي (سعد محمود جلبانة) ، والمزارعان (محمد عبد الغنى السيد) و (عدنان شهاب البراوى) وفي حزم ، قال الحاج (صباح) :

منذ زمن وأنا أشعر بأن هذه المحطة سيتم تدميرها ذات يوم ، فهي شريان الحياة للصكربين الأمريكيين ، ولكن المهمة ليست سهلة أو هينة بالتأكيد ، بل هي مهمة شاقة للغاية ، وستتطلب منا جهداً خرافياً ، واحتمالات نجاةنا منها قد لا تتجاوز الخمسة في المائة ، فمن منكم يرغب في التراجع الآن ؟ ظلت الوجوه جامدة حازمة ، يطل منها العزم والإصرار الذى ترجمه (عدنان) بقوله :

نشرح لنا ما يتبقى قطه :

ليتسم الحاج (صباح) وأدرك أن الجميع مصرون على القيام بالمهمة ، فالتقط نفساً عميقاً ، وقال :

على بركة الله .

ثم بدأ يشرح خطته ..

كانت عملية شاقة بالفعل ، ولعل أخطر ما فيها هو عملية نقل المواد نفسها ، والتي لا بد أن تتم في وضوح النهار ، وعبر طرقات تنص بجنود الاحتلال ، إلى خارج المدينة ، حيث منطقة الجسر ، والتي تتم حراستها بعناية فائقة ، نظراً لأن فيها جسر المسك الحديدية . وكابيل الاتصالات للملاصكية ، ومحطة المحولات المنشودة ..

ولكن أحداً من الرجال لم يتقاعس أو يتراجع ..

فبعد صلاة الظهر مباشرة ، بدأت تحركات المجموعة في نشاط جم ، وصمت تام ، وسرية بالغة ، فأحضر (عبد الحميد) القليل المتفجر والقلمين الزمنيين من منزله ، واتجه (سعد جلبانة) إلى الزورق المهجور ، وأحضر المواد الناسفة من قاعه ، ثم تولى (محمد عبد الغنى) و (عدنان شهاب) وزميل لهما عملية نقل الشحنة كلها إلى (منطقة الجسر) و ..

وفجأة لمسك (عدنان) ذراعى زميله ، وهمس :

- مهلاً .. يبدو أن الأبقار كلها لم تعد إلى حظائرهم بعد .

التب زميله في تلك اللحظة إلى ثلاثة من الحراس
الإسرائيليين المدججين بالصلاح ، يقفون لحراسة المحطة ،
وعيونهم تدور في كل مكان ، فضغم (محمد عبد القوي) :
- هذا من سوء حظهم .

وفي خفة وحذر ، تسلل الرجال الثلاثة إلى المحطة ،
واتخذوا مواقعهم . التي حددها لهم الحاج (صباح) وتطلع
أحدهم إلى ساعته لحظات ، قبل أن يقول في حزم ، وهو يلوح
بيده في قوة :
- الآن .

وقبل أن يتلاشى صوته ، كان الثلاثة ينقضون على الحراس
الإسرائيليين ، الذين أخذتهم المفاجأة ، ففقدت أسلحتهم ،
وأخرست حلقهم ، وجمت أيديهم على أزنده أسلحتهم ، فلم
ترد إليهم عقولهم ، ويعاودهم جأشهم ، إلا وقد حردهم الرجال
الثلاثة من أسلحتهم ، وألقوهم أرضاً ، وجثموا فوق صدورهم ،
و ...

وانتهى أمر الحراس الثلاثة ، في أقل من دقيقة واحدة .
ثم بدأت عملية زرع المتفجرات .

وحتى بعد التخلص من الحراس الثلاثة ، لم يكن هذا بالمهمة
السهلة أو البسيطة . فالمحطة محاطة بسياج مرتفع من الأسلاك
الشائكة ، والأضواء تغمرها من كل جانب ، على نحو يجعل من

التصير أن يتحرك أي شخص في نطاقها ، دون أن يبدو واضحاً
منظوراً .

ولكن المدهش أن الرجال أنجزوا المهمة ، بعد أن انضم
إليهم رفاقهم ، ثم تراجع الجميع على نحو منظم ، إلى مسافة
عشرين متراً ، وهو طول فتيل التفجير . قبل أن يفسم (سعد) :
- حانت اللحظة .

قائلاً ، وغرس القلم الزمني ، وأشعل فتيل التفجير . ثم
تطلق الرجال يبتعدون بأقصى سرعة .

ومن بعيد ، وفي شرفة منزله في قلب (العريش) ، وقف
الحاج (صباح الكاشف) يراقب الأفق ، وهو يتمتم بآيات
قرآنية ، ويداعب حبات مسبحته في توتر .
ثم نوى الانفجار .

كان انفجاراً رهيباً ، ارتجت له (العريش) كلها ، وارتجفت
له أجساد الإسرائيليين ، في نفس اللحظة التي رقصت فيها
قلوب المصريين في المدينة .

ومع اندلاع النيران ، أطلق الحاج (صباح) كل التوتر
المحبوس في صدره ، على هيئة زفرة حارة . أفلت من بين
شفثيه الباسمتين ، وهو يتمتم :
- الحمد لله .

وفي منتصف الليل ، وعندما التقى الرجال في منزل الحاج

(صباح) ، والزهو الظافر يملأ عقولهم وقلوبهم ، ويزغرد صامتاً في عيونهم ، ابتسم الحاج ، وأشار إلى (عبد الحميد) و (سعد) ، قائلاً :

- أبلغا (القاهرة) أن الهدف لم يعد هناك .

وصمت لحظة : ثم أضف في حزم :

وقل لهما : إنها ليست عملياتنا الأخيرة باذن الله

وعندما وصلت الرسالة إلى (القاهرة) ، استقبلها الرجال

بلهفة وسعادة حقيقتين . وهتف أحدهم :

كنت أعلم أنهم سيفعلونها ،

أوما قاده برأسه ، وهو يقول في إعجاب واحترام :

هؤلاء الرجال أبطال بحق .

مال عليه أحد الرجال ، وماله :

- هل تظن أن الحاج (صباح) كان يعنى ما يقوله ، عندما

أشار إلى أنها ليست عملياتهم الأخيرة .

ابتسم القائد ابتسامة واسعة ، وهو يقول :

- نعم الرجل اكتسب خبرة جيدة ، وهو يدرك جيداً أن

تدمير محطة محولات كهربية ليس بالهدف الرئيسي حتماً ،

وإنما هو مجرد خطوة في طريق طويل ، تقترب نهايته في

سرعة .

ثم تطلع إلى خريطة (سيناء) المجسمة ، قبل أن يستنطرده

في حزم :

- وأنها حتماً ، لن تكون عملياتهم الأخيرة .

وكان القائد على حق تماماً ، في كل حرف نطق به ، فعملية

محطة المحولات لم تكن آخر عمليات مجموعة (العريش) ،

ففي السبع من أكتوبر ١٩٧٣ ، قاموا بوضع ستة من الصوبات

شديدة التفجير تحت ستة من الدعامات الخرسانية الضخمة

لكوبرى السكك الحديدية ، الممتد من (إسرائيل) إلى الجبهة ،

ونسفوا الكوبرى في تمام الثامنة والنصف ، ليقطعوا بهذا واحداً

من أخطر وأهم خطوط الإمداد والتموين الإسرائيلية ، في اليوم

الثاني للحرب .

وفي الساعة الثانية والثلاث ، من مساء الإثنين الثامن من

أكتوبر ، نسفوا كبل الاتصالات السلكية الرئيسى للإسرائيليين ،

في أربعة مواضع متباعدة ، حتى تصبح عملية إصلاحه شبه

مستحيلة .

وبوسعك أن تتخيل حالة جيش ، فوجئ في الأيام الثلاثة

الأولى من الحرب بضربات تقطع إمداداته ، وتشل اتصالاته

بقياداته ، وتكشف لأنه المرهقة ، التي كانت تنقل إليه أسرار

المصريين أولاً فلولاً .

وكل هذا بفضل أبطال العريش ، الذين ظلوا لسنوات

وسنوات يعملون في بسالة وإصرار ، تحت قيادة رجال تحتم

عليهم طبيعة عملهم أن يقاتلوا في دقة وفي صمت

★ ★ ★

الرجل الغامض

ارتفعت درجة حرارة الجو ، على نحو غير معتاد ، في قلب (سيناء) ، في تلك الفترة من منتصف يوليو عام ١٩٧٢م ، وغرق الجميع في موجة من العرق والتوتر والقلق مع تلك الإجراءات التصفية للعنيفة ، التي اتخذتها السلطات الإسرائيلية ، والتي امتدت إلى (العريش) ، بعد موجة من التخريبات المتتالية ، لعدد من المواقع والمنشآت العسكرية ، تمت خلال ثمان وأربعين ساعة فحسب ، مطيحة بمحطة إرسال لاسلكي ، وقضبان سكك حديدية ، ومخزن للذخيرة ، ومحطة تحلية كانت تمد أحد المعسكرات الرئيسية بالماء اللازم للشرب .

ومع غضب الإسرائيليين وثورتهم راحوا يقتحمون المنازل والبيوت ، ويمزقون المستقر والأثاث ، وحتى أغذية الأسرة ، ويعتقلون كل من تحمل نفوسهم نرة واحدة من الشك تجاهه ، أو سبق اعتقاله ، في لية أحداث مشابهة .

وبعد حملة الاعتقالات للواسعة ، بدأت مرحلة الاستجواب ، أو بمعنى أدق ، مرحلة التعذيب والتنكيل لامتزاع المعلومات من المعتقلين .

لية معلومات ..

وكان من المستحيل أن يلوذ الجميع بالقصمت أو يحتملون لمسايب الاستجواب الرهيبة ، في قاع المسجون الإسرائيلية ، مع



الضرب والجلد بالمسياط ، والنوم وسط الماء المثلج ، ونزع الأظفار ، والربط بأسلاك رفيعة ، يسرى فيها تيار كهربى قوى ، لا يكفى لقتل المستجوب ، ولكنه يبعث فى كل خلية من خلاياه موجة من الألم ، يكاد يطير لفرطها مخه من جمجمته .

لذا فقد انهار البعض .

واعترف .

وبكل التلهفة والتوتر ، بدأ الاسرائيليون يسجلون الاعترافات ، ويلتهمون المعلومات الجديدة ، التى تتساقط فى تناقل وصعوبة من أفواه المعتقلين ، الذين يوشكون على فقدان الوعي ، من فرط الألم والإرهاق .

وانتقلت إلى ملفاتهم أسماء جديدة .

كانوا واثقين من أن عمليات التخريب المنظمة هذه تتم بوساطة مجموعات فدائية محدودة لكل منها قائد مدرب ، لديه بالتأكيد خلفية عسكرية ، تتيح له دراسة الخصم وتحديد المواقع المختارة ، ووسيلة التعامل معها .

ومع الاعترافات الأولية ، ظهرت عدة أسماء واضحة .

فمع مجموعة (العريش) ، كان القائد يحمل اسم (الكبتن) ، وفى (الحسنة) هو (منصور) ، وفى (سالت كاترين) يحمل القائد اسم (زياد) ، أما فى (أبو رديس) فهو (فؤاد) .

والتقط الاسرائيليون هذه المعلومات الجديدة ، وهرعوا بها

إلى رؤسائهم فى ظفر ، وهم يتصورون أنهم أمسكوا طرف الخيط للإيقاع بقيادة مجموعات التخريب كلهم فى آن واحد ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة .

ففى اجتماع لقادة المخابرات الإسرائيلية ، المسئولين عن منطقة (سيناء) المحتلة ، تم طرح الأمر ، وراح الجميع يناقشون كل ما حصل عليه جنودهم ، لثلاث ساعات كاملة ، قبل أن يسود حجرة اجتماعاتهم صمت مطبق ، دام لدقيقة كاملة أو يزيد ، والجميع يتظنون بعضهم إلى البعض بنظرات لا تحمل نكث الظفر المنتظر ولا توحى بأى تفاؤل واضح ، ثم لم يلبث قائدهم أن قال فى شيء من العصبية :

- كل هذا ، على الرغم من أنافته ، لا يعنى شيئا أيها السادة .
إننا لم نحصل سوى على قائمة بأسماء من أطلقنا عليهم اسم القادة . أما فيما عدا هذا ، فلا توجد صور ، أو أوصاف ، أو أية دلائل أخرى يمكن أن تقود إلى شخص واحد منهم
ثم نهض من مقعده ، وقد تزايدت عصبته على نحو ملحوظ وهو يتابع :

- لا أحد منهم رأى قائد أية مجموعة . مجرد أوامر يتقونها على نحو شديد الدقة والتنظيم مع كل التعليمات المطلوبة ، وحتى مواد التفجير الأساسية ، يتم نقلها إليهم ، وتدريبهم عليها عن طريق رجل غامض ، يظهر ويختفى ، دون مواعيد محدودة أو اتصالات مسبقة . باختصار ، على الرغم من كل ما لدينا ، لن يمكننا الإيقاع بشخص إضافى واحد .

عادوا يتبادلون تلك النظرة العصبية المتوترة ، قبل أن يقول
أحدهم :

- ولكن هذا مستحيل ! لا يمكن أن يكون هناك شخص
غامض على طول الخط . هناك حتماً من رآه أو تبعه أو راقبه .
هناك حتماً خيط ما . خيط يمكن أن يقوينا إليه بأية وسيلة كانت .
عقد قائدهم حاجبيه ، وراح يدور حول مقادة الاجتماعات ،
قللاً :

- الأوراق التي أمامنا تؤكد أن أحداً لم يلتق به ، سوى قادة
المجموعات الفرعيين ، ودائماً ما يكون للقاء في قلب الليل ،
والرجل يأتي ملثماً ، ويلقى ما لديه على نحو موجز واق ، ثم
لا يلبث أن يرحل ، ويتلعه الليل بظلمته وغموضه .

ضرب أحدهم سطح المكتب يراحتة وهو يقول في حزم :
- مستحيل يا صدي ! إننا لا نتحدث عن شخصية أسطورية ،
في واحدة من الروايات التاريخية القديمة ، وإنما عن شخص
طبيعي ، والأشخاص الطبيعيون لا يمكن أن يظهروا ويختفوا
هكذا دون أن يتركوا خنفهم أدنى أثر ، أو لمسط دليل يمكن أن
يقود إليهم .

التفت إليه القائد ، يسأله في صرامة :

- ماذا تقترح إذن ؟

أجابته فرجل في حزم أكبر :

- أن نعيد استجواب جميع المعتقلين ، وبمنتهى القسوة .

تطلع إليه الجميع بضع لحظات في صمت ، وكلمة (منتهى
القسوة) ترن في عقولهم ، قبل أن يقول القائد في حسم :

- يبدو أنه ليس أمامنا سوى هذا الاجراء .

وفي حجرة اجتماعات قادة المخابرات الإسرائيلية لمنطقة
(سيناء) طار هذا الأمر الجديد إلى كل للسجون الإسرائيلية في
قلب (سيناء) .

وعادت موجة جديدة من الاستجوابات والتعذيب والتكيد
وقوحشية .

وبدأت موجة جديدة من الاعتقالات ، وتفتيش المنازل
والمساكن ، وحتى الخيام ، في واحدة من أشد الحملات التي
شهدها سكان وبدو (سيناء) ، منذ أن احتلها الإسرائيليون بعد
حرب يونيو ١٩٦٧ .

كل من تربطه حتى صلة صداقة بأى من المعتقلين القدامى ،
تم اعتقاله وضربه وجلده وتعذيبه بشتى الوسائل ، أملاً في
قتراع كلمة واحدة منه ، يمكن أن تقود إلى أى من قادة
المجموعات ، أو تساعد في الإيقاع بذلك الرجل الغامض ، الذي
يبدو وكأنه همزة الوصل بين القادة ومجموعاتهم .

ومرة أخرى قهار من قهار ، من فرط التعذيب الرهيب ،
وحصل الإسرائيليون على معلومة جديدة ، بعد كل ما فعلوه .

لقد أخبرهم أحد المعتقلين بعد أن فقد ثلاثة من أصابعه . أنه كان يجول ذات مرة حول المدينة ، فلمح ذلك الرجل الغامض وهو يحيط نفسه بثامه عندما كان البدر يتوسط السماء ، ويفمر الصحراء كلها بضوئه الفضي الرائع .

ولم تمض ساعات محدودة ، حتى كان ذلك المعتقل المسكين يجلس أمام رجال المحابرات الإسرائيلية ، وعيونهم كلهم ترمقه بنظرة قاسية مخيفة ، قبل أن يسأله قاتدهم في صرامة فظة :
- كيف يبدو ذلك الرجل ؟ صفه لنا جيدا .

كان المسكين يكاد يفقد الوعي ، مع كل ما عاناه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد راح يصف ذلك الوسيط الغامض بمنتهى الدقة فأكد أنه طويل القامة ، عريض المنكبين ، بيضاوي الوجه ، أسمر البشرة ، أسود الشعر ، مع صلع خفيف في مقدمة الرأس .

وبسرعة ، حضر رسام خاص برجال المخابرات ، وراح يحول كل ما يتحدث عنه الرجل ويصفه إلى خطوط ومنحنيات ، ورسوم تتغير كل لحظة وأخرى .

وأخيرا ، وبعد أن فقد الرجل وعيه بالفعل ، مرتين على الأقل خلال ثلاث ساعات كاملة ، حصل الإسرائيليون على رسم شديد الوضوح لذلك الرجل الغامض ، الذي وضعوا كل آمالهم في إلقاء القبض عليه . ليقودهم إلى القلعة الأصلية

لمجموعات التخريب ، والذين ينتمون حتماً إلى جهة عسكرية ، أو تم تدريبهم على الأقل بوساطة إحدى الجهات الأمنية المصرية .

أو جهاز المخابرات المصري على الأرجح وفي طول (سيناء) وعرضها ، تم توزيع ذلك الرسم لوجه الضابط الوسيط الغامض .

وشعر الإسرائيليون بالتفاؤل ، وأيقنوا أن خطتهم هذه ستؤتي ثمارها حتماً .

وبسرعة لم يتوقعها أكثرهم تفوقاً ، راحت المعلومات تتوافد من كل صوب .

واستقبل قادة مخابرات (سيناء) هذه المعلومات في لهفة شديدة ، أملا في أن تقودهم إلى هدفهم مباشرة .

ولكن النتيجة كانت مفاجئة للجميع وإلى أقصى حد فمن (سانت كاترين) ، جاءت معلومات تؤكد أن الرسم لتاجر غلال ، يظهر بين الحين والآخر في المنطقة ليبيع ماله فيه ، أو يحصل ثمن صفقة سابقة وأكد مندوبو (الحسنة) ، أنه رسم متسول شهير ، يستوطن المكن لعدة أيام ، ثم لا يلبث أن يختفي ، دون أن يعلم أحد متى يظهر أو لماذا يختفي !!

وفي (أبو رديس) تعرف الجميع ذلك الرسم باعتباره مهرباً قديماً يتعامل معه بعض سكان المنطقة في الخفاء

وهكذا توالى المعلومات ، لتؤكد أن الرسم لراعى غنم ، لو
بحار ، أو دليل صحرانى .. أو .. لو ..

وجن جنون الإسرائيليين هذه المرة .

وفى اجتماعهم ، قال أحدهم فى حلق :

- أى شخص هذا ؟ إننى أشعر وكأننا نطارده جرياء بشرية ،
يمكنها أن تتخفى أو تتلون بأية صورة تناسب البيئة المحيطة ،
حتى تعجز عينك عن رؤيتها . لو لم تقترب منها ، حتى يكاد
أنفك يلامسها .

بدأ قائدهم شديد العصبية هذه المرة ، وهو يقول :

- شىء ما خطأ . إما أن ذلك البدوى لم يرشدنا إلى الرسم
الصحيح لذلك الرجل الغامض . أو أن الجميع قد أصابهم العمى ،
فلم يعد باستطاعتهم تمييز رسم مباشر بسيط .

اتبرى أحد الرجال يقول فى اهتمام :

- المشكلة أن شاهدنا الوحيد لم ير ذلك للرجل إلا فى قلب
الليل . صحيح أن القمر كان يضىء للمكان كله ، ولكن المسافة
كانت بعيدة . والرجل كان فى أسوأ حالاته . وهو يصف لنا
ملاح الرجل . وهذا يعنى أن احتمالات الخطأ كلها ولردة .

كان رأيه هذا منطقياً للغاية . حتى إنهم لاثنوا بالصمت طويلاً ،
وراحوا يتبادلون نظرات متوترة قلقة ، قبل أن يقول قائدهم
بلهجة فقدت الكثير من حزمها وحسمها .

- يبدو أنه لا مفر يا رجال .

والتقط نفساً عميقاً ، فى محاولة للتغلب على ذلك البركان
فى أعصابه ، قبل أن يضيف :

- منعيد الاستجواب مرة أخرى .

كانت خطتهم هذه المرة تعتمد على عكس ما فعلوه فى
المرتين السابقتين تماماً ، فقد قرروا إعادة استجواب شاهدهم
الأول مع كل من يمكن استجوابه من الآخرين ، بعد أن يستردوا
عافيتهم ، وينعموا بتفكير صاف دقيق ، عسى أن يمنحهم هذا
معلومات صحيحة فى تلك المرة .

وشعر المعتقلون بالدهشة ، مع تلك المعاملة الحسنة ،
والعلاج الطبى الجيد ، والزنازين النظيفة ، والطعام الجيد ،
حتى إن بعضهم تصور أن ما يحدث مجرد مقدمة لإعدامهم ،
ولأن هذه هى وجبتهم الأخيرة .

ولكنهم سرعان ما فهموا الأمر واستوعبوه بسرعة ، عندما
بدأت مرحلة الاستجواب الأنيقة .

وعلى الرغم من هذا ، وبعد أربعين ساعة من المهادنة
والاستجوابات الدقيقة ، لم يحصل الإسرائيليون على أكثر مما
حصلوا عليه فى المرة السابقة .

نفس الملاح ، لنفس الوسيط الغامض .

ودون أى تغيير .

ووسط حالة الإحباط العنيفة ، التى أصابت الإسرائيليين فى

تلك الأيام . وبينما يعيدون النظر في كل ما حدث . وكل ما جمعه من معلومات . هوت على وجوههم صفة جديدة . محطة الإرسال اللاسلكية الجديدة . بالقرب من (العريش) تم نسف قواعدها . وبرجها الرئيسى ، بوساطة مجموعة تخريبية جديدة .

ومرة أخرى . هن جنون الاسرائيليين ، وتصيب حجم غضبهم كألف ألف بركان .

وراحوا يعقلون ، ويستجوبون ، ويعذبون . ولم تختلف النتائج كثيراً .

كل المعتقلين صمتوا . وانكروا . وتحملوا . حتى اتهم أحدهم وألقى ما لديه .. و ..

وحصل الإسرائيليون على الأوصاف ذاتها والمعلومات نفسها .

وأغلقت الدائرة من جديد . ولم تحو سوى نفس الصورة صورة الوسيط الغامض . همزة الوصل بين مجموعات التخريب وقادتها المربين .

ولكن الصورة أضيف إليها شيء واحد . فى هذه المرة . شارب كث يملأ ما تحت أنف الرجل . ويتدلى عند طرفى شفثيه حتى يتجاوز الشفتين الى ما قرب ذقنه .

ويات من الواضح أن الحرياء قد بدأت تتلون مرة أخرى . لتتخفى وسط البيئة . وتعجز الأعين غير الفاحصة عن تمييزها .

ولم يعد هناك من هم بالنسبة لقادة المخابرات الإسرائيلية ، فى قلب (سيناء) طوال أكثر من عام كامل ، سوى العثور على الوسيط الغامض ، الذى سيقودهم حتماً إلى قادة مجموعات التخريب ، التى مازالت تواصل عملياتها الفدائية الناجحة القوية ، فى طول (سيناء) وعرضها .

وسقطت أبراج اتصالات ، وخزانات مياه ، وبالونات مراقبة ، وانفجرت مخازن ذخيرة ، وأشرطة سكك حديدية . واشتعلت النيران فى أطنان من الوقود ، ومئات الخيام والأغطية والمواد التموينية المتجهة إلى المعسكرات الإسرائيلية

ثم فجأة وفى منتصف عام ١٩٧٣م توقفت فجأة كل عمليات التفجير والتخريب ، وساد فى (سيناء) هدوء عجيب أدهش رجال المخابرات الإسرائيلية فى البداية ، ثم لم يلبث أن أثار قلقهم وحذرهم لبعض الوقت ، قبل أن يوحى إليهم الأمر بأن العمليات قد توقفت من غير رجعة بعد أن انتشر فى (سيناء) كلها خبر يؤكد أن الوسيط الغامض قد اختفى فجأة ولم يعد له لئنى أثر ، منذ فترة طويلة .

وتنفس الإسرائيليون الصعداء ، عندما مر شهران كاملان ، دون أن تقع عملية واحدة ، وساورهم شعور بأن كل شيء صار على ما يرام ، وأن الأزمة قد انفرجت ، وانكشفت بعد أن بلغت ذروتها .

وفجأة وفي الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٣ م ، عادت عمليات التخريب والتفجير بغتة وبكثافة ليس لها مثيل ، فتم نسف محطة الاتصالات الأولى وخطوط الإمداد والتموين وعدد من خزائن المياه ، وكل النقاطات الرئيسية لخطوط السكك الحديدية العسكرية .

وقبل أن يدرك الإسرائيليون ما يعنيه هذا كانت الطائرات المصرية تلك حصونهم وثكناتهم ومطاراتهم ، بعد أن عبرت كلها قناة السويس ، من الغرب إلى الشرق في لحظة واحدة بالضبط ، وكان الجنود المصريون البواسل يعبرون القنطرة ويقتحمون خط (بارليف المنيع) ويسحقونه على رءوس قوات الجيش الإسرائيلي الذي أشاع في كل وقت ومكان وصدق أنه جيش أسطوري لا يقهر .

واضطرب رجال المخابرات الإسرائيلية ، مع تلك الضربات العنيفة ، في الداخل والخارج ، واتسمت تحركاتهم بالتخبط والارتباك ، الذي أصاب القيادة الإسرائيلية ، مع تلك الضربة العسكرية المصرية الرائعة ، التي أصابت جيشهم وثقتهم وكرامتهم في مقتل ، وحاولوا حصر خسائرهم وأسراهم ، خاصة بعد أن اتهم خطهم الدفاعي الأسطوري (خط بارليف) ، الذي أعلنوا للعالم أجمع من قبل ، أنه قادر على الصمود حتى أمام القنابل الذرية نفسها .

وفي الوقت الذي اتهمك فيه الإسرائيليون في حصر الخسائر والبكاء أمام القيادة الأمريكية في محاولة لتعويض ما فقدوه من عتاد وسلاح ، كان بدوى أسمر ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، بيضاوى الوجه ، لسود الشعر ، مع صلح خفيف في مقدمة الرأس ، يلتقي بأحد قادة كتائب الصاعقة في قلب (سيناء) ويتبادل معه عبارة متفقا عليها لم يكده قائد الصاعقة يسمعها ، حتى صافحه في حرارة ، وهناه على سلامته ، ثم قلده بنفسه إلى سيارة من طراز (جيب) انطلقت به على الفور إلى أحد المعابر ، لتعود به إلى الجانب الغربى من القناة ، حيث انتظرت سيارة أخرى حملته على الفور إلى (القاهرة) .

وبالتحديد في مبنى المخابرات العامة المصرية ، في حدائق القبة .

وهناك تم استقبال الرجل لاستقبال الأبطال والتقى به مدير الجهاز على الفور واجتمع به لثلاث ساعات كاملة استمع خلالها إلى كل ما لديه ، قبل أن ترتطم على وجهه ابتسامة واسعة ، ويصافحه قللاً :

- حمداً لله على سلامتك يا (ك) . هيا يا بطل . غد إلى منزلك ، واستمتع بنوم عسق ، ومننتظرك غداً ، لتقدم لنا آخر تقاريرك .

وعندما غادر ضابط المخابرات (ك) المبنى في ذلك اليوم .



وعلى الرغم من كل ما يشعر به من تعب وإرهاق كانت تملأ وجهه ابتسامة كبيرة ، وهو يسترجع كل ما فعله الإسرائيليون ، عندما يعلمون أن من كانوا يبحثون عنهم .. (الكابتن) ، (منصور) ، و (زياد) ، و (فواد) وحتى الوسيط الغامض . لم يكونوا في الواقع سوى رجل واحد . (ك) .

الرجل الذي قاد بنفسه تلك العمليات الفدائية ، في قلب (سيناء) المحتلة . بتعليمات وتوجيه من أفضل أجهزة المخابرات في المنطقة .

رجل المخابرات العامة المصرية ..
الغامض !!

★ ★ ★

أصغر جاسوس في العالم ..

أدرك أهالي قرية (ميت أبو الكوم) مسقط رأس الرئيس (أنور السادات) ، عندما استيقظوا من نومهم ، في ذلك اليوم في منتصف شهر سبتمبر ، عام ١٩٧٣م أن ضيفاً مهماً سيحل على قريتهم ، التي اعتادت استقبال العديد من كبار السياسة ورجال المجتمع ، في تلك الفترة من حكم الرئيس (السادات) فقد وصل الرئيس بنفسه في الصباح الباكر ، مع عدد من معاونيه وحراسه ، وبدأ إعداد منزله لاستقبال ضيفه أو ضيوفه . وبدأ الرئيس شديد الاهتمام بكل التفاصيل كالمعتاد ، وغليونه الشهير لا يفلق أسنانه ، وهو يلقي تعليماته هنا وهناك . ويشرف بنفسه على مراجعة مراسم الاستقبال والترحيب بالضيف للقدام .

وتسأل الفضول كالمعتاد إلى نفوس أهالي القرية وراح بعضهم يستنتج أو يخمن شخصية للضيف للقدام ، ولكن أحداً لم يمكنه للجزم بهويته ، مما أشعل فضولهم أكثر وأكثر ، فوقفوا يراقبون الطريق ، ويلتفون حول منزل الرئيس ، في محاولة لإشباع الفضول ، ورؤية ذلك الضيف المهم

ومع منتصف النهار ، وصل الضيف داخل سيارة سوداء ، تحمل أرقام رئاسة الجمهورية ، ولم تكد للسيارة تتوقف ، أمام

منزل الرئيس ، حتى هبط منها بدوي أسمر ، بصحبة زوجته وابنه الذي لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ، وتقدم منهم الرئيس للسادات بابتسامة واسعة وهو يقول في حماس وترحاب :

- مرحباً بكم في (ميت أبو الكوم) .. مرحباً يا بطل ..

يسعني أن أستقبلك بنفسى ، بعد الخدمات الجليلة ، التي قدمت لنا .

اتجهت الأنظار كلها إلى البدوي وزوجته ، ولكن العيون لم تثبت أن اتسعت في دهشة ، عندما تجلوزهما الرئيس ، وهو يمد يده لمصافحة البطل ، الذي لم يكن سوى ابنهما (صالح) . أصغر جاسوس في العالم .

* * *

كانت الهزيمة مريرة ، في يونيو ١٩٦٧م وأكثر ما فيها مرارة هو أن للمخابرات الإسرائيلية أصبحت هي المهيمنة على الموقف ، ولديها كل التفاصيل العسكرية ، والمعلومات الكاملة عن الجيش المصري وتسليحه وتوزيع وحداته ، وخاصة بعد أن صارت على بعد أمتار قليلة من صفوفه الأولى عبر قناة السويس .

وهنا كان من الضروري أن يتم تطوير نظم وأداء المخابرات المصرية ، ومحاولة زرع تواجدها جديدة لها ، في قلب (سيناء) ، خلف خطوط العدو ، كنواة لاستعادة المكاتب المفقودة ، وتقوية درع الأمة الخفية .

وفى هذا الإطار ، ظهر تاجر مخدرات جديد ، فى قلب
(سيناء) .

وكان هذا التاجر بدويًا ، يحفظ الدروب والمسلاتك
الصحراوية فى (سيناء) ، وينفق على عمله بسخاء ، ويقيم
علاقات قوية مع البدو ، وبعض العاملين فى المنطقة .

ومن خلال عمله وتجارته ، التقى ذلك البدوى (محمد على
كيلاتى) بأسرة صغيرة ، تتكون من الشيخ (حمدان) ، وزوجته
(مبروكة علم الدين) ، وابنه (صالح) ، الذى يعمل كراعى
للغنم ، ويربى بعض الدجاج ، حول الكوخ الصغير ، الذى يقيم فيه
مع والديه .

وعلى الرغم من هيئة الصبى الضعيف البنية ، الكثيف
الشعر ، وعينيه اللتين توحيان بالغباء والبلادة ، أدرك (محمد
كيلاتى) أنه أمام غلام عبقري ، يتمتع بذكاء فطرى كبير ،
وقدرة مدهشة على الملاحظة والمراقبة ، وذاكرة فوتوجرافية
عجيبة .

وذاث يوم ، وبعد فترة من التعارف والمراقبة ، عرض
(كيلاتى) على الشيخ (حمدان) استضافته فى منزله لبضعة
أيام ؛ لأنه ينتظر قدوم شحنة كبيرة ، ستدر ربحًا خرافيًا ، وقدم
له فى مقابل هذا مبلغًا ضخماً من المال ، سأل له ألعاب الرجل ،
فوافق على الفور ، ودون تردد .

وطوال الأيام التالية ، كان (كيلاتى) يلتقى بالصبى (صالح) ،
ويتحدث معه ، ويناقشه فى بعض الأمور العامة ، إلى أن
واجهه ذات يوم قتلًا :

- هل تعرف من أنا بالضبط يا (صالح) ؟

رمقه الصبى بعينه البليدين قليلًا ، ثم أجاب فى هدوء :

- أنت تقول : إنك بدوى تنتظر شحنة مخدرات ، ولكننى
أعتقد أنك تخفى شيئًا آخر .

ابتسم (كيلاتى) ، وهو يقول :

- هذا صحيح تمامًا يا (صالح) .

ثم مال نحوه ، وتطلع إلى عينيه مباشرة ، قبل أن يستطرد
فى حزم :

- أنا ضابط مخابرات مصرى .

ولم يهتز للصبى جفن ، وهو يستمع إلى هذا الاعتراف
البلع للخطورة ، وكأنه كان يتوقع كل حرف سمعه . بل أجاب
فى هدوء مدهش :

- وما الذى تريده منى بالضبط ؟

وهكذا مباشرة ، بدأ ضابط المخابرات (محمد على كيلاتى) ،
فى تلقين (صالح) أساليب وفنون التجسس وتدريبه على كل
ما يمكن أن يحتاج إليه فى عمله .
لم يستغرق هذا وقتًا طويلًا .

لقد استوعب الصبي كل هذا في وقت قصير للغاية ، مما أكد صحة نظرة (كيلاني) له ، وبراعته في اختياره بالذات لهذه المهمة .

ولكن بقيت نقطة شديدة الأهمية والخطورة .. كيف يمكن أن يجول (صالح) بين الإسرائيليين ، ووسط مواقعهم ، دون أن يثير الشكوك ، أو تحوم حوله الشبهات .

ووجد (كيلاني) الحل .

لقد تم تزويد (صالح) بعدد من الدجاج البيض ، وأصبح يتبادل البيض مع الجنود الإسرائيليين ، فحصل على علبه من اللحم المحفوظ أو المربى ، مقابل كل ثلاث بيضات .

وسرعان ما شغف الإسرائيليون بهذا البيض الطازج ، وراقت لهم شخصية (صالح) للمهنية والمرحة ، وأصبحوا ينتظرون قدومه ، وينادونه فور ظهوره في الأفق ، وهم يسألونه عن البيض الذي يحمله ، والذي لم يزد يوماً على ست بيضات ، وهي الحد الأقصى الذي حذره الصبي لنفسه ، مقابل دخول موقع من المواقع الإسرائيلية ، حتى لا يفقد رصيده بسرعة .

وبفضل كرمه ومرجه وبساطته ، لم يعد (صالح) يحتاج إلى البيض الطازج ، ليدخل المواقع الإسرائيلية ، ويجول فيها كيفما وأينما يحلو له .

لقد ارتبط بعدد من الصداقات مع الجنود الإسرائيليين ، وصار يقضى معهم الكثير من وقته ، وهم لا يشكون مطلقاً في أمره ، باعتباره مجرد صبي بليد وبسيط ، في حين كانت عيناه وأثناءه تعمل طوال الوقت ، في مهارة مذهشة ، وحكمة يحسده عليها الكبار ، ويبلغ مآلديه ، أولاً فأولاً للمخابرات المصرية عن طريق وسطاء مختلفين .

واستقبل رجال المخابرات المصرية هذا السيل من المعلومات في إعجاب وانبهار ، فعلى الرغم من أنه كان أمياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، إلا أنه نقل للمخابرات معلومات بالغة الأهمية والخطورة ، عن الثغرات في حقول الألغام ، حول عدد من مواقع المدفعية الثقيلة ، وحدد موضع المولدات الكهربائية ، وخزانات الناهالم وغرف الضباط ، وعدد حراس كل موقع ، في الليل والنهار ونطاق الأسلاك الشائكة ..

وكل هذا لا يقارن ، أمام خدمات من نوع آخر ، كان يجيد تقديمها ، ويتفوق فيها على نحو مذهش مثير للإعجاب .

إنها خدماته المباشرة ، للفدائيين الذين يتسللون خلف خطوط العدو ، ويقضون في مخابنتهم ما يقرب من ستة أشهر في بعض الأحيان .

كان يزودهم بالطعام والشراب ، ويزيل كل ما يتركونه خلفهم ، حتى يستحيل اكتشاف أثرهم ، ويقودهم عبر دروب ومسالك خاصة ، تترك الإسرائيليين ، وتثير حيرتهم وغضبهم .

وعندما عاد فريق من هؤلاء القذاتيين مرة إلى (القاهرة) ، واستقبلهم الرئيس (جمال عبد الناصر) بنفسه كعادته ، وهو يسألهم عما فعلوه في أرض العدو ، أجابه قائدهم في إعجاب :
- الواقع أن المهمة لم تكن سهلة لو يسيرة يا سيدي الرئيس ، ولكننا تلقينا مساعدة رائعة ، من أفضل رجالنا في (سيناء) .

ابتسم الرئيس (جمال) ، وهو يقول :

- هل تقصد الصبي (صالح) ؟

أجابه الجميع في آن واحد :

- نعم .. نقصد ذلك الصبي الرائع .

وقال قائدهم في حماس :

- هذا الصبي من أشجع وأفضل من رأيت في حياتي ، وأكثرهم حنكة وجرأة وذكاء ، على الرغم من سنوات عمره الصغيرة ، والخدمات التي يقدمها لا تقدر بثمن ، وهو لم يطلب مقابلًا لها قط .. فيما عدا ..

صمت الضابط لحظات ، فسأله الرئيس (جمال) في اهتمام :

- فيما عدا ماذا ؟

ابتسم الضابط ، وهو يقول :

- فيما عدا رغبته في رؤيتك في (القاهرة) يا سيادة

الرئيس .

ران على الجميع صمت تام ، وهم يتطلعون إلى الرئيس (جمال عبد الناصر) هي انتظار جوابه ، وشاركهم الرئيس هذا الصمت لحظات ، وهو يفكر في عبي ، ثم قال في هدوء :

- سنذهب نحن إليه إن شاء الله .. عندما تتحرر (سيناء) .

ونقل الضابط (كيلاني) هذا القول للصبي ، الذي ابتهج كثيرًا لقول الرئيس الذي يشير إلى أن العمل يسير على قدم وساق ؛ لاستعادة (سيناء) ، واشتعل حماسه أكثر وأكثر ، مع التدريبات المستمرة ، التي يتلقاها من الضابط (كيلاني) ، والتي أهلته لتمييز كل أنواع الأسلحة والذخائر ، وتحديد أنواعها وأعدادها بمنتهى الدقة .

وارتبط (صالح) بصداقة وثيقة مع ضابط إسرائيلي من أصل يمني ، يدعى (جعفر درويش) ، كان قائدًا للنقطة ١٥٨ ، المعروفة باسم (موقع الجباسات) ، وكان (جعفر) سخيًا معه ، يميل إلى التحدث إليه باللغة العربية ، التي يفتقدها منذ هجرته إلى (إسرائيل) ، في حين كان (صالح) شديد التودد معه ؛ لينقل كل ما يمكنه من معلومات ، حمول (موقع الجباسات) والمواقع المحيطة به ، والمطلّة عليه .

ولم تكن رحلة (صالح) مفروشة بالورود دائمًا ، فكثيرًا ما تعرض لخشونة ومضايقات بعض الجنود الإسرائيليين ، وكثيرًا ما وصلت هذه المضايقات إلى حد الشتائم والضرب والصفعات .

ولكن الصبى كان يحتمل برجولة مدهشة ، وينقل ضيقه وحزنه إلى الضابط (كيلاتى) الذى يواصل تشجيعه ، وييث فيه روح البطولة والتحدى ، مؤكداً له أنه بطل عظيم ، وأنه سيلقى التكريم حتماً فى (مصر) . التى فعل كل ما فعل من أجلها . ومات الرئيس (جمال عبد الناصر) .

وتفجر حزن الدنيا كلها فى قلب الصبى ، واغرورقت عيناه بالدموع ، فى واحدة من المرات القلائل ، التى شاهده فيها (كيلاتى) يبكى ، أو لعلها المرة الوحيدة ، قربت على كتفه فى تعاطف ، جعل الصبى يتمتم فى مرارة :
- كنت أحلم برؤيته .

أجابه (كيلاتى) فى خفوت ، تلوح فيه نبرة حزن :
- وهو (رحمه الله) لم ينس خدمتك وشجاعتك قط ، ونقد أوصائنا بك ، وأوصى بأن تحصل على كل الرعاية والتقدير فى (مصر) .

كان لهذه الكلمات أفضل الأثر فى تخفيف حزن الصبى وآلامه ، فعاد إلى عمله بنفس القوة والحزم والحماس ، وكأنما ثبت لروح الرئيس الراحل أنه أهل لهذا التقدير . واقتربت ساعة الحسم .

وفى بداية سبتمبر ، عام ١٩٧٣م وقبل شهر واحد من حرب أكتوبر المجيدة ، أسندت المخابرات العامة المصرية إلى (صالح) أهم وأخطر عملية فى حياته كلها .

لقد زوده الضابط (كيلاتى) بقطع معدنية صغيرة ، تشبه فى شكلها شرائح المغناطيس العادية ، وطلب منه وضعها فى حجرات قادة للمواقع التى يتردد عليها ، وأن يلصق وجهها للممقط فى الأجزاء الحديدية الخفية ، أسفل الأسرة والموائد ، وأعلى الدواليب المعدنية .

ودربه (كيلاتى) جيداً على هذه المهمة ، قبل أن يسأله :

- أنت واثق فى قدرتك على أداء هذا يا (صالح) ؟

لوماً الصبى برأسه إيجاباً ، وقال :

- بالتأكيد يا سيد (كيلاتى) .. اطمئن .

قلتها فى هدوء وثقة ، وكأنه لا يقدم على عملية بالغة للخطورة ، يكفى كشف أمره فيها لإعدامه فوراً وبلا رحمة .

ولكن (صالح) نفذ المهمة .

نفذها بنجاح منقطع النظير ، وبافتدار يستحق الإعجاب ، وقدم للمخابرات المصرية أكبر وأعظم خدمة ، منذ بدأ عمله معها .

فهذه الشرائح الصغيرة ، لم تكن سوى أجهزة إرسال بالغة الدقة ، استطاعت المخابرات المصرية بوساطتها الاستماع إلى كل ما يدور فى حجرات القيادة ، من أحاديث وأوامر ، قبل وفى أثناء القتال فى الحرب السادس من أكتوبر ، وعرفوا كل تعليمات للقتال فى أثناء الحرب ، فور إصدارها ، كما أمكنهم بوساطة

هذه الأجهزة ، تحديد المواقع وقصفها ، أو توجيه إشارات التسليم لها .

ولكن (صالح) لم يحضر اندلاع حرب أكتوبر .

فقبل قيام الحرب بعشرين يوماً ، أصدرت المخابرات المصرية أوامرها ، بنقل (صالح) ووالديه إلى (القاهرة) ؛ لتجنبيهم ويلات الحرب ، وانتقام الإسرائيليين ، عند كشف أمر أجهزة الإرسال .

ولم يكن هذا بالعمل السهل .

ولكن المخابرات المصرية نجحت في إنجازه . ولم يكد (صالح) يعبر القناة ليلاً مع والديه حتى صدرت الأوامر بنقلهم مباشرة إلى (ميت أبو الكوم) ، حيث يتم استقبال (صالح) رسمياً ، بوساطة أشهر وأهم رجل في (مصر) كلها .

الرئيس (محمد أنور السادات) .

شعر الشيخ (حمدان) وزوجته (مبروكة) بالانبهار ، وهما يقفان أمام الرئيس (السادات) مباشرة ، وارتجف قلباهما في شدة ، وعندما صافحهما الرئيس ، وهو يشير إلى ابنهما ، قائلاً :

- ابنكما بطل بحق .. لقد قدم لنا خدمات جليلة .

انهمرت دموع الأم غير مصدقة ، وهي تتطلع إلى ابنها في فخر وحنان ، في حين ارتجفت الكلمات على شفתי الشيخ (حمدان) ، وهو يقول :

- لقد أدهشنا هذا للغاية يا سيدى الرئيس . فنحن لم نتصور هذا قط . (صالح) لم يشير حتى إلى ما فعل ابنته الرئيس (السادات) في إعجاب ، وهو يقول :

- هذا جزء من رجولته .. لقد حفظ السر .

ثم داعب رأس (صالح) ، مستطرداً بابتهامة كبيرة :

- هل تعلم أننى سعيد للغاية برويتك ؟ إنك تبدو كثير الشبه بصورتى فى أيام طفولتى .

ولم يكن (صالح) يصدق نفسه .

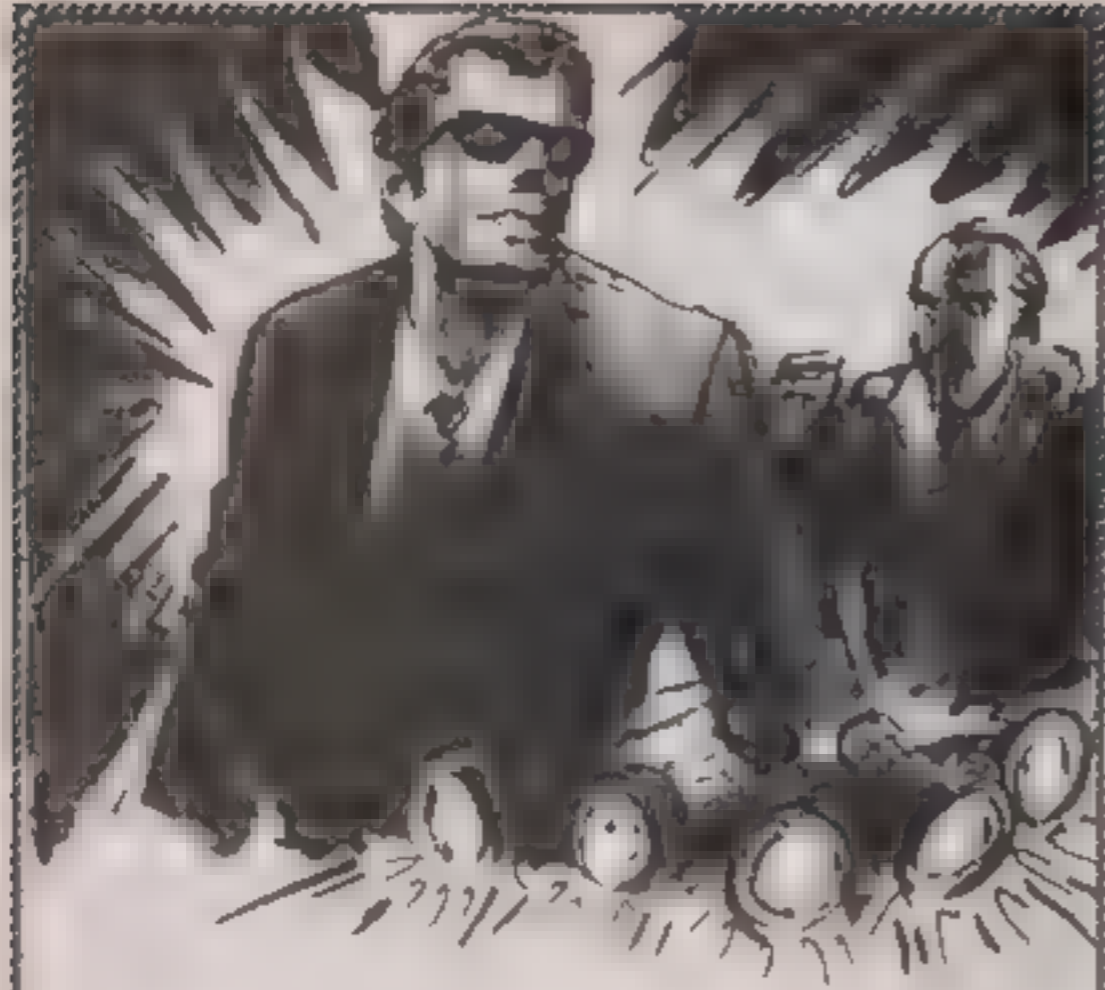
إنه يقف أمام رئيس الجمهورية شخصياً ، ويتلقى منه التهنئة والتكريم .

وتناول الصبى ووالداه الطعام فى ذلك اليوم ، على مائدة الرئيس (أنور السادات) ، الذى استضافهم حتى غروب الشمس ، ثم أمر برعايتهم والعناية بهم ، وتكريمهم بما يليق بما قدمه (صالح) لوطنه .

وتم إسناد مهمة رعاية البطل لأقرب الناس إليه ، فى جهاز المخابرات المصرى .

للراقد (محمد كياتى) .

ومع قيام حرب أكتوبر ، أدرك (صالح) أهمية ما قدمه لوطنه ، وعرف أن صديقه الضابط الإسرائيلى (جعفر درويش) قد وقع فى الأسر . فطلب مقبلة ، وإرسال بعض الطعام إليه ، مقابل كرمه ومخفقه معه فيما مضى .



وتبدد الظلام ..

ونال البطل ما طلب .

ولكنها لم تكن نهاية المطاف .

لقد تعهّدت المخابرات المصرية (صالح حمدان مسلم) برعايتها وعنيّتها ، فالتحق بالمراحل التنظيمية المختلفة ، من الثانوية العامة إلى الكلية الفنية العسكرية .

ومرت الأيام والسنوات .

ثم كانت المفارقة المدهشة .

لقد التحق (صالح) بالمخابرات المصرية ، وتولى نفس المنصب ، الذي كان يتولاه صديقه وأستاذه الرائد (محمد كيلاني) من قبل .

بل وجلس في نفس الحجرة ، وخلف نفس المكتب ، مع فريق واحد .

لقد كان يحمل شهادة خبرة لا مثيل لها .

شهادة تقول : إنه كان يوماً جاسوساً خطيراً .

بل أصغر جاسوس في العالم .

وتبدد الظلام ..

ازدحمت شوارع (القاهرة) ، واكتظت بالمارة والسيارات كالمعتاد ، فى ساعات النهار الأولى ، وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من الناس كانت تتجه إلى أعمالها ، إلا أن الوجوه حملت شيئاً من الإجهاد ، والأعصاب بدت أشبه بالأوتار المشدودة ، وتزايدت الاحتكاكات ، وزدادت حدة وعنفاً ، بسبب الارتفاع المفاجئ فى درجات الحرارة ، فى تلك الفترة من أوائل مايو ١٩٧٣ م ، والذي فاق المعدلات الطبيعية لبدايات الصيف التقليدية ، وخاصةً وهى تشترك مع حالة الإحباط العامة ، التى ملأت نفوس الشعب ، بعد طول انتظاره للمعركة المرتقبة ، التى تحدث عنها المسمولون طويلاً ، فى السنوات السابقة ووعدوا بأنها ستكون السبيل لتحرير (سيناء) المحتلة ، واسترداد الكرامة الجريحة ، ثم لم يلبثوا أن لاثوا بالصمت ، وتجاهلوا الإشارة إلى تلك الحرب ، منذ بدايات العام الحالى ، وكأنما أدركوا صعوبة الانتصار على الإسرائيليين ، أو استحالة هذا ، كما تؤكد الدعايات الصهيونية ، وقرروا نسيان الأمر برمته ، ودفع الشعب كله إلى تناسيه ، والانشغال بحل مشكلاته الداخلية .. هذا لأن أحداً من أفراد الشعب للعاديين ، لم يكن يدرك شيئاً مما يدور خلف الكواليس ، أو يعلم بأمر خطة الخداع والتعمويه . التى تشترك فيها كل أجهزة الدولة ، منذ عدة أشهر . لإقناع

العدو بوصولنا إلى حالة اليأس ، وإعفاء عيونه عما يدور من استعدادات تمهيداً لحرب التحرير ، التى تقترب وتقترب ، فى سرية تامة وتكتم شديد ..

وهناك ، فى ذلك للمبنى الصامت دائماً الفامض أبداً ، فى حديق القبة ، كان هناك فريق من أفضل رجال المخابرات للعبة المصرية ، لم يذق أحدهم طعم النوم بعد ، وهم يجتمعون منذ مساء اليوم السابق ، لدراسة خطة الخداع ، ومراجعة كل ماتم تنفيذه منها ، والإعداد لخطواتها التالية ، التى لن تنتهى - بطبيعة الحال - إلا باتدلاع الحرب نفسها ..

وفى إرهاق تام ، فرك أحد الرجال عينيه ، وهو يقول :
- أعتقد أننا ناقشنا كل ما يمكن مناقشته ، وراجعنا كل التقارير والنتائج ، ويمكننا تأجيل الباقي إلى المساء ، فأنا أحتاج إلى النوم بشدة ، وأظنكم تشاركوننى الشعور نفسه .
تتابع آخر ، قائلاً :

- بالتأكيد .. إننا نشعر بالتعب حتى إنه لم يعد باستطاعتنا التمييز بين ضوء الحجرة والضوء الطبيعى .. إننى لم أنتبه سوى الآن فقط ، إلى أن الشمس قد أشرقت منذ زمن .
لشترك الجميع فى ضحكة مرحة ، وهم ينهضون لالتقاط ستراتهم ، استعداداً للعودة إلى منازلهم ، و ..
وفجأة ، هتف أحدهم فى حماس :

- اه - مشكلة الضوء . كيف لم ننتبه إلى هذا ؟

التفتوا إليه جميعاً في دهشة ، وسأله زميله في اهتمام :

- أية مشكلة ؟!

نفض رجل المخابرات كل الإرهاق عن رأسه ، وهو يجيب

في حماس عجيب :

- عندما تندلع الحرب ، ستصاحبها في المعتاد فترة إظلام

إجبارية

قال زميل آخر ، في شيء من الحذر :

- هذا أمر طبيعي

ولعل رجل المخابرات بنفس الحماس :

- ومن الطبيعي أيضاً أن يرتفع استهلاك المصابيح اليدوية ،

ويتزايد الاحتياج إليها . ولو تم استيراد الكميات الكافية منها

على نحو رسمي ، ستترصد أجهزة مخابرات العدو هذا ،

وسيدرك رجالها ما يرضيه بالطبع .

تبادلوا نظرة قلقة ، وغمغم أحدهم ، وهم يعاونون الجلوس

حول مائدة الاجتماعات :

- إنها مشكلة مهمة بالفعل .

ولو أن شخصاً في خارج هذا المجال يتابع ما حدث في

اللحظات التالية ، لاستولت عليه دهشة عارمة ، وهو يتطلع إلى

وجوه رجال المخابرات ، ولتساءل في حيرة كيف أمكنهم أن

ي طرحوا كل تعبهم وإرهاقهم جانباً في لحظة واحدة ، وأن

يستعيدوا روح الحماس والنشاط ، وهم يناقشون هذه المشكلة

الجديدة ، وي طرحونها على مائدة البحث بمنتهى الجدية لثلاث

ساعات أخرى .

لم يكن من الممكن أن يتركوا ثغرة واحدة ، في الخطة التي

غاصوا فيها حتى النخاع لشهور وشهور ، مهما بدت بسيطة أو

جانبية ، فعدم وجود الكم الكافي من المصابيح اليدوية ، في أثناء

فترة الحرب كفيل بإثارة الأعصاب ورفع معدلات التوتر ، مع

الإظلام الإجباري ، واستيرادها أيضاً كفيل بتعريض خطة الخداع

كلها للخطر ، وبالتالي العدو بما يجري الاستعداد له منذ زمن ..

وهذا يضع الجميع أمام حل واحد لا غير ..

من الضروري ، بل والمحتم ، أن تتواجد كمية كافية من

المصابيح اليدوية في الأسواق ، بشكل غير رسمي ، وعلى نحو

لا يمكن أن يثير شكوك العدو أو قلقه ..

وفي نهاية الساعات الثلاث ، كان رأي المجموعة قد استقر

على فكرة واحدة ..

الاستعانة بمهرب محترف لإحضار هذه المصابيح ..

ولكن حتى هذه الفكرة كانت تتطوى على مخاطر كبيرة ، إذ

كيف تضمن أن هذا المهرب لن يشك في الأمر ، وأن تزايد

الكميات المعروضة من المصابيح اليدوية في الأسواق ، على

نحو مباغت ، لن يتم رصدّه بواسطة عيون العدو وجواسيسه
فى داخل البلاد ، وإثارة شكوكه وتساؤلاته أيضا ؟!

وعلى الرغم من أن الرجال لم يتناولوا طعاما منذ عشاء
الأمس ، فقط استفرقهم الأمر لساعة أخرى ، دون أن يشعروا
بهذا ، وهم يدرسون هذه النقطة الأخيرة ، وفى نهاية الساعة
كانوا قد وضعوا برنامج العمل ، وأسندوا المهمة كلها لزميلهم
(حسام) ، الذى غادر للمبنى مباشرة متجها إلى وزارة
الداخلية ، حيث التقى بعدد من رجال الشرطة ، المسئولين عن
عمليات التهريب ، وأقنعهم بأنه يجرى دراسة حول المهربين ،
ومدى خطورتهم . فى التأثير فى الجبهة الداخلية ، ثم أنهى
الزيارة ، وهو يحمل فى جيبه قائمة بأسماء عدد من كبار
المهربين ، الذين لم يتم ضبطهم متلبسين قط ، وقضى ساعة
أخرى فى منزله لدراساتها ، وعندما استسلم أخيرا لنوم عميق ،
كانت أصابعه تقبض على القائمة ، وقد وضع علامة صغيرة
أمام أحد الأسماء المدونة بها ..

اسم (مرزوق المحلاوى) ..

و (مرزوق) هذا مهرب قديم ، ورث المهنة - إن صح
تسميتها بهذا - من والده وجده ، اللذين عملا بها منذ الحرب
العالمية الثانية ، وحفظ مسالك ودروب الصحراء ، والثغرات فى
الحدود المصرية الليبية ، وحاول استغلال فترة ما بعد النكسة

لتهريب السلع والبضائع ، وتعامل مع هذا الأمر ببراعة وحذق ،
فلم يتم القبض عليه متلبسا قط ، حتى تلك اللحظة ، بسبب
حرصه الشديد ، وثقته التامة لا يمتحها إلا لأقرب أقربائه ،
وأخلص رجاله القلائد ..

ولأن (مرزوق) كان يثق تماما بأنه الملك غير المتوج
لعمليات التهريب فى المنطقة ، فقد أدهشه ، وأحنقه فى الوقت
ذاته ، أن يتحدث الناس فجأة عن (عبد الفتاح) ، المهرب
الشاب ، الذى أثبت تفوقا وبراعة ، فى خلال فترة قصيرة ، كاد
يسرق الصوق واللقب فيها من (مرزوق) ، بعد أن اشتهر
بالجراة والذكاء ورخص بضاعته وجودتها ..

وفى البداية حاول (مرزوق) تجاهل وجود (عبد الفتاح) ،
وأغلق أذنيه أمام ما يتردد عنه من أحاديث متصورة أن ذلك
القادم الجديد لن يستمر طويلا ، وأنه سيقع إن عاجلا أو آجلا
فى قبضة الشرطة ..

ولكن هذا لم يحدث ..

لقد واصل (عبد الفتاح) عملياته وانتصاراته ، وتجاهله
أيضا للمهرب القديم (مرزوق) ، فلم يحاول الالتقاء به ، أو
حتى إجراء أية اتصالات معه ، على الرغم من أن هذا الأخير
كان يتوقع منه محاولة للتقرب ، وتقديم فروض الطاعة والولاء
على الأقل ..

ومع هذا التجاهل المستمر والمستقر ، قرر (مرزوق) أن يكسر الحاجز بنفسه ، وأن يسعى هو للقاء غريمه . ولأن كرامته لا تسمح له بالذهاب إلى (عبد الفتاح) ، فقد أرسل من يخبر هذا الأخير أن المهرب الكبير يرغب في مقابلته ..

وجاء رد فعل الشاب مرضيا ومريخا للجميع ..

لقد استقبل رسول (مرزوق) بحفاوة بالغة ، وأكرم وفادته ، وأثنى ثناء مستفيضاً على سيده ، وأعلن أنه يعتبره أستاذه ومعلمه في هذا المجال . ثم أرسل معه هدية قيمة ، ووعد بزيارة (مرزوق) في المساء التالي مباشرة ..

وكان من الطبيعي ، والحال هكذا ، أن يبرد (مرزوق) الجميل ، ويستقبل (عبد الفتاح) بالحفاوة والترحاب والشباب يباليغ في إظهار احترامه وتقديره له طوال الوقت ، ويؤكد أن تأخره عن زيارته لم يكن غروراً أو تكبراً وإنما كان رهبة من الأستاذ الكبير في عالم التهريب والمناورة ..

ومرد فعل نفسى طبيعى . تمت دراسته بدقة مذهشة . في قسم خاص بجهاز المخابرات العامة ، قرب (مرزوق) الشاب إليه ، وسعد بقربه ، وقضى ليلته كلها يتحدث معه في اهتمام وحماس . ولم تشرق الشمس ، حتى كان يدرك جيداً أن الشاب حاذق للغاية ، وأنه أكثر دراية منه بدروب وممالك الصحراء ، وخفايا خنجان الشاطئ . وأنه من الممكن جداً أن يفيد بخبرته ..

وفي لقتئهما التئى مباشرة ، طلب (مرزوق) من (عبد الفتاح) أن يساعده في عملية تهريب لقطع غيار للسيارات .. وكنت عملية ناجحة للغاية ..

بل أنجح صفقة قام بها (مرزوق) في حياته كلها ..

وإزداد تعلقه بالشاب ، وقويت أواصر الصداقة بينهما ، حتى إن (مرزوق) عرض عليه ، بعد شهر واحد ، وبالتحديد في أوائل يوليو ١٩٧٣ م . أن يشاركه إحدى صفقاته ، واقتراح أن يقوموا بتهريب شحنة من الخمور السوفيتية ، إلا أن (عبد الفتاح) لم يفتح بهذا . ومال عليه قائلاً :

.. دعك من هذه الصفقات المرهقة .. أحجام كبيرة وأرباح صغيرة .. هذا لا يحقق التوازن للمنشود .

فضله (مرزوق) في اهتمام :

.. ما الذى تقترحه إذن ؟

تراجع (عبد الفتاح) وهو ينوح بيده ، ويقول فى حسم :
المصاييح اليدوية .

ارتفع حاجبا (مرزوق) فى دهشة بالغة . وهو يقول :

المصاييح اليدوية ؟! وهل يمكن أن يكون هذا مربحاً ؟!

اعتدل الشاب ، وهو يجيب فى حماس :

.. بالطبع .. إنها خفيفة الوزن ، صغيرة الحجم ، وأسعارها

معقونة ، ثم إن الكل يشتري المصاييح اليدوية .. الكبير والصغير

منبيع الآلاف منها ، ونربح أكثر بكثير من بيع العشرات من زجاجات الخمر الموفيتية للريانة الصنع .

لم يقتنع (مرزوق) بالفكرة في مهولة ، ولكن حماس (عبد الفتاح) وذكاءه في طرح فكرته ، لم يلبثا أن وجدا صدى لدى المهرب القديم ، فأعلن موافقته على المضي في العملية ، وإن أشار إلى أن المصاييح اليدوية ستحتاج إلى مكان ضخم لتخزينها . فأعلن الشاب أنها ليست مشكلة كبيرة ، وأنه سيتولى هذا الأمر بنفسه ..

وبالفعل ، لم يمض أسبوع واحد ، حتى كاتا قد استأجرا ثلاثة مخازن واحد في الصحراء الغربية والثاني في بدروم فسيح في (الإسكندرية) والثالث عبارة عن جراج في (العباسية) في (القاهرة) ..

وفي منتصف أغسطس ١٩٧٣ م ، وصلت الصفقة ..

وبسرعة نقلها (مرزوق) و (عبد الفتاح) ورجالهما إلى المخازن الثلاثة ، وفرك الأول كمية في سعادة ولهفة ، وهو يقول :

- يبدو أنها عملية ناححة للغاية يا (عبد الفتاح) .. سأجرى اتصالاتي في الصباح الباكر مع التجار ، و ...

قطعه (عبد الفتاح) في حزم :

- لا .. ليس بهذه السرعة .

سأله في دهشة :

- ولم لا ؟! المصاييح وصلت بالفعل ، وتصريفها بأقصى سرعة ينهي العملية ، ويعيد إلينا نقودنا وأرباحنا .

هز (عبد الفتاح) رأسه في هدوء وحكمة ، وهو يقول :

- خطأ .. مباحث التموين بدأت حملة نشطة هذا الأسبوع . لمراجعة كل البضائع المستوردة في السوق ، وتحديد مصادرها الرسمية ، وفي مثل هذه الظروف ينخفض سعر البضائع المهربة كثيراً ، لأن أحدا لا يرغب في المخاطرة .. انتظر حتى تنتهي الحملة ، ويمكننا بيع بضاعتنا بثمن جيد .. الأرباح الإضافية تستحق الانتظار .

ومرة أخرى بدا الأمر منطقياً ، فترك (مرزوق) المصاييح اليدوية في المخازن الثلاثة ، وانتظر حتى تنتهي حملة مباحث التموين ..

ولكن الحملة لم تنته بسرعة ..

لقد استمرت حتى أوائل سبتمبر ، على نحو جعل أعصابه تتوتر أكثر وأكثر ، وهو يقول لشريكه (عبد الفتاح) في حدة :

- إلى متى ننتظر ؟! لقد سنمت هذا ، وأموالي معطلة في هذه الصفقة .

أدهشته لبصامة الشاب للهادنة الوثيقة ، وهو يجيب :

- لا تفتلق . أعتقد أن الوقت قد حان لإتمام العملية .
وكالمعتاد ، اتخذ (مرزوق) كل إجراءات الحيلة والحذر ،
وهو يستعد لتصرف بضاعته المهربة ، و .
وحدث فجأة ما لم يكن في حسبته ..

لقد فوجئ بالشرطة تطبق عليه ، وعلى مخازنه الثلاثة ،
فجر اليوم التالي مباشرة ، والتقى في مديرية الأمن
بشريكه (عبد الفتاح) ، الذي استقبله في توتر شديد ، وهو
يقول في عصبية :

- كيف اتكشفت أمرنا يا (مرزوق) ؟! بنى أعمل وحدى منذ
زمن ، ولم ينكشف أمرى قط .. لا بد أن أحد رجالك قد وشى
بنا .

كاد (مرزوق) يضرب رأسه بالجدار ، وهو يتساءل عن
كيفية وقوعه في قبضة الشرطة ، وعن ذلك التفتن ، الذى
كشف أمر الصفاة والمخازن الثلاثة ، ولكنه لم يعثر على جواب
قط ، طوال فترة محاكمته هو وشريكه ، ولا بعد أن أصدرت
النيابة أمرها بمصادرة المصاييح اليدوية المضبوطة . طبقاً
للقانون ، وطرحها للبيع فى المجمعات الاستهلاكية ..

وجاء هذا قبل اندلاع الحرب بشهر واحد ، وعلى نحو
طبيعى للغاية ، حتى إن عيون العدو لم تنبته إليه أو ترصده ،
ولم يتصور عباقرته أنها خدعة مدروسة لغمر السوق
بالمصاييح اليدوية المطلوبة ..

وعندما اندلعت الحرب ، فى السادس من أكتوبر ، علم
١٩٧٣ م . وصدرت الأوامر الخاصة بالإفلام الإجبارى ، كانت
المصاييح اليدوية مطروحة بكميات كبيرة ، فى كل المجمعات
الاستهلاكية ، وبأسعار متواضعة للغاية ..

من المؤكد أن صدمة المهرب العريق (مرزوق) كانت
عنيفة للغاية ، عندما عرف فجأة فى سجنه ، أن شريكه لم يكن
سوى واحد من أبرع رجال المخابرات العامة المصرية ، وأول
من بنجح فى خداعه ، وفى تحقيق هدفين جليلين بضربة
واحدة ..

ومن المؤكد أيضاً أن صدمة العدو كانت أكثر عنفاً وقسوة ..
لقد أدرك - عملياً - مهارة وبراعة رجال المخابرات العامة
المصرية ، الذين وضعوا وأداروا أبرع خطة خداع فى تاريخ
الحروب الحديثة ، وأنهم بالاشتراك مع القوات المسلحة
المصرية ، وأجهزة الدولة المختلفة ، قد نجحوا فى تحدى
المستحيل ، فتحقق النصر ، ..
وتبدد الظلام

★ ★ ★

الخدعة الطبية !!

سبتمبر ١٩٧٣ م ..

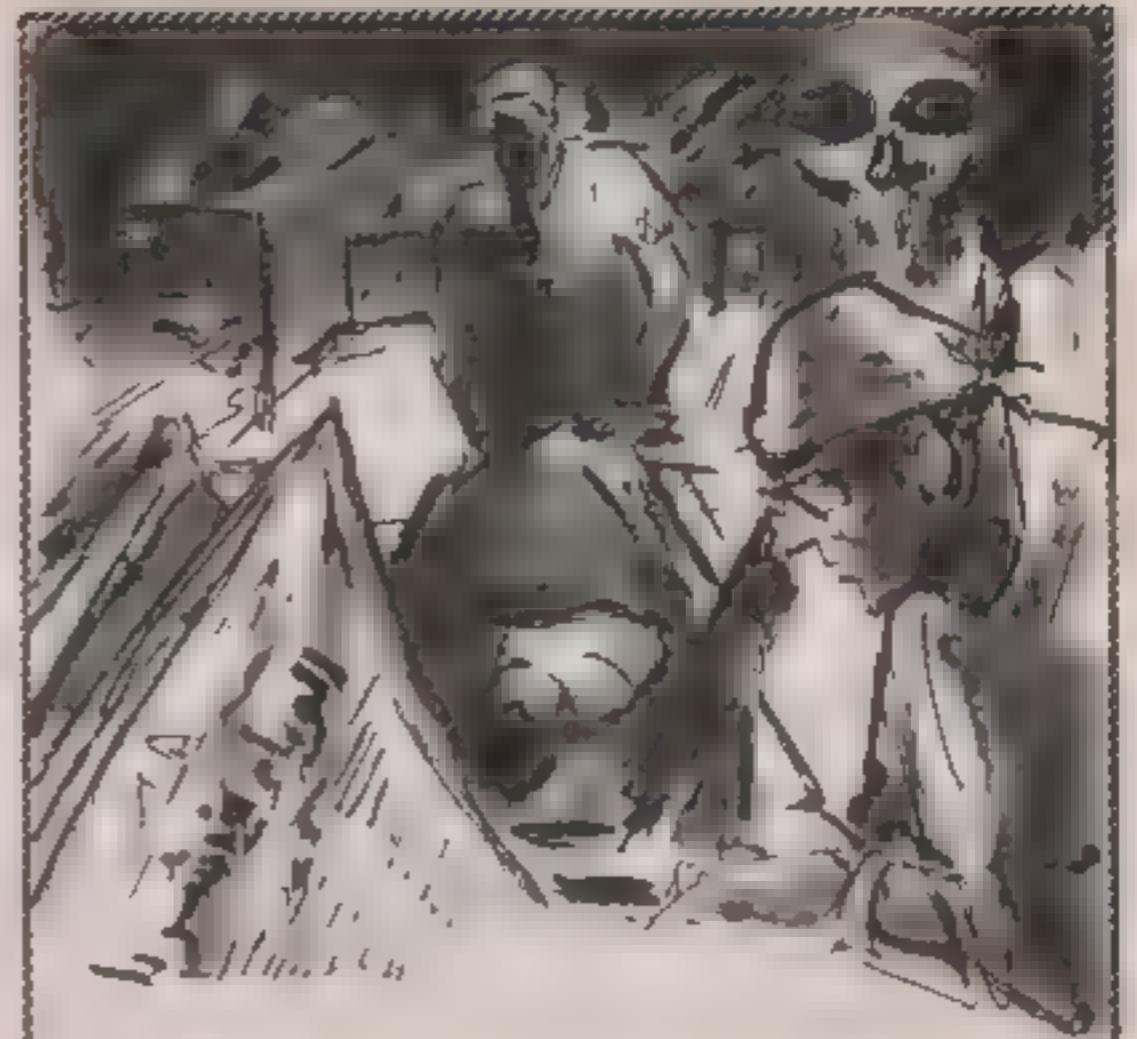
اقتربت ساعة الصفر ، وبدأ العد التنازلي لحرب أكتوبر ، وبلغت حرارة الرجال حدًا مخيفًا ، على الرغم من انخفاض درجات الحرارة القطبية ، ووصولها إلى معدلات معتدلة ، بالنسبة لهذه الفترة من العام ..

فكل شيء ينبغي دراسته بمنتهى الدقة والعناية ، حتى أدق التفاصيل ، بحيث تغطي الحطة في مسارها ، دون أن ينتبه العدو ، أو تلتقط عيونه لمحة واحدة ، يمكن أن تفسح عما يدبره جيشًا ، وتعد له قيادتنا السياسية والعسكرية .

ولم بعد هناك وقت للنوم . الجميع صاروا يعملون ليلاً ونهاراً ، بلا انقطاع تقريباً ، وكل فريق منهم يعد دراسة الأمور ، وتقييمها ، في ظل ما يستجد من معلومات ، يتولى عدد من أمهر الجواسيس والعملاء جمعها بلا هوادة ، من كل المصادر الممكنة ، في قلب النسيج الأساسي للعدو

وكلما برزت مشكلة ، كان على الرجال أن يفحصوا ويمحصوا ، ويجاهدوا للبحث عن أفضل الحلول لها ، وبأكثر الوسائل سلامة وأمنًا ..

وفي الوقت ذاته كانت هناك مشكلات معقدة وتقليدية ، في



الخدعة الطبية !!

كل الحروب يدركها ويعلمها العدو ، تمامًا مثلما ندركها ونعلمها ، ومن الضروري أن يجد الخبراء لها حلولاً مبتكرة وجديدة ، بحيث لا ينتبه العدو إلى هذه الحلول التي تقوده بالطبع إلى وجود المشكلة وإرتباطها الحتمي بقرب تدلاع الحرب ..

ومن أكبر هذه المشكلات وأكثرها أهمية ، مشكلة توفير أماكن العلاج للمصابين الذين قدر الخبراء أنهم سيبلغون خمسين في المائة في موجة العبور الأولى ، ثم يتناقص العدد بعدها تدريجياً ..

وطبقاً لتقديرات الخبراء ، كان من الضروري ، بل من المحتم أن يتم إخلاء عدد من المستشفيات المدنية ، حتى يمكنها استقبال كل هذا العدد الذي لن تستوعبه مستشفيات القوات المسلحة وحدها حتماً ..

ومن أجل هذه المشكلة ، اجتمع الرجال كثيراً وطويلاً ، وراحوا يدرسون ويفكرون ، ويناقشون ويتجادلون ..

وفي اهتمام شديد ، قال أحدهم ، وهو يرتشف رشفة من قدح القهوة الساخن ، في الرابعة والنصف صباحاً :

- المشكلة أن إخلاء المستشفيات المدنية ليس بالعمل البسيط الذي يمكن مداراته أو إخفاؤه ، فكل مريض يسعى للعلاج سيشعر بالفضب والثورة ، وسيشكو لجيرانه وأقاربه وأصدقائه وزملاء عمله ، وسيجد بينهم حتماً من ينقل الخبر ، وبأقصى سرعة إلى « تل أبيب .. » .

بدا عليهم شيء من الضيق والإحباط ، ثم لم يلبث أحدهم أن اعتدل بحركة حادة ، وقال في حماسة :

- إلا لو تم هذا لسبب منطقي .

التفتت إليه العيون كلها في تساؤل وجد طريقه إلى لسان أحدهم ، وهو يقول :

- وما الذي يمكن أن يكون هذا السبب المنطقي ؟

أجاب الأول بنفس الحماسة :

- سبب طبي بحت .

ثم راح يشرح الخطة التي برزت في ذهنه .. وبكل التفاصيل ..

واستمع إليه الرجال بمنتهى الاهتمام ، حتى انتهى من الشرح ، ودون أن يقاطعه أحدهم لحظة واحدة ، ثم بدعوا مناقشتهم ومحاوراتهم ، التي امتدت حتى الساعة صباحاً ، قبل أن يربت رئيسهم على منضدة الاجتماعات براحتة قاتلاً .

- على بركة الله .. فلنضع الخطة موضع التنفيذ .

وبعد سبع ساعات واثنى عشرة دقيقة بالتحديد ، وصل إلى إحدى الوحدات العسكرية في السويس قرار من إدارة شئون الضباط للقوات المسلحة ، بتعمير ضابط طبيب من الخدمة ، وعودته إلى الحياة المدنية ..

ولما كان ذلك الإجراء نادر الحدوث ، في تلك الفترة ، فقد أظهر للضابط الطبيب فرحته وسعادته ، وهمس للمقربين إليه

بأن جهود خاله الذى يحتل مكانة رفيعة فى القيادة ، هى التى منحتة هذا الامتياز ، وأعادتة إلى الحياة المدنية ، حتى يمكنه استكمال دراساته العليا ، التى توقفت مؤقتاً ، بسبب التحاقه بكلية ضباط الاحتياط منذ عدة سنوات ..

وكإجراء طبيعى ، لم يكد الطبيب (ع) يعود إلى حياته المدنية ، حتى تسلم وظيفته السابقة فى وزارة الصحة ، التى تركته على قوتها ليومين أو ثلاثة قبل أن تمنحه خطاب التعيين فى مستشفى (الدمرداش) الذى وقع عليه الاختيار ليكون على رأس قاعة المستشفيات المطلوب إحلاؤها ، قبل أن تنشب الحرب ..

والتحق (ع) بالعمل بالمستشفى ، وأبدى نشاطاً ملحوظاً ومهارة وكفاءة فى عمله فى قسم الجراحة .

وقبل أن يمضى أسبوع واحد على تسلمه العمل ، حتى كان يتقدم بمذكرة إلى مدير المستشفى ، قائلاً فى اتفعال :

- خطأ .. استمرار العمل بهذا المستشفى خطأ .

تطلع إليه المدير فى دهشة ، وهو يسأله :

- لماذا ؟! كل شىء يدور على ما يرام .

لوح (ع) بسبابته فى حزم ، وهو يقول :

- هذا ما يبدو ظاهرياً ، ولكن هناك مشكلة بالغة الخطورة .
لست أرى كيف لم ينتبه إليها أحد ..

ثم مال نحو المدير ، وأضاف فى لهجة تشف عن أهمية وخطورة الأمر :

معظم غابر المستشفى ملوثة بميكروب التيتانوس

قفز المدير من مقعده كالمصعوق ، وهو يهتف :

- التيتانوس ؟! هذا مستحيل !

احتدمت المناقشة بينهما لفترة طويلة ، وأصر الطبيب (ع) على رأيه ، وعلى أن مواصلة استقبال المرضى فى المستشفى لها عواقب وخيمة ، وحذر المدير من أنه سيحمله المسئولية الكاملة ، لو انتشرت الإصابة بالميكروب .

ولم يخضع المدير للأمر فى سهولة ، وبما قرر القيام بفحص شامل ، وإجراء عدد من التحليلات ، قبل اتخاذ أى قرار فى هذا الشأن ..

وتم جمع العينات المطلوبة ، وإجراء كل الفحوص الممكنة .

ثم أتت النتائج ..

والمدهش أنه وعلى الرغم من خلو المستشفى فعلياً من ميكروب ، إلا أن كل النتائج جاءت إيجابية وكثما تحول مستشفى (الدمرداش) إلى مزرعة نشطة لميكروب التيتانوس بالذات ..

وصدر قرار بإخلاء المستشفى تماماً من المرضى لتطهيره من الميكروب ، وتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لهذا .

وفلا نفس اللجنة اجتمع الرجال مرة أخرى ..

كان من الواضح أن خطتهم تسير على خير ما يرام

بالنسبة لمستشفى (الدمرداش) ولكن أحدهم طرح تساؤلاً غلية
في الأهمية والخطورة :

- ماذا عن المستشفيات الأخرى ؟! هل سنتبع معها الخطة
ذاتها ؟!

أجابه أحد زملائه في جسم :

- من المستحيل بالطبع أن نفعل ، فلو تكرر الأمر على النحو
نفسه ، سينتبه العدو إلى أن الأمر ليس طبيعياً على الإطلاق ،
مما سيثير شكوكه ، ويدفعه إلى دراسة الأمر وتحليله ، مما
سيوصله حتماً إلى استنتاج الحقيقة .

قال آخر في أفعال :

- ينبغي ألا نسمح له بهذا قط .

عاد الأول بمائل :

- ماذا يمكننا أن نفعل إذن ؟

ران عندهم صمت ثقيل . وكل منهم يفكر في الأمر ، ثم لم
يلبث أحدهم أن كسر ذلك الصمت ، وهو يقول في اهتمام :

- دعونا نطرح على أنفسنا سؤالاً مهماً .. ما الذي ينبغي
فعله في الظروف العادية ، لو أن مستشفى (الدمرداش) تلوث
بميكروب (التيتانوس) فعلياً ؟

أجاب أحدهم بسرعة ، وينغمس الاهتمام : ستكون فضيحة
وسيصبح الأمر حديث الصحف .

تراجع الرجل ، قاتلاً بالهتسامة كبيرة :

- عظيم .. هذا بالضبط ما نحتاج إليه .

تصاعل آخر في دهشة :

- الفضيحة ؟!

أجابه في حماس :

- بل حديث الصحف .

قالتا . ومضى يشرح فكرته ، التي اعتمدت على تعاون
للصحافة وتأثير الكلمة المطبوعة على مشاعر الجماهير ،
وبخاصة لو كانت كلمة لكاتب يحترمه الجميع ، ويثقون بما
يقول ويكتب تمام الثقة .. وكل من عمل أو يعمل في مجال
المخابرات ، يدرك جيداً أنه من أهم المصادر التي يستقى منها
العدو معلوماته . للصحف ، حتى إنه لكل جهاز مخابرات تقريباً
قسم خاص ، مهمته الحصول على الصحف والمطبوعات بأسرع
وسيلة ممكنة . للاطلاع على ما بها ، ودراسته وتحليله
واستقاء عشرات المعلومات منه ..

ومن هذا المنطلق ، وبعد مشاورات ومحاورات استغرقت
أربع ساعات كاملة ، اتخذ الرجال قرارهم بالوسيلة التي ينبغي
التعامل بها في هذا الشأن مع رجال الصحافة والإعلام ..

وفي الساعة صباحاً ، ارتفع رنين الهاتف في منزل الكاتب
للصحفي المعروف (م ص) الذي استيقظ على الفور ، والتقط

سماعة الهاتف في سرعة ، متصوراً أنهم يستدعونه إلى الصحيفة التي يعمل بها ، لحدث أمر طارئ أو جلل ، يحتاج إلى تغطية صحفية عاجلة ، لذا فقد أدهشه ، عندما ألقى سؤاله لمعرفة محنته ، أن يسمع على الطرف الآخر صوتاً مهنياً ، يقول :

- معذرة يا أستاذ (م ص) . أنا (....) من المخابرات العامة المصرية .

انتفض جسد الرجل في دهشة ، تمتزج بشيء من التوتر . نظراً للفكرة الخاطئة ، المأخوذة عن المخابرات العامة في ذلك الوقت ، وتساءل في عصبية عن السبب الذي يطلبه من أجله رجل مخابرات ، في الساعة صباحاً ، فاعتذر له الرجل في لهجة شديدة التهذيب ، وهو يقول :

الواقع أن الأمر مهم وعاجل ، وسرى للغاية .. هل تمانع في تناول قهوة الصباح معنا .

ردد الكاتب الصحفي في قلق شديد :

قهوة الصباح فقط ؟

أجابته رجل المخابرات في اختصار حاسم واثق :

- بالتأكيد .

صمت الكاتب بضع لحظات ، وكأما يدبر الأمر في رأسه ،

قبل أن يقول في حذر :

- فليكن .. سأرتدى ملابسى ، وأتصل بالجراج لإحضار السيارة ، و ..

قاطعه رجل المخابرات ب لهجة مهيبة :

- لا داعى .. ستجد سيارتنا في انتظارك أمام الباب .

ضاعف هذا الرد من توتر الكاتب الصحفي (م ص) وقلقه . إلا أنه ارتدى ثيابه بأقصى سرعة ، ثم هبط من منزله ، ليجد سيارة صغيرة مصرية الصنع في انتظاره ، استقبله سائقها بتحيةة حارة . وفتح له بابها الخلفى في احترام ، ثم انطلق يقطع شوارع (القاهرة) نحو أحد المباني التابعة لجهاز المخابرات للعمامة ، حيث استقبل رجل المخابرات الكاتب الصحفي بابتسامة ودود ، وهو يقول :

- تقبل اعتذارنا مرة أخرى يا أستاذ (م) ولكنك عندما تعرف لماذا طلبنا مقابلتك ، ستقدر موقفنا جيداً .

لم تكن الكلمات كافية لإزالة توتر الكاتب الصحفي ، ولكن أسلوب رجل المخابرات البسيط للودود ، وطريقته المباشرة في شرح الأمور ، وتوضيحه لأهمية تعاون الأستاذ (م) مع الجهاز كلها أزال حاجر التوتر والقلق ، وجعلت الكاتب يستمع في اهتمام وانتباه ، ويتفاعل مع الموقف بكيانه كله ..

والطريف أن رجل المخابرات لم يشرح له حقيقة الموقف قط ..

كل ما قاله هو أنهم يحاولون إجراء تجربة عملية ، لما
يمكن أن يحدث لو لجأ العدو إلى أسلوب الحرب البكتريولوجية ،
ونشر نوعاً من الميكروبات في البلد ، وخاصة في المستشفيات ،
وأن أفضل وسيلة لإجراء مثل هذه التجربة ، نون إثارة الذعر ،
هي ادعاء وجود ميكروب معروف ، يلوث عدداً من المستشفيات ،
مما يحتم إخلاءها بأقصى سرعة ..

واقترح الأستاذ (م) تماماً بحديث رجل المخابرات ..

بل وتحتمس له بشدة ..

وفي الصباح التالي مباشرة ، نشرت جريدة الأهرام خبر
إخلاء مستشفى (الدمرداش) من المرضى ، بسبب تلوث معظم
منابره بميكروب (التيتانوس) ..

ثم جاء دور الأستاذ (م) ..

وفي مقال ملتهب استنكر (م) ما حدث في مستشفى
(الدمرداش) وعزاه إلى الإهمال والاستهتار ، ثم تصاعل في
النهاية عما إذا كان الأمر يقتصر على هذا المستشفى وحده ،
أم أن مسلسل الإهمال قد بلغ بعض المستشفيات الأخرى ؟

وفي اليوم التالي خرج بمقال آخر ، حول الموضوع نفسه ..
ثم مقال ثالث ..

ورابع ..

ومع رد الفعل الجماهيري ، وبناء على هذه الحملة الصحفية

الساخنة ، أصدرت وزارة الصحة قراراً بإجراء تفتيش على
باقي المستشفيات .

والطريف أنها أسندت هذه المهمة للطبيب (ع) نفسه ، من
قبل المصادفة !!

واتطرق (ع) بواصل مهمته ، ويجري التفتيش على عدد
كبير من المستشفيات ، من ضمنها تلك التي تحتل القائمة ،
التي وضعها رجال وزارة الدفاع والمخابرات العامة .

ولم يكد أول أكتوبر يأتي حتى كان العدد المطلوب من
المستشفيات قد تم إخلاؤه نهائياً . ونشرت جريدة الأهرام تحقيقاً
عنياً حول هذا الأمر ، مع صور الأسرّة الخالية ، وعمليات
التطهير المستمرة ..

والتفط رجال المخابرات أنفسهم في ارتياح لنجاح الخطوة ،
ثم عادوا يكتمونها في قلق شديد ، خشية أن يكشف العدو
الأمر ، قبل قدلاع الحرب ..

ولكن هذا لم يحدث والحمد لله ..

فبعد ستة أيام بالتحديد ، نشبت حرب أكتوبر . واندفعت
موجة العبور الأولى تشق قناة السويس ، وتعبّر حاجز الهزيمة ،
وتحتل أقوى خط دفاعي في التاريخ ، وتحطم أسطورة الجيش
الإسرائيلي ، الذي أشاع أنه لا يقهر أبداً ..

وخفقت قلوب الرجال في حماس وزهو لا يخلوان من



ضوء الحقيقة..

الدهشة والتقدير .. لقد تحقق عامل المفاجأة إلى أقصى حد ،
وبوغت العدو تماماً لعملية العبور ، حتى إن معدلات الخسائر ،
التي قدرها الخبراء بخمسين في المائة في موجة العبور الأولى ،
انخفضت حتى لم تتجاوز العشرة في المائة ، وهو أقل معدل
خسائر عرفته الحروب الحديثة ، في عملية عبور متع متالى
حصين كهذا ..

وعندما تحركت كتائب الإسعاف ، لنقل المصابين إلى
الخطوط الخلفية ، وتوفير أفضل عناية ورعاية لهم ، كانت كل
المستشفيات المطلوبة خالية ، ومعدة لاستقبالهم ، وتوفير كل
الخدمات الطبية لكل واحد منهم ..

هذا لأن الخدعة قد نجحت نجاحاً منقطع النظير ..
الخدعة الطبية .

ضوء الحقيقة ..

بدأت تلك الأيام الأخيرة من سبتمبر ، عام ١٩٧٣ تقليدية هائلة ، بالنسبة لكل المصريين على الرغم من حلول شهر رمضان المعظم ، بكل ما يحمله من بهجة . وتقاليد دينية واجتماعية انفرست في أعماق هذا الشعب . منذ العهد الفاطمي ، وراح الناس يخرجون إلى الأسواق ، ويلتفون حول باعة الكنافة والقطائف . ويتاعون لوازم الشهر الكريم . ثم يجتمعون حول موائد الافطار ، أو على المقاهي ، أو في المساجد ، وتدور بينهم الحوارات والأحاديث ، في مختلف الأمور الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية ..

ومما لا شك فيه أن القاسم المشترك الأعظم لتلك الأحاديث ، كان حالة الاسلام واللاحرب ، التي امتدت منذ نكسة يونيو ١٩٦٧ م ، وحتى تلك الفترة ، وراح البعض - كالمتفاد - يتظاهر بأنه عليم ببواطن الأمور . وبأن لديه معلومات مؤكدة - لم يذكر مصدرها بالطبع - تقول : إن (مصر) لا يمكنها أبدا أن تخوض حرباً مع (إسرائيل) . لافي الوقت الحالي ، ولا في أي وقت قادم ..

وعلى الرغم من أن ضابط المخابرات العامة (ر.ج) كان أحد رواد ذلك التنادي للشهير ، بين فرعى النيل ، وأنه يستمع

بنفسه إلى حديث مشابه ، راح صاحبه يروي قصصاً وهمية ، حول علاقته الوثيقة بعدد من كبار المسئولين ، وثقته الأكيدة في أن الحرب تندرج تحت قائمة المستحيلات . بعد الفول والعشاء ، والخل الوفى . إلا أن (ر.ج) لم يستكر قوله . أو يعرض عليه ..

كل ما فعله هو أن أسبل جفنيه ، وأخذ ينصت في اهتمام شديد ، يتعارض تماماً مع مظهره الناعم المتكاسل ، في حين انطلقت في أعماقه ضحكة غير مسموعة ، تموج بالارتياح والظفر والصعادة ..

فهذه الأحاديث بالذات ، هي الدليل الحى ، على أنه وفريقه من رجال المخابرات المصرية ، قد انوا دورهم على أكمل وجه ، ونجحوا إلى حد كبير في نسج شبكة قوية من الخداع ، لإخفاء الاستعدادات المصرية القوية ، لخوض الحرب الفاصلة مع الإسرائيليين ، في السادس من أكتوبر ، أي بعد أقل من عشرة أيام ..

وقبل أن يكمل تلك المتحلق حديثه ، نهض (ر.ج) بزمع الانصراف ، وهو يتشاءب في ضجر حقيقى ، لم يرقى للراوى ، فالتفت إليه ، قائلاً في شيء من الحدة :

- إلى أين ؟ ما زال الليل طويلاً ، ورمضان يحب السهر ..

ليتم (ر.ج) قائلاً في هدوء :

- هذا صحيح . ولكنى مجهد من العمل طوال النهار . وأنشد
بعض الرائدة ..

سأله الرجل فى شيء من الفطوسة :

- قل لى : ما رأى أصحاب شركة السياحة . التى تعمل بها ؟!
هل يعتقدون أن (مصر) ستحارب (إسرائيل)

صمت (ر.ج) لحظة ، ثم هز كتفه قائلاً :

- شقيقى ، أخبرنى أن الجيش سيعلم عن بدء الحجز لرحلات

الحج .

لم تكن : مبررته نظى شيئاً محدوداً . إلا أن الرجل هتف فى

الحاضرين : حماس مفتعل :

- ألم أقل لكم ؟ الحرب ليست قريبة . بأى حال من الأحوال .

تركه (ر.ج) يواصل نحاديثه الحماسية ، وحقائقه الكاذبة

المزعومة . وعادى النادى . منتظف بسيارته إلى منطقة (مصر

الجديدة) ، ثم إلى حدائق القبة . وأخيراً توقفت سيارته داخل

ذلك المبنى المهيب الصامت دوماً . والذى يحمل شعار

المخابرات العامة المصرية ..

لم يكن ينشد الراحة بالفعل كما ادعى ، وإنما كان - على

العكس تماماً - يستعد لقضاء ليلته كلها . حتى صباح اليوم

التالى . فى متابعة ومراجعة وتطوير خطة الخداع . التى يشرف

على جانب منها ، منذ أكثر من عام كامل ..

وعندما ضمته مائدة الاجتماعات ، مع عدد من رفاقه ،

كانت القضية التى تشغلهم ، فى تلك الليلة . هى كيفية فرض

رقابة صارمة دائمة . على استعدادات وتحركات الوحدات

الإسرائيلية . حتى لحظة الهجوم المنتظر ، ظهر السادس من

أكتوبر ..

وفى اهتمام ، راح أحدهم يستعرض آخر ما وصل من

تقارير ، قائلاً :

- الأخبار تصلنا بانتظام من قلب (إسرائيل) ، من خلال

العميل (٣١٣) ، الوثيق الصلة بوزير الدفاع (موسى ديان) ،

والعميل (ل ٥٦٤ م) ، فى السلاح الجوى ، والعملة (استير) ،

وعدد آخر من عملائنا المنتشرين فى المجتمع الإسرائيلى

ومستوطناته ومصانعها . أما بالنسبة لخط (بارليف) ، فكلكم

تعلمون أن لدينا عميلاً من الطراز الأول هناك ، وأقصد به

(عمرو طلبية) ، الذى يتحلل هوية إسرائيلية ويسيطر على

أجهزة البث والاتصال هناك .. المشكلة الحقيقية تكمن فى

الوحدات الإسرائيلية المتمركزة فى القنطرة شرق .

قال أحدهم فى اهتمام :

- ولكن لدينا بالفعل عميلاً موهوباً فى (القنطرة) .

لوماً الأول برأسه بإيجاباً ، وقال :

- هذا صحيح ، ولكن المشكلة أن الإسرائيليين قد أقاموا

وحدثين من وحدات الاعتراض اللاسلكية ، في مناطق قريبة من القطرة ، وهذا يعنى أن لية رسالة لاسلكية يمكن التقاطها بسرعة ، وتحديد موقعها بشيء من الدقة ، يكفى للإيقاع بالعمل في وقت قصير ، والإبلاغ عن التحركات والاستعدادات على نحو منتظم ، يحتاج إلى وسيلة اتصال سريعة وفعالة ، فلا يمكن انتظار رسالة عادية ، تنتقل من يد إلى يد ، حتى تصل إلينا بعد يومين أو ثلاثة .. إننا نريد وسيلة تبلغنا بالتغيرات فور حدوثها .

انتهى من حديثه ، فران على المكان صمت ثقيل ، وكل الحاضرين يقتصرون عقولهم ، بحثاً عن وسيلة اتصال جديدة ، بخلاف البث اللاسلكى ، تكفى لتحقيق الغرض المنشود .. وطوال الليل ، راح الرجال يفكرون ، ويناقشون ، ويقترحون ، دون التوصل إلى حل منطقي وحاسم للمشكلة ، على الرغم من الأفكار غير التقليدية التى طرحوها ..

لقد اقترح أحدهم استخدام الحمام الزاجل ، ولكن الفكرة لم تلق قبولا من الجميع ، نظراً لصعوبة إرسال الحمام الزاجل إلى العمل ، فى هذه الفترة القصيرة ، ولأن اهتمامه المفاجئ بتربية هذا النوع من الحمام ، قد يثير حوله عشرات الشكوك ، ثم ، وهذا هو الأهم ، أن الحمام الزاجل لا يمكن أن يصير ليلاً ، فماذا لو احتاج الأمر إلى الإبلاغ عن تحركات عسكرية ليلية مباغتة ، أو شيء من هذا القبيل ؟!

واقترح آخر أن يقوم العميل ببث رسائله على نحو متقطع ، بحيث لا يمنح أجهزة الاعتراض الفرصة المناسبة لتحديد موقعه وكشف أمره ..

ومن أجل مناقشة هذا الاقتراح ، تم إيقاظ خبير اللاسلكى فى الثالثة صباحاً ، واتزاعه من فراشه على نحو عاجل : لاستشارته فى الأمر ، وبذل الرجل جهداً حقيقياً لاستيعاب الفكرة ، وهو يتأعب فى إرهاق ، لأنه لم يأو إلى فراشه إلا منذ ساعة واحدة ، بعد عمل شاق متواصل ، استغرق يوماً ونصف اليوم ، ثم هز رأسه نقياً ، وأفتى بأن الفكرة غير مأمونة ، لأن بث الرسالة على نحو متقطع سيؤدى ، على عكس ما يتصور الجميع - إلى منح أجهزة الاعتراض والتعقب فرصة مثالية ، لتحديد موقع العميل ، وقوة الإرسال ..

وبقدر ما كانت إجابته محبطة لفريق العمل ، إلا أنه تلقى منهم شكراً عميقاً على ما بذله من جهد ، وهو يختطف مسترته ويغادر المكان فى لهفة ، للعودة إلى فراشه ، والاستمتاع بساعات من النوم ، قبل أن يعود إلى أعماله المعتادة فى السابعة صباحاً ...

ونال الإرهاق من الجميع ، مع مطلع الفجر ، وهم يعجزون عن التوصل إلى حل لهذه المشكلة ..

كان للحصول على سيل مستمر من المعلومات ، حول

الاستعدادات والتحركات الرئيسية للوحدات الإسرائيلية ، حول (القنطرة شرق) أمراً حيوياً للغاية ، وخاصة عندما تقترب ساعة الصفر ، ويصبح لكل تغيير أهميته للبالغة . وفي الوقت ذاته لم يكن الحصول على تلك المعلومات ممكناً بعد إنشاء وحدتي الاعتراض اللاسلكي . وبعد أن أصبحت المواجهة العسكرية على الأبواب ..

وعندما ارتفع أذان الفجر ، توقف الرجال عن مناقشة الأمر . وتوضاً الجميع ثم اصطفوا للصلاة في خشوع ، يؤمهم (ر.ج) ، وما إن فرغوا منها ، حتى تشابح أحدهم في إرهاق واضح ، وقال وهو يلقي نفسه على أقرب مقعد إليه .

- عثلى أصبح مجهداً للغاية ، ولم يعد باستطاعته التفكير . تطلع إليه (ر.ج) في صمت واهتمام ، ثم أدار عينيه في الوجوه المرهقة الشاحبة ، وأحصى فناجين القهوة الفارغة ، التي تكدمت فوق مائدة الاجتماعات . قبل أن يلتقط نفساً عميقاً ، ويقول في حزم .

- فليكن . لقد تعلمنا أن العقول المجهددة لا يمكنها أن تحسن تقدير الأمور . أو تأتي بجديد ناجح . لذا فالفضل ما نفعله الآن هو أن نعود إلى منازلنا . ونحظى بقدر من النوم والراحة . ثم نعود للاجتماع في الثانية عشرة ظهراً ، ونعاود المناقشة . غمغم أحدهم :

- ولكن الوقت ليس في صالحنا .
أجلبه (ر.ج) في حزم أكثر :
- وليس لدينا ما نفعله أيضاً .

كان الإرهاق الشديد هو العامل الأكبر ، الذي منع الرجال من الاعتراض على الفكرة ، أو مناقشتها ، فنهضوا يرتدون ستراتهم ، لم تمض دقائق معدودة حتى كان كل منهم يستقر سيارته ، عائدًا إلى منزله . في تلك الساعة المبكرة من النهار ، والناس تستيقظ من فورها ، وتمتد لبدء يوم جديد ..

وعندما وصل (ر.ج) إلى منزله . أسرعت زوجته تستقبله في لهفة وحنان ، ولأنها زوجة رجل محبرات محترف ، لم تبق مؤالاً واحداً حول سبب غيابه عن المنزل طوال الليل . رسم تعريض مرة واحدة على عودته إلى منزله ، في الوقت الذي يستعد فيه الآخرون لمفادرة منازلهم ، واثب أحاطته بدفئها وأعدت له طعام الإفطار . ثم أعدت الفراش . وأغلقت نوافذ حجرة النوم . وأسبلت الستائر عنها . ليبدء بالنوم والراحة ..

وعلى الرغم من كل هذا ، لم يفض للرجل جفن . لقد ظل عقله منشغلاً بتلك المشكلة . التي نشأت فجأة ، في هذه الأيام الأخيرة لتعكر صفو خطة متقنة . استغرق إعدادها أكثر من عامين . واشترك في تنفيذها كل أجهزة الدولة تقريباً ..

وكان أكثر ما يقلقه هو علمه بأنه من المستحيل التغاضي
عن تلك المعلومات . الواردة من (القنطرة شرق) مهما كانت
الصعوبات والمتاعب والمشاق ..
من المستحيل تماما .

إنه زمن حرب ، وكل معلوماته . مهما بلغت ضآلتها . يمكن
أن تؤدي ، في لحظة إلى قلب الأمور كلها رأسا على عقب .
وتغيير مسار القتال كلية ..

وكالمحموم . راح (ر ج) يتقلب في فراشه . على الرغم
من إرهاقه الشديد . وحاجته الفعلية إلى النوم والراحة ..
ولأول مرة في حياته ، بدت له تلك الستائر الزرقاء . التي
تغطي نوافذ الحجرة . كسيمة مزعجة وتمنى لو ينتزعها من
مكانها . ويسمح للضوء الأبيض بالدخول .
وفجأة انطلقت صرخة قوية في أعماقه .
الضوء ..

نعم الضوء هو الحل ..

وارتفع حاجبا زوجته في دهشة بالغة . بعد دقائق خمس .
عندما فوجئت به باندفاع خارج حجرة النوم . في ثيابه كامنة .
ومفتاح سيارته في يده ، فسألته :

- إلى أين ؟!

أجلبها بسرعة . تشف عن الحماس والانفعال :

- ساعود إلى العمل .

تضاعفت دهشتها ، وهي تهتف :

ولكنك لم تتم حتى نصف الساعة !!

لوح بكفه ، وهو يقول بنفس الحماسة والانفعال :

- فيما بعد ..

كما كل أثر للنوم قد انطرح عن عقله وجسده . اللذين
استعادا نشاطهما على نحو عجيب . حتى إنه قاد سيارته
بسرعة كبيرة على عكس عادته . وكأنما يمتلك كيانا بالهفة على
العودة إلى مكتبه في جهاز المخابرات .

وفي الثامنة وسبع دقائق . وقبل ما يقرب من أربع ساعات
من موعد الاجتماع التالي المتفق عليه . كان يجري عدة اتصالات
من مكتبه بمجموعة العمل . ويقول لكم منهم عبارة واحدة :

- لقد توصلت إلى الحل .

وبدون مناقشة . أو دخول في أية تفاصيل عبر الهاتف .
كما تقتضي تعليمات الأمن . قفز كل منهم من فراشه وانطلقوا
بأقصى سرعتهم إليه وكأنما نقلت إليهم الأسلاك عدوى الحماسة
والانفعال من (ر - ج) ..

وفي التاسعة تماما . بدأ الاجتماع . وواجه رجل المخابرات
زملاءه . قائلا :

- الطريقة التي توصلت إليها بسيطة وفعالة .

وستمنحنا ذلك السيل المنشود من المعلومات ، دون أن ينتبه
الإسرائيليون ، أو تلتقط أجهزتهم الاعتراضية شيئاً .

استمع إليه الجميع في اهتمام وانتباه كاملين ، وهو يشير
إلى النافذة ، مكملًا :

كلكم تعلمون أن عميننا في (القنطرة شرق) يقيم في منزل
صغير متواضع . تطل نوافذه على جهة الغرب مباشرة بحيث
يمكن رؤيتها من جانب ، وكل ما سيفعله هذا للصيل هو أن
يغطي نافذة حجرة نومه بورق شفاف ، يتكون من ثمانية
مربعات متساوية . مختلفة الألوان وسيستخدم مصباحاً يدوياً
صغيراً ، يضيء به أحد المربعات ، تبعاً لدرجة الاستعداد
أو التحركات في الوحدات الإسرائيلية التي يرصدها ، وعلى
جانبا اليسرى ، سنضع بعض الرجال داخل عربة قديمة ، تبدو
وكأنها مهجورة ، وكل مهمتهم هي أن يراقبوا نافذة حجرة
نومه ، بالمناظير المقربة ، وإبلاغنا باللون الذي يضيء فيه ،
أولاً فأولاً ..

انتهى (ر ح) من شرح فكرته ، فراح على حجرة
الاحتتماع صمت رهيب ، وتفتت عيون الجميع به في تبهار ،
فصغف :

— ما رأيكم ؟!

وكانت الموافقة بالإجماع ، فالفكرة تحقق كل المنشود بالفعل ،

على الرغم من بساطتها . وتخدع الإسرائيليين ومحطاتهم
الاعتراضية المتطورة ، على نحو يرضى الجميع ، ويبعث في
أعماقهم شعوراً بالظفر والارتياح ..

وفي الخامسة من مساء اليوم نفسه ، وصل زائر إلى عميل
(القنطرة) الذي قضى معه ساعة واحدة . اتهمك بعدها في
لصق الأوراق الملونة التي أحضرها إليه الزائر ، على زجاج
نافذة نومه ، ومراجعة التعليمات الضمنية ، التي سلمها له ،
وحفظها عن ظهر قلب ، ثم أحرقها تنفيذاً لتعليمات الأمن ، التي
تلقاها في مرحلة تدريبية ..

وفي السادسة وسبع عشرة دقيقة ، بدأ جهاز الإرسال
الضوئي عمله ، وراح ينقل التعليمات على نحو منتظم إلى
فريق المراقبة ، على الجانب الغربي ، الذي ينقلها بدوره أولاً
فأولاً إلى أولئك الماهرين ، في مبنى المخابرات المصرية ..

وفي كل يوم يمضي ، كان عميل (القنطرة شرق) يتقن
لتعامل مع الفكرة الجديدة أولاً فأولاً . ورسائله الضوئية
المتواصلة تنقل الحقيقة إلى الجانب المصري بدقة أكبر وأفضل ..
وفي منتصف ليلة الخامس من أكتوبر ، وصلت الأوامر إلى
عميل (القنطرة شرق) بتكثيف إرساله . فلم ينقطع عن نقل
المعلومات الضوئية ، طوال نهار وليل الجمعة ، وصباح السبت ،

السادس من أكتوبر ، واستقبل (ر ج) وفريقه تلك المعلومات في (القاهرة) بلهفة كبيرة ، ثم انطلقت التجهيزات في صدورهم . معطنة ارتياحهم وسعادتهم .

فحتى الرسائل الأخيرة ، كانت تثبت أن خطتهم الطويلة قد نجحت إلى أقصى حد . وأن الجيش الإسرائيلي لا يتوقع هجوماً مصرياً على الإطلاق .

ولقد تأكد هذا نهائياً ، عندما اندلعت الحرب فعلاً . وعبر أسودنا القناة ، وأسقطوا خط (بارليف) أقوى مانع عسكري في التاريخ ، ورفعوا علمنا على الضفة الشرقية لقناة السويس ..

وبعد أكثر من شهرين . وعندما هدأت الأمور نسبياً ، ضمت جلسة أخرى في النادي الشهير (ر ج) وذلك المتحذلق . الذي حاول أن يداري حرجه ، من فشل تأكيداتة السابقة باستحالة قيام الحرب بين (مصر) و (إسرائيل) ، فاضطجع في مقعده ، وعدل منظاره الطبي فوق عينيه . وهو يشير بيده ، قاتلاً :

- كنت أعلم أن الحرب على الأيسواب ولكن أصدقائي من ذوى النفوذ ، الذين أخبروني بهذا ، أكدوا على ضرورة كتمان الأمر ، والتظاهر بالعكس .

وهنا لم يستطع (ر.ج) كتمان ضحكته الساخرة كالسابق ..
لذا فقد تركها تنطلق من أعماقه تجلجل وسط النادي ، في وجه ذلك المتحذلق الذي امتقع وجهه ، وانكمش في مقعده .
لقد تبدد شعاع كذبه بضوء مباشر هذه المرة .
ذلك الضوء الذي كان له جزء من الفضل ، في تحقيق النصر ..

ضوء الحقيقة

★ ★ ★

عملية خط النار..

هطلت الأمطار في غزارة غير مسبوقة ، في تلك الليلة من ليالي الشتاء ، في بداية السبعينات ، وراح متسوب المياه يرتفع تدريجياً في الشوارع ، على نحو بادر باضطرابات مقلقة ، في حركة المرور والاتصالات وتسرب القلق إلى قلوب سكان (القاهرة) وشوارعها التي خنت من المسارة تقريبا . بعد ان انمحب الجميع إلى منازلهم ، واختفوا تحت الأعطية السمكة . في محاولة لتقاء البرد القارص والأمطار المستمرة فيما عدا هؤلاء الرجال .

عدد من خيرة ضباط المخابرات العامة المصرية . لم يلتفتوا إلى البرد أو المطر . أو لم يشعروا حتى بوجودهم حولهم ، وهم مهتمون في دراسة ومراجعة وإقرار أضخم وأطول عملية خداع في تاريخ العمل المرمي .

كانوا يتفنون كى السعومات الممكنة عن العدو الاسرائيلي ، وتحيزاته . وحظته . وعملياته . وبضعون كمل هذا أمامهم على مقدمة البحث . ويقتنونه فحصا ودراسة ومناقشة ، قبل ان يتوصلوا إلى وسيلة مثلى للتعامل معه . والنصدي له ، لو لزم الأمر

وعلى الرغم من أن عقارب الساعة كانت تشير إلى الثانية



بعد منتصف الليل ، ومن أن الرجال يواصلون اجتماعهم هذا منذ العاشرة صباحاً ، ودون انقطاع تقريباً ، إلا فيما ندر ؛ لتناول وجبة طعام بسيطة ، أو قدح من القهوة أو الشاي ، إلا أن مناقشاتهم ظلت محتدمة ، وأفكارهم غرقت حتى النخاع في موجة من الحماسة والحسم ، ولم يقطعها إلا وصول زميل لهم ، وهو يقول في توتر ملحوظ :

- وصلتنا برقية عاجلة من عميلنا في القيادة الإسرائيلية .

كان هذا العميل من الأهمية والخطورة ، بحيث إنه لم يكذ الزميل يذكر اسمه ، حتى هوى على الجميع صمت تام ، وتطلعت عيونهم إلى زميلهم ، يطل منها مزيج من الاهتمام واللهفة والترقب والقلق والتساؤل ، مما جعله يضيف بسرعة :

- لقد طلبت من قسم الشفرة ترجمتها على الفور ، ووجدت أنها عبارة عن رسالة حماسة مختصرة .. الإسرائيليون أنشئوا خطاً للنيران ، بطول الشاطئ لقدة السويس .

كان الخبر مبالغاً للغاية ، حتى إن الجميع حدقوا في وجهه لحظة ، استمر خلالها ذلك الصمت الثقيل ، قبل أن يهتف أحدهم :

- أهذا خبر أكيد أم مجرد شائعة ؟

هز زميله رأسه في بطل ، وهو يجيب :

- هذا ما ينبغي السعي للتأكد منه .

تبادلوا نظرة صامتة ، حملت كل ما اشتعل في أعماقهم من قلق وتوتر ، قبل أن يميل آخر :

- هل لرمل عميلنا أية تفاصيل ؟

أجابه زميله بسرعة :

- إنه يسعى للحصول عليها .

كان الخبر مبالغاً ، والفكرة تستحق القلق .

ولكنها ليست جديدة أو مبتكرة .

ففكرة إشعال النار في القناة فكرة قديمة ، ابتكرها مجبور من ضباط المخابرات البريطانية ، يدعى (جون بيكر هوايت) ، في صيف ١٩٤٠م

ففي تلك الفترة ، كان (بيكر) ممنولاً عن الحرب النفسية ضد القوات العسكرية الألمانية ، التي تستعد لغزو (بريطانيا) ، فصار إلى خليج (سانت مارجريت) بالقرب من (دوفر) ، للاطمئنان على التواجد الأمني البريطاني هناك .

وعندما وصل (بيكر) إلى المكان هوى قلبه بين قدميه . لقد كان الشاطئ تحت حماية قصيلة واحدة من حملة للبنادق ، لديها مدفعان من طراز (برين) ، ومدفع ألى واحد من طراز (فيكرز) ، أما المدفعية المساعدة ، فتتكون من عدد قليل من المدافع الفرنسية القديمة ، من عيار ٧٥ مم ، ولكل مدفع عشر طلقات قصص .

وكان من الواضح أنه لو اختار الألمان هذه البقعة للغزو ،
قلن يعضى أسبوع واحد ، إلا ويرتفع العلم النازى على القصر
الملكى فى (لندن) .

وفى نفس اللحظة ، التى تسرب فيها اليأس والأسف إلى
قلبه ، وقع بصره على مشهد مذهش .

أبواب بها ثقوب ، تمتد بطول الشاطئ ، وعلى مسافات
منتظمة من بعضها البعض . وخلف هذا الخط خزانات الوقود .
وطلبعات تدفع البترول وزيت الوقود إلى الأبواب ، التى تبدو
أشبه برشاشات الحدائق ، وهى ترسل السنة الذهب طوال
الوقت ..

وانصف ساعة كاملة . وقف (بيكر) يراقب ذلك المشهد
دون أن تبدر عنه حركة واحدة ، ثم اتصرف والمشهد محفور
فى ذهنه ، يابى أن يفارقه فى غدا واصرار ..

وطوال طريق عودته إلى (لندن) ، لم يفارق مشهد السنة
الذهب رأسه قط وإنما امتد وتواصل ، ليرسم فى عقله مشهدا
خرافيا ، للنيران وهى تشتعل على سطح البحر نفسه ، لتصنع
الصورة نفسها ، التى وضعها (تينسون) ، والتى وصف فيها
(بريطانيا) بأنها أبراج عائمة ، تحيط بها النيران من كل جانب .
وعندما وصل إلى (لندن) ، كانت الفكرة قد اختمرت فى
رأسه تماما ، وملأت كيانه كله ، وتحولت إلى خطة لنشر الفرع
والقلق ، فى صفوف القوات الألمانية ..

وقدم (بيكر) فكرته إلى الخبراء ، الذين أكدوا إمكانية تنفيذ
مثل هذا الأمر ، من الناحية النظرية ، واستحالة تحقيقه عمليا ،
لنقص الموارد وضعف الاقتصاد ، فى زمن الحرب .

وكان هذا كل ما يحتاج إليه (بيكر) ، الذى اكتفى بإطلاق
شائعة ، تقول : إن (بريطانيا) قد أحاطت سواحلها بأبواب من
الوقود ، يمكنها ضخه إلى سطح البحر ، لإشعال النيران فيه ،
وحرق كل من يحاول غزوها .

ولاقى الشائعة آذانا صاغية فى (ألمانيا) ، حتى إن الألمان
أجروا تجربتين للتأكد من صحة الأمر ، الأولى فى (فيكومد)
فى (نورماتدى) ، والثانية فى (بروسيا) الشرقية .

وجاءت النتائج لنضاعف قلق وفزع الألمان ، وخاصة عندما
حاولوا التغلب على السنة الذهب بتغطية القوارب بالاسبستوس ،
ودفعها وسط النيران ، قالتهمتها بلارحمة

ولأن الألمان لم يدركوا أن الأمر ليس سوى شائعة ، فقد
تراجعوا تماما عن فكرة غزو (إنجلترا) ، بأمر مباشر من
(أدولف هتلر) ، فى التاسع من يناير ١٩٤١ م .

وبهذا خسر الألمان فرصة عمرهم لغزو (بريطانيا) .

وهذا ما كان يخشاه رجال المخابرات المصرية .

أن يكون الأمر مجرد شائعة .

وفى سبيل التيقن من هذا ، نشط عملاء وجواسيس

المخابرات العامة ، قى مراكز القيادة الإسرائيلية ، وبين صفوف الجيش ، وحتى فى خط (بارليف) نفسه لجمع كل ما يمكنهم من صور ووثائق وخرائط وتصميمات وأقوال ، وحتى الشائعات لتغذية المخابرات بسيل من المعلومات التى هى عصب العمل فى هذا العالم السرى الغامض .

ولم يمض شهر واحد ، حتى كان الرجال على يقين من أن الإسرائيليين قد أنشأوا خط النار هذا بالفعل ، وأن الأمر ليس مجرد شائعة .

بل وحصلوا على رسم دقيق للإبشاءات أيضا ، وعينة من السائل الملتهب ، الذى تضخه الأنابيب .

لقد تم تصميم ذلك الخط ، بحيث يمكن ضخ مزيج من النابالم ، والزيوت السريعة الاشتعال ، والكبروسين ، بطول امتداد القناة ، على سطح الماء ، من خلال عدد كبير من الصهاريج المضخمة ، لها صمامات تتحكم فيها طلمبات ضخ ماصة كلبسة ، يخرج منها خط من الأنابيب ، بقطر سم بوصة ، تنتهى بفتحات تحت سطح الماء ، فى كل المواضع الصالحة لعبور قناة (السويس) .

وكان هذا الأمر يبلغ الخطورة بالفعل .

فلو استخدم الإسرائيليون هذا الأسلوب ، فى أثناء عملية العبور ، وأشعلوا النار فى سطح الماء ، لأسفر هذا عن خسائر

فادحة رهية ، ربما التهمت أكثر من ٩٠ ٪ من الموجة الأولى ، وأكثر من ٧٠ ٪ من الموجات التالية .

وجلس الرجال حول مائدة البحث والدراسة ، لمناقشة هذا الأمر الخطير ، وقال أحدهم فى توتر ملحوظ :
- من الضروري أن نختبر الأمر أولاً . قبل أن نتخذ قراراً بشأه .

سأله أحدهم فى اهتمام :

- هل تقترح إجراء تجربة عملية ؟

لوح بده ، وهو يجيب :

- ولم لا ؟! على الأقل سنعرف كيف تكون النتائج .

وبالفعل ، وبناء على هذا رأى ، الذى اتفق عليه الجميع ، أجريت تجربة عملية ، باستخدام خليط بالنسب نفسها ، فى منطقة بعيدة عن العمران ، على مياه النيل ، وأشعلت النيران ، و ...

وجاءت النتائج مفزعة .

لقد وصلت درجة حرارة السطح ، بعد إشعال النار ، إلى مئعمائة درجة مئوية ، مما يعنى أن الأمر خطير بالفعل ، ويحتاج إلى دراسة طويلة دقيقة متأنية .

ولم تكد هذه الدراسة تبدأ ، حتى استغل الإسرائيليون الشق التفسى لخط النار ، الذى أنشأوه بطول القناة ، وأعلنوا أمره ، لإثارة الفزع والرعب فى قلوب المقاتلين المصريين .

ومن العجيب أن المخابرات العامة لم تحاول التهوين من أمر خط النار وإنما راحت تذيب تفاصيله المخيفة ، وكأنها تعطن بأسسها من إيجاد حل لها ، واستسلامها لروح اليأس ، واعتبارها أن عملية العبور مستحيلة .

وابتسم الإسرائيليون في زهو ، وهم يجمعون معلوماتهم عن ردود فعل المصريين ، وأدركوا أن خط الجحيم هذا يستحق كل شيكل أنفقوه على إنشائه ، بعد أن أتى بثماره المعنوية والنفسية .

ولكن رجال المخابرات المصرية كانوا يضمرون في نفوسهم أمراً آخر .

ففي غمرة تظاهرهم باليأس والاستسلام ، أطلقوا واحداً من أهم وأخطر عملاتهم السريين ، ففى قلب الكيان العسكرى الإسرائيلى ، للبحث عن تصميمات ومواضع أنابيب الذهب ، المخيفة تحت سطح الماء .

ومنذ اللحظة الأولى ، أدرك ذلك العميل أهمية وخطورة مهمته الجديدة ، خاصة وأن الرحال فى (القاهرة) طلبوا منه التخلّى عن أى أمر آخر ، والتفرغ تماماً لهذه المهمة ، والسعى للعثور على خريطة النار ، مهما كان الثمن .

وكل من عمل ، أو ارتبط ، أو حتى اتصل بشكل أو بآخر بجهاز المخابرات العامة المصرية ، يدرك جيداً ما الذى تعنيه عبارة (مهما كان الثمن) فى نهاية التكليف .

إنه يقضى أن كل الوسائل مشروعة ، ومسموح باستخدامها ، وأن التقاعس أو التراجع ، أو حتى التردد ، أمر غير مقبول ، بأى شكل من الأشكال .

ومن هذا المنطلق ، بدأ العميل تحركاته .

لم يكن الأمر سهلاً ، إلا أنه أدى واجبه بكل صدق وإخلاص ، والتزم بمصريته حتى آخر لحظة ، وهو يقيم الروابط ويعقد الصداقات فى براعة وحكمة ، مع عدد من قادة الجيش ، من خلال طبيعته المرحية ولباقته ، وسخائه الواضح ، غير المألوف فى المجتمع الإسرائيلى .

وبعد ثلاثة أشهر تقريباً ، نجح ذلك العميل فى الوصول إلى الجنرال (شمويل جونين) قائد جبهة (سيناء) ، وجمعهما صداقة وثيقة ، شعر معها الجنرال الكهل بالارتياح لأول مرة ، حتى إنه لم يعد يجد أى حرج فى التحدث مع صديقه الجديد عن مشكلاته ومتاعبه ، ولا فى أن يتبادل معه أطراف الحديث لماعات وساعات ، فى أيام السبت أو فى سهرات العطلات والمناسبات الرسمية .

وكان من الطبيعى أن تتناثر كلمات متفرقة ، من بين شففى الجنرال ، خلال حوار مخمور ، أو حديث طبيعى عابر . وكان على العميل أن ينقل كل هذه الكلمات مهما بدت له تافهة ، إلى القيادة فى (القاهرة) ، حيث يقضى الرجال

ساعات وساعات في ترتيبها ، وتوضيها ، وربط بعضها ببعض ، تماماً كلعبة البازل ، التي ينهك في حلها الصغار والكبار ، ويقضون جل وقتهم في البحث عن القطعة الناقصة ، ليكتمل المشهد كله في النهاية .

ثم فجأة ، وصلت من ذلك العميل برقية بالغة الخطورة ، فطلب منه الرؤساء أن يتوجه على الفور إلى (روما) ، حيث سيلتقى به أحد الرجال ، للحصول على ما لديه من وثائق أو معلومات .

وعلى الرغم من النتائج الرهيبة ، والعواقب الوخيمة ، التي يمكن أن تترتب على كشف أمره ، غامر العميل بالسفر إلى (روما) ، وهو يحمل في جيبه وثيقة واحدة ، يكفى العثور عليها لقتله فوراً وبلا رحمة .

وفي (روما) سلم العميل تلك الوثيقة لرجل المخابرات المصري ، التي لم يكذب بلقى نظرة عليها ، حتى رقص قلبه بين ضلوعه ، وهرقت عيناه في ظفر ، حتى كاد ضوؤهما يغمر الشارع كله ، في منتصف الليل الإيطالي البهيم .

لقد كانت الخريطة المنشودة .

خريطة خط النار .

والآن ، ولأول مرة صارت للمخابرات العامة على علم بموضع كل فتحة . من فتحات أنابيب النابالم .

والآن فقط ، أصبح من الممكن وضع خطة حاسمة للتصدي لخط النار ، وإنهاء فاعليته في الوقت المناسب .

وفي مبنى المخابرات ، صنع الرجال خريطة مجسمة ضخمة ، لمنطقة القناة ، وتوزيع أنابيب النابالم فيها ، وأعادوا دراسة الموقف للمرة العاشرة ، وقال المدير في اهتمام :

- المشكلة لا تكمن في إبطال فاعلية الخط فحسب ، وإنما في أن يحدث هذا في الوقت المناسب ، بحيث يصبح العدو عاجزاً عن إصلاحها ، عندما يبدأ الهجوم الشامل ، ويستعد الجنود لعبور قناة (السويس) .

كان قول المدير هو الهدف ، الذي سعى الرجال لدراسة وتحقيقه ، طوال الفترة التي تلت هذا ، وحتى صباح السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ م .

لقد أقيم أكثر من نموذج ، لمناطق أنابيب النابالم ، في مناطق بعيدة تماماً عن العمران ، وموضوعة تحت حراسة خفية مشددة ، وتم تدريب عدد من رجال الضفادع البشرية على التعامل معها ، بالإضافة إلى عدد آخر من رجال الكماندوز .

وبعد أشهر طويلة في التدريبات والاختبارات المتوالية ، حلت لحظة المواجهة الحقيقية ، في الساعات الأولى من صباح يوم المعركة ، وقبل أن تبدلح حرب أكتوبر ببضع ساعات محدودة .

ففى ذلك الوقت تسنتت محموعتان إلى منطق الأنابيب قامت الأولى بقطع خراطيم المصنخات المصصة الكامسة ، فى حين تولت الثانية سد فتحات الأنابيب بئداس حصة ، ذات قدرة على التصليب السريع .

وعلى الرغم من حطورة انقبام بعمليتين انتحاريتين فى ان واحد إلا أن هذا الأمر كان حتمياً ، إذ إن ازدواج الوسيلة يودى إلى تأخير العملية بشكل مطلق ، وإذا إن كشف تلف المصنخات سيربك العدو وميفعه إلى بذل الجهود المصنية لاصلاحها . دون أن يدرك أنه لا طبل من وراء هذا ، ما دامت فتحات الأنابيب نفسها مسدودة .

عندما بدأت عملية عبور قناة (لسويس) فعياً ، فى الثانية وخمس دقائق ، بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م . هرول الإسرائييون إلى أجهزة صخ النبالم ، ليعمروا مباه القناة بالمزيج الملتهب ، وإشعال النار فى المصريين بقوارهم المطاطية وحماسهم المقطع النظير وهدفهم الذى يرح (ميناء) كلها (الله أكبر) إلا أنهم فوجئوا بأن هذا لم يعد ممكن . لقد توقفت الأجهزة عن العمل وفقد خط النار دأليه

ولعل أكثر من تلقى الصدمة هو الجنرال (شمويل حونين) نفسه الذى روى لاصدق أصدقائه فيما بعد ، وهو عميل المخابرات المصرية نفسه . أن وزير الدفاع الإسرائيلى (موسى ديان)

قد وبخه أشد التوبيخ . على فشله فى تشغيل أجهزة النبالم . وقال له بالحرف الواحد :

- لو أننى طوعت نفسى لتصفت رأسك برصاصتى فى الحال

وربما فعل (ديان) هذا ، لأنه كان يجهل أن الأمر لا يعود إلى فشل جنراله . وإنما إلى نجاح رجال المخابرات المصرية ، الذين سجنوا بجهودهم واجتهادهم اسطورة التفوق الإسرائيلى ، وحطموا أقوى خطين فى تاريخ العسكرى كله

خط (بارليف) .. و ...

وخط النار .

* * *

دماء الشهيد ١٠٠١

اشتعلت نيران الحرب فجأة ، في ظهر الساعات من أكتوبر ،
عام ١٩٧٣ . وانطلقت طائراتنا المقاتلة ، في تناسق بديع ،
تدك حصون العدو ، في خط (بارليف) ، وتطارده مدرعاته ،
وقوافل ميارته ، التي تسعى للفرار ، وتنسفها بنيرانها في
مهارة لثارت دهشة العدو قبل الصديق ، ووسط ذلك في النيران
الملتهبه في كل مكان ، انطلقت ميازة عسكرية مصرية ، تعبر
أحد الجسور المؤقتة ، التي أقامها سلاح المهندسين ، وعلى
متنها ثلاثة من الرجال ، يرتدون ثيابا مدنية ، أثارت دهشة
ضباط وجنود الجيش ، في ذلك الموقف الدقيق ، واعترض
بعضهم طريقها بالفعل ، ولكن أحد المدنيين الثلاثة أبرز أوراقه
في لهفة واضحة ، وبدا من الواضح أن تلك الأوراق تخص
الكثير ، فلم يكد للضابط بطالعهما ، حتى أعادهما إلى المدني
بسرعة ، ولدى له التحية العسكرية في احترام ، وهو يقول :
- ما الذي يمكنني أن أقدمه لك ، في مثل هذه الظروف
يا سيدي ؟

سأله المدني في لهفة واضحة :

- أبحث عن قافلة من السيارات الإسرائيلية العسكرية ، على
مصافة عشرة كيلو مترات من الشاطئ :



دماء

الشهيد ١٠٠١

حديق الضابط في وجهه بدهشة ، قبل أن يقول :

- قافلة سيارات إسرائيلية^{١٤} يبدو أنك تجهل ما آل إليه الأمر ،
في تلك المنطقة يا سيدي . لقد تحولت إلى قطعة من الجحيم بل
هي الجحيم نفسه كيف تتوقع وجود أحياء ، في مثل هذه الظروف ؟

قال المدني في عصبية :

- ستكون كارثة ، لو أن الأمر صار إلى ما توحى به .

هتف الضابط بدهشة أكبر :

- كارثة^{١٥} ! هل تعتبر تدميرنا لقافلة سيارات عسكرية إسرائيلية
كارثة^{١٦} !

زفر المدني في توتر ، ثم التفت إلى قائد السيارة ، وسأله :

- هل يمكننا استدعاء هليكوبتر ؟

أجاب السائق ، الذي يحمل رتبة عسكرية محدودة :

- أعقد أنه يمكننا هذا .

وفي ظروف الحرب الطاحنة ، لم يتمكن المدنيون الثلاثة من
استخدام الهليكوبتر ، قبل الخامسة مساء ، واستغرقوا نصف
ساعة من الطيران المتصل ، حتى لمحوا قافلة السيارات
العسكرية الإسرائيلية المدمرة ، فهبطت الهليكوبتر إلى جوارها ،
وقفز منها المدنيون الثلاثة ، واندفعوا نحو جثث الإسرائيليين ،
وراحوا يفحصونها بمنتهى الدقة والاهتمام ، حتى وصلوا إلى

جثة بعينها ، ولم يكد أولهم يلقي نظرة على وجه صاحبها ، حتى
اغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يغمغم بصوت مختنق :

- إنه هو .

ألقي الاخران نظرة معائلة على الجثة ، ثم أشار أحدهما إلى
جنديين ، حملا صندوقا كبيرا من الهليوكوبتر ، ونقلوا إليه الجثة ، ثم
لفاه بعلم (مصر) في حرص ، فهتف قائد الهليوكوبتر في دهشة :

- ماذا تفعلون ! إنكم تعلمون حثة هذا الإسرائيلي باحترام عجيب .

التفت إليه أحد المدنيين الثلاثة ، وقال في حدة :

- إنه ليس إسرائيليا .

ثم عاد يتطلع الى الصندوق الملفف بعلم (مصر) ، وهو
يمتطرد في حزن :

- إنه شهيد الشهيد المصري البطل (عمرو طلبية)

وكانت مفاجأة مذهلة ..

بعد الحاح الواضح ، الذي حففته عملية زرع العميل
المصري (رفعت الجمال) ، في قلب المجتمع الإسرائيلي ،
تحت اسم (جاك بيتون) ، بدأ رجال المخابرات المصرية
في التفكير جديا ، في إعداد عميل آخر ، يمكنه الغوص في قلب
إسرائيل ، والوصول إلى جيش الدفاع ، باعتباره مواطنا

إسرائيلياً ، بحيث لا يطلب منه أى شيء قط ، حتى يستقر ويتغلغل فى الجيش الإسرائيلى تماماً ، وتحين لحظة الاحتياج إليه ..

وفى صيف عام ١٩٦٨ م ، بدأت عملية فرز لمجموعة من الشباب ، يتم تدريبهم فى قسم خاص ، فى مدرسة المخابرات ، يحمل الرمز (٣ ج ١) ، وهذا القسم له طابع خاص جداً ، إذ إنه من المحظور على الطلاب فيه أن يتحدثوا بلغة لغة ، بخلاف اللغة العبرية . حتى فى أحاديثهم الهاتفية الداخلية ، ولا يتعاملون فى (الكافيتيريا) إلا باللغات الإسرائيلية ، ويشاهدون الأفلام والبرامج الإسرائيلية ثلاث مرات فى الأسبوع ، كما ترتفع فى طرقات المبنى لافتات وإشارات مرور عبرية ، وعلى نفس النمط المستخدم داخل (إسرائيل) نفسها ..

باختصار ، كانت مهمة هذا القسم الخاص جداً ، هى إعداد الجواسيس ، للعيش والتعامل فى قلب (إسرائيل) ، دون أنسى خطأ ، ودون أن تحيط بهم الشكوك لحظة واحدة .. ومن بين الشبان ، الذين يتم تدريبهم فى هذا القسم ، وقع الاختيار على (عمرو طلبه) بالتحديد ..

وفى ذلك الوقت ، كان (عمرو) شاباً فى العشرين من عمره ، طويل القامة ، وسيم ، جميل الملامح ، واضح الرجولة ، لائق الملبس ، يمتلك ابتسامة ساحرة ، لا يمكنك إلا أن تلتفت

إليها ، وتشعر معها بالثقة والارتياح ، ويقال إن والده كان أحد كبار ضباط الجيش ، أو أحد الشخصيات العامة ، ولكن هذا لم يكن السبب الرئيسى فى اختيار (عمرو) بالذات لهذه المهمة ، أو حتى أحد أسباب هذا الاختيار ، وإنما الواقع أن (عمرو) كان طالباً مجتهداً فى القسم (٣ ج ١) ، يستوعب دروسه بسرعة ، ويمتلى بالحماسة والوطنية ، ويتوق ويرحب بالمغامرة ، وينتظرها فى لهفة ..

ووضع رجال المخابرات (عمرو) تحت المنظار - على حد تعبيرهم - وراحوا يتابعون تطوراتهم فى اهتمام ، حتى اجتاز اختبارات المعقدة بنجاح كبير ، فى مارس ١٩٦٩ م ، وأثبت موهبته وتفوقه فى هذا المجال ، فتقرر إيفاده بأقصى سرعة إلى (إسرائيل) ، وبدأت عملية البحث عن سائر مناسب ، لتغطية العمل ، وصنع تاريخ منطقى له . وكان الحظ فى خدمتهم هذه المرة ..

لقد وصلهم إخطار بوفاة يهودى مصرى فى (طنطا) ، يدعى (موسى زكى رافع) ، وأثبتت تحرياتهم أن (موسى) هذا كان فى عمر (عمرو) تقريباً ، ويمثله فى الطول والوصامة . كما أنه ولد فى حارة اليهود القرائين ، وكان والده (زكى رافع) تاجر علويات قديمة ، يقضى معظم وقته فى شوارع وأزقة القاهرة لشراء وبيع بضائعه ، ثم يعود فى آخر الليل إلى

منزله المتواضع ، ليبدأ الأركان بما عثر عليه واشتراه . ويبدأ في فرزها ، استعداداً لرحلة اللغز ..

وضاق (موسى) الطفل بتلك الحياة ، وبالأكوام القديمة ، التي تفوح منها الروائح السخيفة ، في كل ركن من أركان المنزل ، خاصة وهو يحيا في المنزل وحيدا ، بعد وفاة أمه ، واتشغال والده الدائم عنه ..

وذات يوم ، جمع (موسى) حوائجه القليلة ، وهرب من المنزل ، واختفى تماما ، وراحت النسوة يتحصرن على جماله وذكائه ، ولكن أحدا لم يستطع الاهتداء إليه ، حتى والده ، الذي هذه الحزن على ولده الضائع ، فتوفي بعد اختفائه بثلاثة أشهر . ولم تعثر الشرطة على أقارب له ، فتم دفنه في مقابر الصدقة ، واستولت الحكومة على ميراثه القليل ..

أما (موسى) نفسه ، فقد سافر صغيرا إلى مدينة (طنطا) ، حيث تنقل بين عدد من المهن والأعمال الوضيعة ، حتى لمستقر في عمل يدوي بشركة الزيوت والصابون ، ثم حصل على عمل في شركة لنقل البضائع في شارع البحر ، ولكنه لم يلبث أن أصيب بمرض صدرى ، مع الإرهاق وسوء التغذية ، فقضى نحبه في هدوء ..

وهنا بدأ نسج الشخصية الجديدة التي سينحتها (عمرو) ، الذي حفظ تاريخ (موسى زكى رافع) عن ظهر قلب . وذهب

في السادس من إبريل إلى حارة اليهود ، ليبحث عن المنزل رقم (١٩) ، ويبحث عن والده المزعوم (زكى رافع) ..

وأجاد (عمرو) دوره إلى حد كبير ، وهو يسأل الجيران في لهفة عن والده ، ويبحث في إصرار عن يده عليه ، حتى التقى بصاحب المنزل ، الذي أخبره أن (زكى رافع) مات بعد رحيله ، فانهار (عمرو) في واحد من أبرع أدواره ، وراح يبكى في تأثر ، حتى إن صاحب المنزل تفاعل معه ، وأخذ يواسيه ، ويعزيه في وفاة والده منذ عدة سنوات ..

وعلى الرغم من أن متعلقات الأب لم تكن تساوى شيئا يذكر ، إلا أن (عمرو) بذل جهدا خرافيا ، ودار في ساقية الروتين عدة أيام ، حتى أمكنه استعادتها ، وهي لم تكن تزيد على بضعة حبيبات ، وبطاقة شخصية ، وصورة لدنفل صغير

وفي أواخر مايو ، من العام نفسه ، حصل (عمرو) على وثيقة سفر صحيحة ، باسم (موسى زكى رافع) ، وسافر إلى (كوالالمبور) ، وهناك بذل كل جهده للحصول على عمل ، إلا أنه لم يوفق في هذا قط ، وقضى شهرين كعاطل ، وهو يتردد بصفة منتظمة على مقهى (هنج كى) ، وهناك تعرف بحارا إسرائيليا دائم السكر . يدعى (صادوق) ، راح يغريه بالتهرة إلى (إسرائيل) ، و (عمرو) يبدى ترددا ، حتى أعلن موافقته أخيرا ، ووصل في أحد أيام أغسطس إلى (حيفا) ،

حيث سجل اسمه كمهاجر جديد ، وسجله في مكتب المهاجرين التابع للوكالة اليهودية ، وقضى أسبوعين يحوّل في أنحاء (إسرائيل) ، ثم بدا وكأن الحال لم يرق إليه هناك ، فتطلق إلى (أثينا) وغاب فيها ستة أشهر ، ثم عاد فجأة إلى (إسرائيل) ، ليستكمل إجراءات الهجرة ..

وعلى الرغم من أنه من الواضح أن (عمرو) لم يقض تلك الأشهر الستة في السياحة أو العبث في (أثينا) ، إلا أن أحدا لم يفصح قط عما فعله هناك ، أو عما تلقاه من تدريبات إضافية ، ولكن المهم أن (عمرو) اجتاز في النهاية كل الإجراءات والاستجوابات ، الخاصة بالمهاجرين الجدد ، وأصبح مهاجرا رسميًا في قلب (إسرائيل) .. وطوال الشهر التالي ، تلقى (عمرو) عدة دروس ، في مدرسة خاصة لتعليم اللغة العبرية ، على الرغم من أنه لم يكن يحتاج إلى هذا ، ثم رحل إلى (القدس) بحثًا عن عمل مناسب ، وهناك حصل على وظيفة إدارية في مستشفى (أتينم) ، حتى يقضى نهاره كله في العمل ، ويقضى ليله نائمًا على مقعد قديم ، في ركن المطبخ ..

ومع أسلوبه المهذب ، وبساطته الجذابة ، ربطته الصداقة بطبيب يهودي أمريكي المولد ، أشفق عليه ، فنقله للعمل كمساعد له ، وسمح له بالإقامة في غرفة ملحقة بجراج منزله رقم (١٣) في شارع (أحاد هاعام) ، وسط ضاحية (تلبيا) في (القدس) ..

وشعر (عمرو) بارتياح كبير ، وهو يعمل مع الدكتور (مورتن) ، الذي اتخذ منه صديقًا يأنس إليه ، ويغدق عليه المنح والمكافآت ، كلما منحت الفرصة .. ولكن دوام الحال من المحال ..

لقد أنهى الدكتور (مورتن) عقده مع المستشفى ذات يوم ، وحصل على وظيفة أكبر في مستشفى متواضع ، في أقصى الشمال ، بضعف مرتبه تقريبًا ، فرحل إلى هناك ، وترك خلفه (عمرو) ، الذي رحل بدوره إلى (تل أبيب) ، بحثًا عن عمل آخر ، في أواخر عام ١٩٧٠ م ..

وفي (تل أبيب) كان لوسامة الفتى الفضل الأكبر ، فيما حصل عليه من عمل ، فقد وقعت في غرامه ناشرة (إسرائيلية) ، تدعى (شوشانا بيرسولتز) ، ومنحته وظيفة كاتب حسابات في دار (أوماتوت) للنشر التي تملكها - وقررت أن تحصل منه على وسامته وشبابه في المقابل ، حتى ظهرت أخرى ، لتنافسها فيه ، وهي عضو (الكنسيت) (سوناتا فيرد) ، زوجة الدكتور (لينتال) ..

ونقد لمحت (سوناتا) (عمرو) مرة واحدة ، وقررت أن تحصل عليه ، فأكثر من تردها على دار النشر ، بحجة مناقشة (شوشانا) في أمر لجنة التربية ، التي تعمل الأخيرة كمقررة لها ، ولكن (شوشانا) انتهت لهدفها الحقيقي ،

وتشاجرت معها علانية . فما كان من (عمرو) . الذى درس الموقف جيدا . إلا أن انصرف مع (سوناتا) . وأعلن هجره للعمل مع (شوشانا) . وقطع كل علاقته بها .

وقبل أن تتعم (سوناتا) بانتصارها . تم استدعاء (موسى) . أو (موسى) - كما تنطق فى (إسرائيل) - لخدمة الخدمة العسكرية . وليقضى الفترة الإجبارية كجندى فى جيش الدفاع الإسرائيلى ..

وكان هذا هو الهدف الرئيسى . الذى كان يسعى اليه (عمرو) . منذ وطأت قدماه أرض (إسرائيل) . وعلى الرغم من هذا . فقد ظن من (سوناتا) أن تتوسط له . مستغلة موقعها كعضو فى (الكنيسة) . وصادقتها لأصحاب النفوذ . حتى لا يتم إرساله إلى خط المواجهة ..

ولم تتردد (سوناتا) لحظة . فلم تكن مستعدة أبدا لإبعاد صديقها الحميم عنها . ونجحت وساطتها . فبقى (موسى) فى (تل أبيب) . وتم تجنيده فى إدارة الرقابة البريدية العسكرية .. وكان هذا أكثر مما يحلم به (عمرو) ..

لقد أصبح من حقه أن يطلع رسميا . على كل ما يحويه البريد العسكرى الإسرائيلى من أسرار وأخبار .. وابتسم الرجال فى (القاهرة) فى ارتياح .

لقد حققوا ما كانوا يسعون إليه منذ البداية . ووضعوا أرجلهم على أول الطريق . وحانت لحظة التخطيط لدفعه إلى

الموقع الأكثر فائدة . والاستفادة من وجوده فيه إلى أقصى حد . خاصة وأنه قد أصبحوا فى بدايات عام ١٩٧٢ م . حيث بدأ العد التنازلى والاستعداد للمنظم الدقيق لحرب أكتوبر ..

وفى منتصف عام ١٩٧٢ م . وصلت إلى (موسى) عربة صغيرة من الجلد تحوى طاقما حديثا أتيا من أدوات الحلاقة . ولكنه لم يكذب تسلمه . حتى استعداد كل ما تلقاه من تدريبات ودروس . فى القسم (٣ ج ١) . وراح يستخرج من طاقم الحلاقة أجزاء جهاز لاسلكى دقيق . مستاه فى الصغر . وأخذ يعد تركيبه فى سرعة ومهارة . ثم استخدم عذمة مكبرة . لقراءة الشفرة السرية . التى تمت كتابتها بدقة مذهلة . على شفرات الحلاقة ..

ومنذ ذلك الحين . أصبح (عمرو) يحمل الرقم الكودى (١٠٠١) . وأصبح عليه أن يبدأ ذلك العمل . الذى تم زرعه فى قلب الجيش الإسرائيلى من أجله ..

ولكن أول أمر تلقاه (عمرو) . أثار دهشته إلى حد كبير . فقد طلبوا منه فى (القاهرة) أن يقوم بعمل استغراقى ضد (سوناتا) . يدفعها للغضب . وللاتنقام منه بأى شكل .

وعلى الرغم من أن هذا لم يرق أبدا للصيل (١٠٠١) . إلا أنه نفذ الأوامر بمنتهى الدقة . وأثار غضب (سوناتا) فى عنف . حتى إنها صرحت فى وجهه . وطردته من منزلها . وهددت بالانتقام منه ..

ولقد حولت تهديدها هذا إلى واقع بسرعة مذهشة ، فلم يمض أسبوع واحد ، حتى تم نقل (موشى زكى رافع) بصورة تعسفية ، من (تل أبيب) . للعمل كرفيق للبريد فى مركز العمليات المقام فى (أم مرجم) على الجبهة مباشرة ..

وفى نفس اللحظة التى كانت (سوناتا) تبتسم فيها فى تشف ، لما فعلته بصديقها السابق ، كان هذا الصديق يستخدم اللامسكى الدقيق ، ليرسل إلى (القاهرة) فيضاً من المعلومات التفصيلية الدقيقة .. عن جبهة القناة ، ووحدات الجيش الإسرائيلى هناك ، ومراكز قيادتها ، وأسماء الضباط والجنود ، ومواقع الأسلحة والمدفعية والمدرعات ، بل ويبلغها بالأوامر السرية أولاً فلولاً ، مما يفحص فى البريد بحكم موقعه ..

وكان الرجال فى (القاهرة) يتلقون للمعلومات التى يرسلها (عمرو) أولاً فلولاً ، ويقومون بتحليلها وتنسيقها ، وإرسال التقارير إلى قيادات الجيش والقيادات السياسية ، التى تعيد دراستها ، وتضعها فى الاعتبار ، وهى تخطط وتستعد لشن الحرب الحاسمة ، فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ م ..

وفى الثانية إلا خمس نطلق بالتحديد ، من ظهر السادس من أكتوبر ، تلقى (عمرو) رسالة من القيادة فى (القاهرة) ، يطالبه فيها الرؤساء بالتوجه إلى المبنى الخشبي . الذى تحتله النقطة الطبية فى الموقع (أم مرجم) ، حيث إنه مقام على

مرتفع يبعد مائتى متر عن غرفة العمليات ، التى كانت أحد الأهداف الرئيسية لغارات الطيران المكثفة ، فى لحظة نشوب الحرب ..

ولكن (عمرو) لم يستطع تنفيذ الأمر لسبب ما ، أو أنه شعر أن المعركة على الأبواب ، وقرر أن يواصل دوره حتى النهاية ، مهما كان الثمن ..

واندلعت الحرب ، وألقى (عمرو) الشفرة جانباً ، وكأما لم يعد يعنيه كشف أمره ، وأرسل إلى (القاهرة) ، بنتائج التدمير ، الذى لحق بغرفة العمليات ، فى الثانية والنصف ، ثم أبلغهم بأنه تلقى أمراً مع جماعة البريد ، للانتقال إلى المواقع الأمامية ، وكان ذلك فى الثالثة إلا الربع ، وعاد يعلن أن قافلة السيارات تتعرض لقصف شديد ، فى الرابعة والنصف ، ثم قال إن قافلته تتجه نحو القطرة شرق ، وأنه سيرسل المزيد من المعلومات تبعاً ..

ولكن إدارة التجسس لم تكن تطلب منه أية معلومات إضافية ، بل كان رجالها يحثونه فى كل مرة على الانفصال عن الباقين ، والتوجه إلى نقطة آمنة ، حرصاً على حياته ، وحفاظاً عليه ، حتى يتم التقاطه ، إلا أنه أبى أن ينسحب تعاماً ، وقرر أن يهب نفسه للوطن ، حتى آخر لحظة فى عمره ، وآخر قطرة فى حياته ..



وحسان دور النور

وفي آخر رسائله ، قال (عمرو) إنه يرقد على رمال
(سيناء) ، وأن القصف شديد للغاية ، والطائرات المصرية تسحق
أسراب ومدرعات الإسرائيليين سحقاً ..

والعجيب أنه نقل هذه الرسالة بعشرات تفوح منها رائحة
الزهر والطرير والمعاداة ، على الرغم من أن القصف كان ينهال
عليه أيضاً .

وبعد رسالته الأخيرة ، استقر (عمرو طلبية) على رمال
(سيناء) ، وتوقفت رسائله إلى إدارة التجسس ، وصلت دماؤه
الطاهرة ؛ لتروى رمال الوطن ، وهي تحمل توقيع الأخير ،
الذي شطب من الوجود اسم (موشى رافع) ، وحمل التوقيع
الحقيقي ..

توقيع الشهيد ١٠٠١

وحان دور النمسور !

خيم صمت مثير على قاعة الكنيست الإسرائيلية ، في ذلك اليوم في نهاية فبراير عام ١٩٧٣ م ، وتطلعت العيون كلها إلى وزير الدفاع ، آنذاك (موشى ديان) وهو يتنحج ، ويراجع أوراقه ، استعداداً لإلقاء بيان واثق في المجلس ، حول واقعة إسقاط طائرة الركاب المدني الليبي ، والتي قذفتها طائرات الفانتوم الإسرائيلية للمقاتلة بصواريخها ، مما كان له صدى مفعم بالغضب والدهشة والازدراء ، في كل أنحاء العالم المتحضر .

ولثوان أدار (ديان) عينيه في وجوه الجمع ، ثم بدأ حديثه وراح يلقي بيته ، الذي أشار فيه إلى الطائرة الليبية التي قد انحرفت عن مسارها ، نتيجة خطأ ملاحي وتم رصدها وهي على ارتفاع أربعة وعشرين ألف قدم ، فوق مستوطنة (نمين) ، غرب (رأس سدر) وتطير بسرعة سبعة وخمسين كيلومتراً في الساعة في اتجاه الشمال الشرقي ، وذلك في تمام للوحدة وأربع وخمسين دقيقة ، بعد ظهر الأربعاء ٢١ فبراير ١٩٧٣ ، ولقد أوضح الرادار الإسرائيلي مسار الطائرة في الوحدة وست وخمسين دقيقة بالضبط وصدرت الأوامر في تمام للوحدة وتسع وخمسين دقيقة لطائرتين من طراز (فانتوم) ، فاطلفتا نحوها ،

وراحتا تدوران حولها لسبع دقائق ، قبل أن تطلق كل منهما صواريخها نحوها ، وتسقطها في الثانية وإحدى عشرة دقيقة ، على مسافة عشرين كيلومتراً شرق القناة ..

كان بيان وزير الدفاع الإسرائيلي شاملاً وافياً إلا أنه لم ينجح أبداً في إخماد نيران الغضب والازدراء ، التي ملأت النفوس والقلوب ، بسبب هذا الأسلوب الوحشي للفظ وذلك الاستهتار المستفز بأرواح المدنيين الأبرياء وحياتهم ..

وكإجراء طبيعي ، راحت كل الدول والجهات تراجع البيان وعبارته ومعانيه ، وتسمى لدراسته وتحليله واستخلاص ما يحويه ، وقراءة ما بين سطوره .

وبالذات في المخابرات العامة المصرية ..

ففي ذلك المكان ذي الطبيعة الخاصة ، كان التحليل واستخلاص المعلومات يتخذ صورة أكثر أهمية وخطورة ..

لقد عكف فريق من الخبراء على دراسة البيان للحصول على معلومات خاصة ، لم ترد في ذهن وزير الدفاع الإسرائيلي ، وهو بعد البيان وبلقيه .

واستخلص ضباط المخابرات الخبراء أن الرادار الإسرائيلي يحتاج إلى دقيقتين كاملتين ، لتحديد مسار طائرة تسير بسرعة سبعة وخمسين كيلومتراً في الساعة ، وأن قيادة السلاح الجوي الإسرائيلي تحتاج إلى ثلاث دقائق لاتخاذ وإصدار قرار ما ، في ظروف الطوارئ .

وكان هذا أبسط ما يمكن استخلاصه من البيان ، وأول ما تصدر
تقرير المخابرات ، الذي تم إرساله إلى الجهات المسؤولة في هذا
الشأن .

وأعادت هذه الجهات المسؤولة ، وعلى رأسها قيادة القوات
الجوية المصرية ، دراسة هذه النتائج ؛ للاستفادة منها في إعداد
وتطوير خطة أحيطت بأقصى قدر ممكن من السرية وإجراءات
الأمن ..

خطة الضربة الجوية الأولى ، المنتظر حدوثها ، عندما تبدأ
الحرب الشاملة لاستعادة الأراضي التي احتلها العدو الإسرائيلي في
نكسة يونيو ١٩٦٧ .

وفي ارتياح ، راجع أحد ضباط المخابرات كل النتائج
والمعلومات للمرة الخامسة ، قبل أن يسترخى في مقعده ، ويقول
لزملائه :

عظيم .. المعلومات مفيدة بحق ، ولكننا مازلنا نحتاج إلى
المزيد من المعلومات ، عن سلاح الجو الإسرائيلي ، قبل أن
يحين الموعد المنتظر .

وافقه أحد زملائه بإيماءة من رأسه وهو يقول :

بالتأكيد المعلومات لا ينبغي أن تنقطع أبداً ، حتى اللحظة
الأخيرة .

تنهد زميل آخر ، ولوح بكفه قائلاً :

- من حسن الحظ أن لدينا مصدراً دائماً للمعلومات في قيادة
سلاح الجو الإسرائيلي .

لوماً الأول برأسه موافقاً ، واسترخى أكثر في مقعده ،
وارتسمت على شفتيه ابتسامة وثقة ، وهو يسبل جفنيه
مغمضاً :

- نعم .. قلعة (استير) .

وانتقلت عدوى الابتسام إلى الجميع ، عندما أتى على ذكر واحدة
من أفضل عميلات المخابرات المصرية في قلب (إسرائيل) ..
وأكثرهن حماسة ..

و (استير) هذه يهودية من أصل عراقي ، سعى والدها في
شبابه للعمل في مجال المقاولات والبناء ولكنه - على عكس
أقرانه - لم يحقق فيه نجاحاً ملحوظاً ، فاكتمل أخيراً بممارسته من
الجانب الأضعف كعامل بناء بسيط ، والتقى في أثناء عمله
بموظفة يهودية في أحد المتاجر الصغيرة ، وربطتهما قصة حب
تقليدية انتهت بالزواج وأنجب ثلاثة أولاد وبنات واحدة .

وعندما تفتحت عينها (استير) على الدنيا ، وجدت والديها
يعملان طوال الوقت تقريباً ، ثم يحصلان في النهاية على ما يكفي
لحياة بسيطة متواضعة ، لا مجال فيها للاسترخاء أو الرفاهية ..

وعلى عكس أشقاتها الثلاثة كانت (استير) شديدة الطموح ،

لا يمكن أن تقتنع أبداً بحياة محدودة ، أو وظيفة بسيطة بلا مستقبل ، لذا فقد أقبلت على دراستها بشغف واضح ، حتى بلغت المرحلة الثانوية ، وبذلت قصارى جهدها للالتحاق بالجامعة ، على الرغم من قلة موارد الأسرة ، فخرجت للعمل ، وهي بعد في الثامنة عشرة من عمرها ، ونجحت في التوفيق بين العمل والدراسة ، على الرغم مما تتجشمه من متاعب ومصاعب ، حتى حصلت على شهادتها الجامعية ، وتفوقت بهذا على أشقائها ، الذين اكتفوا من الغنيمة بالشهادة المتوسطة ، والتحق اثنان منهم بأعمال البناء مع والدهما ، في حين حصل الثالث على وظيفة بسيطة في مصنع بدائي ..

وفور حصولها على شهادتها الجامعية ، راحت (استير) تبذل قصارى جهدها ، وتسعى في كل الاتجاهات ، للبحث عن عمل جديد بأجر أفضل يتناسب مع ما أحرزته من نجاح .

ولكن النتائج جاءت مخيبة لأمالها على نحو كبير

ففي تلك الفترة لم يكن سوق العمل منتعشاً في (العراق) ، ولا حتى في العاصمة (بغداد) ، مما زاد من نسبة البطالة وصار من الصير على أي شخص مهما بلغت مؤهلاته ، أن يحصل على عمل جيد في مكان ما ..

وهكذا وجدت (استير) نفسها وبعد أربعة أعوام من الكفاح ، مازالت لم تحقق أي تقدم في مجال العمل ، أو تقترب حتى من حالة أحلامها وطموحاتها ..

ولم يكن أمامها ، على الرغم من طموحها ، إلا أن تقتنع بما حصلت عليه ، وتستسلم لشعور مخيف بالإحباط راح يتسلل تدريجياً إلى أعماقها ، ويسيطر على كيانها كله ..

ووسط كل هذا ، اندلعت حرب عام ١٩٤٨ م .

وبكل اللهفة والشغف ، راحت (استير) تتابع أخبار الحرب كما فعل اليهود في كل أنحاء العالم ، وهو ي قلبها بين قديميه لبعض الوقت ، ثم لم تلبث أن رقصت في سعادة عندما اتسمت الأمور لصالح لليهود ، وتم إعلان قيام (إسرائيل) .

كانت (استير) في السابعة والعشرين من عمرها ، عندما بدأ حلم الهجرة إلى (إسرائيل) يرلود اليهود في كل الدول ، وراح ذلك الحلم ينمو في أعماقها ، تذكرة للدعوات المكثفة لمكاتب الهجرة اليهودية ، التي راحت تصف الدولة الجديدة بأنها أرض الميعاد ، وأمل للمستقبل ، وجنة اليهود من كل الجنسيات ..

وعلى الرغم من لهمايتها الشديدة للهجرة إلى (إسرائيل) ، إلا أن الأمر لم يكن أبداً بسيطاً ، حتى إن (استير) احتاجت إلى أربع سنوات كاملة ، قبل أن يتحقق حلمها ، وتهاجر إلى (إسرائيل) في أواخر عام ١٩٥٢ م ، وهي تخطو خطواتها الأولى في عالمها الحادي والثلاثين .

ومنذ الساعات الأولى تحطم الحلم .

لم تكن (إسرائيل) هي الحلم الموعود كما قالت الدعاية ، ولم تكن جنة اليهود كما وصفها رجال الوكالة اليهودية ..

ليس بالنسبة للعراقية (استير) على الأقل .

لقد ظلوا يستجوبونها في (تل أبيب) لثلاث ساعات كاملة ؛ ليتأكدوا من أنها ليست جاسوسة تسعى لدخول (إسرائيل) .

ولأنها عراقية المولد ..

وكان هذا أول مشهد للتفرقة العنصرية الإسرائيلية ، بين اليهود الشرقيين (السفرديم) ، واليهود الغربيين (الاشكنازيم) ..

فكّل اليهود المهاجرين من (أوروبا) و (أمريكا) لم تكن إجراءات دخولهم إلى (إسرائيل) تستغرق أكثر من دقائق معدودة ، في حين تمتد لساعات بالنسبة للقادمين من الدول العربية والإفريقية ..

وخرجت (استير) من الاستجواب مرهقة ..

وغاضبة ..

وتضاعف غضبها بالتأكد ، عندما ألقيها في مستعمرة صغيرة نصف مجهزة ، ضمن عدد كبير من اليهود الشرقيين ، وكان عليها أن تعمل ليل نهار ؛ لتحظى بما لا يكاد يكفى مصروفاتها .

وراح غضب (استير) ينمو ويتزايد يوماً بعد يوم ، وبدأ

لها وكأن أحلامها كلها قد انطفأت ، وماتت ، ولم يعد باقياً سوى دفنها إلى جوار طموحاتها ، في مقبرة الفشل والضياع ..

ثم اندلعت حرب ١٩٥٦ م .

وعلى الرغم من أن (استير) قد فقدت حماسها أو كادت ، تجاه الحلم الإسرائيلي ، إلا أنها شعرت بسعادة بالغة مع اندلاع هذه الحرب ..

هذا لأن الحرب جعلتها تحصل على وظيفة سريرية عسكرية في إحدى القواعد العسكرية الإسرائيلية ، القريبة من خط النار ..

وكانت هذه بداية لمرحلة جديدة في حياة (استير) وتاريخها . لقد أصبحت جزءاً من المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ، التي قالت عنها الدعاية إنها لسطورة مخيفة لا تقهر ..

ومرة أخرى ، أدركت (استير) أن الدعايات تحمل في المعناد ، الكثير والكثير من الكذب والنفاق والتجميل ، وأن الحقيقة دائماً تختلف .

— مرة أخرى أيضاً .. لاحظت العنصرية الشديدة في التعامل والتفرقة الواضحة بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين .

وفي هذه المرة ، كانت النظرة عن قرب ..

وبدقة أكثر .

كل المراكز الحساسة ، والمناصب الكبيرة لا يحصل عليها إلا اليهود الغربيون ..

وهذا يعني أن طموحاتها قد وُثقت في أرض الميعاد ..

وأن أحلامها القديمة تحولت في (إسرائيل) إلى كوابيس .. وعلى الرغم من هذا ، فقد توثبت (استير) بعزلها ، الذي لم يعد أمامها سواء ، والذي لن تحصل على مثله بسهولة خاصة وقد تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمرها ، دون أن تحقق أية طموحات ..

ومن هذا المنطلق ، راحت (استير) تبذل كل الجهد في العمل ، حتى صارت واحدة من أفضل وأبرع الميكانيكيات العسكريات ، وبلغت أخبارها كبار القادة ، مما أهلها للعمل كميكانيكة عسكرية في قيادة سلاح الجو الإسرائيلي ، في أواخر عام ١٩٦٧م.

وكان هذا النجاح أمراً غير مألوف في عالم اليهود الشرقيين .. ولكنه لم يكن سوى قطرة في بحر طموحاتها ، التي لم تنجح في نسيانها قط ، أو احتمال تحطمها وموتها ، في أرض الميعاد المزعومة .

وعلى الرغم من وصولها إلى هذا المركز ، تضاعف شعور (استير) بالغضب من التفرقة العنصرية ، وبالتعاطف مع اليهود الشرقيين وبالترغبة في القيام بأي عمل ، لتحطيم العنصرية والغرور الإسرائيليين ..

وكانت هذه نقطة البداية ..

لقد قضت (استير) أسبوعاً كاملاً في تفكير عميق ، قبل أن تحسم أمرها ، وتتخذ قرارها بالاتصال بالجهة الوحيدة التي يمكن أن تستفيد من موقعها ، ومما تحت يدها من وثائق ومعلومات ، لظن العنصرية الإسرائيلية في مقتل . بالمصريين ..

ولا أحد يدري كيف تم الاتصال بالضبط ، فلم يشر أحد إلى الحقيقة ، ولم يصرح بإعلانها قط حتى هذه اللحظة ، ولكن استناداً إلى عمليات أخرى ، وإلى شيء من الخبرة النظرية في هذا المجال لا بد أن ندرك أنه هناك منات العيون للمخابرات المصرية ، في كل مكان من العالم ، ودون استثناء (إسرائيل) بالطبع ، وأن مهمة هذه العيون لا تقتصر على رصد الأحداث ، وجمع المعلومات وإرسالها بانتظام إلى (القاهرة) ، وإنما يمتد عمل بعضها إلى فرز عدد من العناصر ، في المجتمعات التي تتواجد فيها ، ومراقبتها بدقة وعناية ، والتقرب منها ، إذا ما لزم الأمر ، لسبر أغوارها ، والفوص في أعماقها . وكشف طبيعتها ، وما يتفاعل في نفسها من متاعب ومشاعر واتفاعلات ..

ثم اختبار العناصر الصالحة منها . وترشيحها للعمل لحساب المخابرات المصرية ..

ومن هذا المنطلق ، يمكن القول إن (استير) لم تكذب تتخذ قرارها هذا ، حتى دفعت الظروف أمامها بفتاة مريحة ، وارتبطت بها منذ فترة بصداقة وثيقة لتهمس في أذنها بما جعل جسدها يرجف ، وعقتها يصرخ بكلمة واحدة ، لم تتجح في الفرار من بين شفتيها قط ..

المصريون

وبسرعة غير مسبوقه ، وعلى نحو قد يدهش العاملين في هذا المجال ، ويشير تساؤلاتهم وحيرتهم ، وبمهارة وخبرة غير عاديين من الجانب المصري أصبحت (استير) تعمل لحساب مخابراتنا بحماس مدهش ..

وعلى مدى سنوات عملها لحساب المخابرات المصرية ، قدمت (استير) إلى المصريين أكثر من أربع مائة وثيقة بالغة الأهمية والخطورة ، تكشف الكثير والكثير من أدق وأخطر أسرار سلاح الجو الإسرائيلي .

وفي نهاية سبتمبر ١٩٧٣م أبلغ المصريون (استير) بضرورة السفر إلى قبرص ، في آخر رحلة صيلية ، من رحلات شركات (ماجي تورد) للمباحة ..

وشعرت (استير) بالقلق لهذا الأمر ، وقالت لعميل الاتصال في قلب (إسرائيل) إنها ربما تعجز عن الحصول على إجازة في هذا الوقت ، وعلى التصريح اللازم للسفر خارج

البلا ، إلا أن العميل كرر مطلبه في إصرار ، وطلب منها في صراحة ألا تشغل نفسها بمثل هذه الأمور ، وأن تقدم الطلب إلى رئيسها المباشر فحسب ..

وكم كانت دهشة (استير) عارمة عندما تمت الموافقة على طلب الإجازة وتم إصدار التصريح اللازم لسفرها بسرعة قياسية ، بالنسبة لهذه الفترة من العام ، وللإجراءات التقليدية المتبعة في الجيش الإسرائيلي ..

بل وتضاعفت دهشتها مرتين على الأقل ، عندما وجدت اسمها في الكشف الخاص بالرحلة السياحية ، التي ستسافر إلى (قبرص) ، ظلت (استير) تتساءل عن سر هذه الرحلة المفاجئة ، وما يريده منها المصريون .

وفي (قبرص) ، استقبلها ضابط مخابرات مصري بابتسامة عريضة ، وقادها إلى طائرة أخرى من طائرات (مصر للطيران) وهو يقول : مرحباً أيتها العمدة (استير) .. استعدي .. سنسافر على الفور إلى (مصر) ..

ارتفع حاجبا العمدة (استير) في دهشة بالغة ، وهمت بالتساؤل عما يعنيه هذا ، إلا أنها لم تلبث أن أطبقت شفتيها ، وسارت إلى جوار ضابط المخابرات المصري في صمت نحو الطائرة الراكبة في مطار (قبرص) ، والتي حلفت بعد أقل من نصف الساعة ، في طريقها إلى (القاهرة) .

وهنا لم تكن الأمور أقل إثارة للدهشة ، فقد استقبلها واحد

من كبار ضباط الجهاز ، ورحب بها في حرارة ، وشكرها على كل ما قدمته لوطنه من خدمات ، ثم أخبرها أنها ستحصل مقابل هذا ، بالإضافة إلى كل ما حصلت عليه في السابق ، على شقة أنيقة في حي (الزمالك) الراقي ، وعلى معاش محترم ، وهوية جديدة ، وكل ما يكفل لها حياة رغدة كريمة .

وعلى الرغم من حيرة (استير) ، وتسؤلها عن السر في تقاعدها ، في هذا التوقيت بالذات ، إلا أنها لم تلق أية أسئلة ، وتسلمت شقتها الجديدة . وهي تقدم الشكر للجميع على ما منحوها إياه ..

وفي نفس اللحظة ، التي أغلقت فيها بابها تقاهى إلى مسامعها صوت هليوكوبتر تحلق على ارتفاع منخفض ، ولم يدركها قط أن تلك الهليوكوبتر تضم اللواء - حينذاك - (محمد حسنى مبارك) قائد القوات الجوية ، الذى ينتقل كنحلة نشطة بين القواعد الجوية البعيدة عن العاصمة ؛ ليتأكد بنفسه من أن الاستعدادات النهائية قد اكتملت لإجراء مشروع تدريب بالذخيرة الحية تحدد له صباح السبت ..

وكان هذا جزءاً من خطة التهيئة ، التي اشتركت مع المعلومات التي أرسلتها العامة (استير) ، والمعلومات التي أرسلها غيرها ، من عملاء المخابرات المصرية في الساعات الأخيرة ، قبل اللحظة الحاسمة .

وفي اليوم التالى مباشرة ، صدرت الأوامر ببدء الخطوة (بدر) ..

وحان دور التنصير ..

وفي الثانية وأربع دقائق بالضبط حلفت أول موجة من الطائرات على ارتفاع خمسة عشر متراً من سطح الأرض ، في اتجاه الشمال الشرقى ، مخلفة ضجة هائلة ، قبل أن تبدأ في قصف أهدافها بدقة واحدة .

وكانت هذه هي الخطوة الأولى في الطريق ..
طريق النصر .

★ ★ ★

الساعات الأخيرة

لم تكن عقارب الساعة تعلن تمام الثانية صباحاً ، من بدايات يوم السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ م ، فى إحدى القواعد الجوية ، غرب مدينة (القاهرة) ، حتى استعد طياروها للذهاب إلى ميمن الضباط لتناول طعام السحور . ليوم العاشر من رمضان ، طبقاً لبرنامجهم اليومي شديد التنظيم والدقة ، وما إن اجتمعوا حول موائد الطعام ، حتى دارت بينهم تلك الأحاديث التقليدية ، حول الاستعدادات للحرب ، والتدريبات اليومية ، والمقارنة بين قوة طائراتهم والطائرات الإسرائيلية ..

وفى نفس اللحظة ، التى دارت فيها هذه الأحاديث ، كان الجندي المكلف بحراسة القاعدة يراقب فى اهتمام مشوب بالقلق سيارة (جيب) عسكرية ، تتجه نحوه مباشرة ، يقودها ضابط واحد بلا مرافقين ، وهو يخفى وجهه بقبعة عادية ، من قبعات الضباط الصغار ، ويخفى زيه العسكرى ورتبته بمعطف رسمى ، جعل الحارس يحار فى تحديد هويته بالضبط ، فما كان منه إلا أن شهِر سلاحه فى وجهه ، وهو يصرخ بصوت هادر :

قف .. كلمة سر الليل ..

أوقف الضابط سيارته أمامه ، وألقى إليه كلمة السر الصحيحة فى هدوء وبساطة ، و ..



الساعات الأخيرة

واتسعت عيننا الجندي في دهشة وانبهار ، وهو يحدق في وجهه ذلك القاتم ، وقد تعرف ملامحه ، ثم لم يلبث أن أفصح له الطريق في سرعة واحترام ، وهو يؤدي التحية العسكرية في حرارة .

ورد الضابط تحيته في بساطة ، وهو ينطلق بسيارته مرة أخرى إلى قلب القاعدة ، ويتجه بها إلى ميس الضباط مباشرة ، وعندما أوقفها هناك ، في موضع لا يسمح لأي مراقب برؤيته ، خلع معطفه الرسمي ، واستبدل قبعة بأخرى تتناسب بقصن الزيتون الذهبي على مقدمتها مع الرتبة التي يحملها على كتفيه ..

رتبة للواء ..

وبخطوات واسعة وثقة قوية ، وقامة مشدودة مشوقة ، عبر اللواء مدخل ميس الضباط ، وابتسم وهو يقول :

— صباح الخير يا رجال ..

وكانت دهشة الطيارين عارمة بالفعل ، وهم يحدقون في وجهه ، ثم يهبون واقفين ، ويؤدون التحية العسكرية في حرارة بالغة ، وكل منهم يتماعل في أعماقه عن سر تلك الزيارة المباغتة ، في الساعات الأولى من الصباح ، دون أية إشارة مسبقة لهذا ..

فلالرجل الواقف أمامهم ، كان أعلى رتبة في القوات الجوية ..

كان اللواء (محمد حسني مبارك) قائد القوات الجوية (آنذاك) شخصيًا .. ولم تمض لحظات على وصول القائد ، حتى انضم إلى طياريه على مساندة السحور ، ويشاركهم أحاديثهم حول الاستعدادات للحرب ، وقوة الطيران ، وغيرها .. ثم لتقل الحديث إلى الحرب نفسها ، وعلى نحو شحذ حواس الجميع ، وجعلهم يدركون جيدًا أن الدور الذي تدرّبوا عليه كثيرًا وطويلاً قد حان ..

وأن للحرب القطية لن تثبت أن تندلع ..

وفي غضون ساعات قليلة ..

وبينما يستعد نمور (مصر) لضربتهم الأولى .. التي ستعلن بدء الحرب ، كانت هناك حرب شعواء أخرى تواصل اندلاعها ، وتكثف قوتها أكثر وأكثر ، في تلك الساعات الأخيرة ..

حرب المعلومات ..

قفي قلب (إسرائيل) نفسها ، لم يغمض جفن لعملاء المخابرات ، الذين بذلوا جهداً خرافياً في الأيام القليلة السابقة ، لمراقبة الموقف العسكري ، وأية استعدادات أو تغييرات ، قد تشير إلى عزم العدو أو حتى شكوكه في الخطوة القادمة ..

ومن بين هؤلاء العملاء ، كان العميل رقم (ل ٥٦٤ م) كان أحد خبراء الطيران في الجيش الإسرائيلي ، فقد كان من

الطبيعى أن تقتصر مهمته على جمع كل المعلومات الخاصة
بملاح الطيران هناك ..

وفى يوم الثلاثاء الثانى من أكتوبر ١٩٧٣ م ، بالتحديد ،
بثت المخابرات المصرية رسالة لاسلكية مهمة لعمليتها
(ل ٥٦٤ م) ، فى قلب (إسرائيل) تطنب منه فيها الإفلادة عن
أية تحركات مفاجئة فى تشكيلات سلاح الجو الإسرائيلى ،
اعتباراً من لحظة استقباله لهذه الرسالة ..

وأن يصبح هذا هو هدفه الرئيسى حتى إشعار آخر ..
و (ل ٥٦٤ م) لم يكن أبداً عميلاً عادياً للمخابرات
المصرية ، فى قلب (إسرائيل) ..

لقد ولد ونشأ فى إحدى الدول الأوروبية ، حيث تلقى تعليمًا
جيداً ، أتاح له الحصول على شهادة متقدمة فى هندسة الطيران ،
كان المفترض أن تمنحه وظيفة كبيرة بدخل ممتاز ..

ولكن هذا الحلم لم يتحقق ..
ففى تلك الفترة ، فى منتصف الخمسينيات ، لم تكن دولته ،
التي تلتم جراحها فى بطن ، بعد الحرب العالمية الثانية ، تمتلك
سلاحاً جويًا ، يحتاج إلى مثل هذا التخصص الدقيق ..

وهكذا ، التحق (ل ٥٦٤ م) بوظيفة عادية ، فى واحدة من
شركات الطيران المبنى ، إلا أنه لم يلبث أن أدرك أن معلوماته
وقدراته تفوق بكثير احتياج الطائرات المدنية ، وأنه لن يحقق

ذاته ، لو يؤدى العمل الذى يحلم به ، إلا لو حصل على فرصة
عمل فى الولايات المتحدة الأمريكية .. أو هاجر إلى (إسرائيل) ..
وفى تلك الفترة بالتحديد ، لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من
التفكير ، فاندعايات اليهودية المكثفة ، كانت تقنع الجميع بأن
(إسرائيل) هى الجنة الموعودة ، لكل يهود العالم ، وأن كل
شخص يمكن أن يحصل فيها على فرصة العمر ..

وهكذا حزم الشاب المتحمس حقائبه ، واستعان بديانته
اليهودية ، وسافر إلى (إسرائيل) ..

وعند وصوله ، لم يجد الشاب غضاضة فى سبيل الأسيلة ،
الذى انهمر عليه لساعتين كاملتين ، اقتناعاً منه بأن أرض
الميعاد مستهدفة من جيرانها العرب ، وأنه من الطبيعى أن
ينشط جهازها الأمنى ، بمنع أية محاولات لاختراق جنة الأحلام
المنتظرة ..

ونكن الصدمة الحقيقية كانت عندما ألقوه فى مستعمرة
صغيرة ، وأسندوا إليه عملاً زراعياً بسيطاً ، لا يتناسب قط مع
مؤهلاته وقدراته ..

وهنا فقط ، راح الشاب يعيد تقييم موقفه ..
ويعيد التفكير فى أرض الميعاد كلها ..
وفى الوقت ذاته ، راح يقاتل للفوز بالوظيفة التى يحلم بها
طيلة عمره ..

ولم يتحقق الحلم إلا بعد خمس سنوات كاملة ، وفي عام ١٩٦١ م بالتجديد ، عندما التحق بوظيفة بسيطة في القسم الهندسي بسلاح الطيران الإسرائيلي ..

وبذل الشاب قصارى جهده ليثبت أنه أهل للوظيفة وأنه يستحق ما هو أفضل منها ، ولكن أهدأ لم يلتفت إليه ، أو يهتم بأمره ، على الرغم من براعته للشديدة في عمله ، وتفوقه الملحوظ فيه ..

وفي بطنه ، راح الشاب يترقى في عمله ، كأي موظف عادي ، والحنق في أعماقه يتزايد ويتزايد ، وأحلامه تتلقى الصفعة تلو الصفعة ، ولا أحد يرغب في الالتفات إليه ، أو تقدير ما يفعله .. ثم اندلعت حرب ١٩٦٧ م ، التي حققت فيها (إسرائيل) انتصاراً ساحقاً ، أصاب جنرالاتها بزهو لا مثيل له ، وأسكرهم بنشوة النصر ، فراحوا يتخيلون ، ويعلنون الظفر والنشوة في كل موقع وكل لحظة ..

وفي للعام نفسه ، أصبح الشاب - رسمياً - أحد خبراء الطيران ، في سلاح الجو الإسرائيلي .. إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، لم يعامل كما يستحق ، أو كما يتناسب مع مؤهلاته الفعلية ، وقراته المتميزة ..

وهنا ، تفجرت ثورته في أعماقه ، وبدأ يفيض المجتمع الإسرائيلي ويستكره ، ويضيق بزهو الجنرالات ، الذي جعلهم

يتصورون أنهم فوق الجميع ، وجعلهم يسيئون معاملة الكل على نحو مستفز ، ويدعون أنهم وحدهم سبب كل ما تحقق من انتصارات .. وفي حسم ، اتخذ الشاب قراره بالعمل لحساب المصريين .. ولسبب ما ، كان يثق تمام الثقة ، بأن نكسة يونيو لن تكون نهاية الصراع ، وأن المصريين قد تلقوا ضربة عنيفة ، ولكنهم لم يسقطوا ، وبما نهضوا من كبوتهم ، وكلهم حماس للنار مما حدث ، والانتصار في الجولة للقائمة والأخيرة ..

ولأن الشاب كان يحتل موقفاً جيداً ، من وجهة نظر رجال المخابرات المصرية ، وربما لأن أمره لم ينكشف أبداً ، أو لاعتبارات أخرى أمنية ، لم يكن من الممكن أن نحصل على أية تفاصيل خاصة بكيفية اتصاله بالمخابرات المصرية ، في منتصف عام ١٩٦٨ م ، ولا بالوسيلة التي تم اتباعها للتحقيق في صدق نيته ، ولكن المهم أنه مع بداية عام ١٩٦٩ م ، كان الشاب يعمل لحساب المخابرات المصرية ، بكل الحماس والإخلاص ، ويعمل الرمز (ل ٥٦٤ م) ..

نفس الرمز ، الذي ظل يحمله ، حتى نهاية عام ١٩٧٣ م .. وطوال تلك الفترة ، التي عمل خلالها لحساب المخابرات المصرية ، لم ينخر (ل ٥٦٤ م) جهداً ، لإمدادنا بكل ما يمكنه للتوصل إليه من معلومات ، حول سلاح الجو الإسرائيلي ، وتطورات ، وتحركاته المستمرة ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد كانت للجوادر الرياح كبوة ..
ومن سوء حظه أن هذه الكبوة جاءت في أكثر الساعات
حساسية ..

في الساعات الأخيرة ، قبل اندلاع حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ م ..
ففي العاشرة وثلاث عشرة دقيقة من صباح يوم الحسم ، وصلت
إلى المخابرات المصرية برقية عاجلة ، من (ل ٥٦٤ م) تقول :
وصل إلى قاعدة (رامات دافيد) السربان (١٠٩)
و (١١٦) ، بالإضافة إلى سرب الهليكوبتر (١٢٤) .
وكان لهذه البرقية وقع الصاعقة على رموس الجميع ، في
تلك الساعة بالتحديد ..

فما الذي دفع الإسرائيليين إلى تحريك هذه الأسراب الثلاثة
إلى الشمال ؟!

هل انكشفت للعدو تلك الاستعدادات ، التي تجرى بنفس
الدقة والتكتم ، في الجبهة السورية ؟!
هل تسربت إليه أنباءها ؟!

ولو أن هذا ما حدث ، فماذا عن الجبهة المصرية ؟!
هل يعنى كشف استعدادات الجبهة السورية أن للخطة كلها
قد انكشفت عند الجانبين ؟!

وعلى أى حال كان الجواب ، ومواء لكات الاستعدادات
المصرية قد كشفت هي الأخرى أم لا ، فهذا يعنى أن العدو قد
انتبه إلى الضربة القلابة ..

وهذا يفند كل شيء ..

ولكن طبيعة العمل في أجهزة المخابرات لم تكن تسمح بالتوقف
عند أية نقطة ، مهما بلغ توتر الأمور ، وحساسيتها ..

وحتى في الساعات الأخيرة ..

لذا ، فقد راح رجال المخابرات يعيدون دراسة وبحث
الموقف ، فطلب أحدهم إعادة ترجمة البرقية في قسم الشفرة ،
في حين راح آخر يراجع كل المعلومات المتوافرة ، حول
الأسراب الثلاثة ..

والخطوة الأخيرة بالذات ، أضافت إلى الجميع المزيد من
القلق والمزيد من القلق ..

فقد اتضح أن السربين (١٠٩) ، و (١١٦) ، مكونان من
الطائرات المقاتلة (مستير ١٤) وهي طائرات شديدة البأس ،
كما أن السرب (١٢٤) هو أحد ثلاثة أسراب من طراز
الهليكوبتر (سيكو رسكي) ، الخاصة بالقصف الجوى والإبرار ..

وهذا يعنى أن العدو قد انتبه ..

وتربص ..

وتكهرب الجو إلى أقصى حد ، مع ذلك التطور المبالغ ، في
الساعات الأخيرة ..

لقد بدأ العد التنازلي بالفعل ، ولم يعد من السهل التراجع عن الموقف ، أو اختيار موعد بديل لشن الحرب ..

وفي حزم ، قال أحد ضباط المخابرات ، وهو يراجع البرقية للمرة العاشرة ، وماذا لو أن (ل ٥٦٤ م) قد أخطأ في الإرسال ..

سأله أحد زملائه في حيرة :

- ماذا تعني بهذا ؟

أجابته في حماس :

- لقد تأكدنا بالفعل من أن الاستقبال سليم ، وترجمة البرقية في قسم حل الشفرة لا تشوبه شائبة ، وهذا يعنى أن الاحتمال الوحيد هو أن عميلنا قد ارتكب خطأ ما في الإرسال .

أشار إليه زميل آخر ، قاتلاً :

- إننى أؤيد نظريتك هذه ، فقد راجعت خرائط توزيع التشكيلات الجوية الإسرائيلية لدينا ، ووجدت أن الأسراب (١٠٩) ، و (١١٦) ، (١٢٤) ، كانت بالفعل في قاعدة (رامات دافيد) ، عندما تم رصدها لآخر مرة ..

كان هذا القول محيراً أكثر ، لذا فقد اتخذت مجموعة لصل قراراً عاجلاً حاسماً ، بإرسال برقية للعميل (ل ٥٦٤ م) ، لدفعه إلى إعادة بث رسالته ، بعد مراجعتها ، والتأكد من كل ما ورد بها ..

وفي العاشرة وتسع وخمسين دقيقة ، حملت موجات الأثير

برقية عاجلة من العمدة (ليليان) إلى (ل ٥٦٤ م) ، تطالبه فيها بالإفادة عن صحة برقيته الأخيرة ، واستمر بث هذه البرقية لسبع دقائق مستمرة ..

وجلس الجميع ينتظرون الرد ..

وكعادتهم ، لم يضع الرجال وقتهم في الانتظار وحده ، وإنما فردوا أمامهم خريطة كبيرة ، تنتشر فيها دوائر حمراء ، يتوسط كل منها سهم أزرق ، مع مئات من الأرقام والرموز الملونة ، التى تعنى الكثير والكثير ، بالنسبة للخبراء والفنيين ، وراحوا يراجعون تحركات أسراب الطيران الإسرائيلية وتشكيلاته ، طوال الأشهر الثلاثة الماضية ..

وفي أعماقهم ولأول مرة في حياتهم ، كان الجميع يتعمنون لو أن البرقية ، التى وصلتهم ، لم تكن صحيحة ، وأن ما ورد بها من معلومات يحوى الكثير من الخطأ ..

وفي الحادية عشرة ، وثمان وعشرين دقيقة بالضبط ، أبلغ قسم الاستماع عن وصول البرقية المنتظرة .. وخفقت القلوب كلها في لهفة ..

ولأول مرة أيضاً ، وعلى الرغم من مخالفة هذا لأبسط قواعد التجسس وعلم المخابرات ، وطلب الرجال من خبير الشفرة بحضور البرقية إلى حجرة الاجتماعات ، وترجمتها كلمة بكلمة أمام عيونهم ..

ومع ترجمة أول كلمة ، انطلقت فى أعماق الجميع زفرات
الارتياح ..

فلقد استبدل (ل ٥٦٤ م) ، كلمة (وصل إلى) إلى (وجد
فى) ..

وهذا يغير معنى البرقية تمامًا ..

وكما علموا فيما بعد ، فقد زار (ل ٥٦٤ م) قاعدة (رامات
دافيد) كجزء من عمله ، وعندما وجد تلك الأسراب الثلاثة
القوية هناك ، أسرع يبلغ المخابرات المصرية بأمرها ، ناسيًا
أن مهمته ، فى هذه الفترة بالتحديد ، هى الإبلاغ عن أية
تحركات مفاجئة ، وليس عن التشكيلات الثابتة ، مهما كانت
أهميتها وقوتها ..

وكانت هذه هى أكبر كبوة وقع فيها الصيل (٥٦٤ م) ..
ربما لأنه شعر أن وجود هذه الأسراب الثلاثة معًا يمثل قوة
كبيرة ..

أو لأنه لم يكن يدرك أن الحرب على الأبواب ، وأن
التحركات المفاجئة تُهم الرجال فى (القاهرة) ، بأكثر مما
يهمهم أى شئ آخر ، فى تلك المرحلة ..

ولكن العجيب أن الجميع تنفسوا الصعداء لهذا الخبر ، وأبلغوا
به القيادة العسكرية والسياسية ، التى تنفست الصعداء بدورها ،
وواصلت عدها التنازلى لبدء حرب أكتوبر العظيمة ..

ومن المؤكد أن (ل ٥٦٤ م) قد تلقى تدريبًا مكثفًا بعد هذه
الواقعة ، حتى لا يتكرر منه هذا الخطأ قط ، مهما كانت الظروف ..

وأن رمزه قد تغير إلى آخر ، لا يمكننا الادعاء حتى بمعرفته ..

ولكن المهم أن كبوته لم تفسد الأمور ، وأنه فى تمام الثانية
وخمس دقائق ، من ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م ، وبعد
اثنى عشرة ساعة بالضبط ، من زيارة قائد القوات الجوية
لضباطه ، كانت المقاتلات المصرية تعبر قناة السويس ؛ لتضرب
ضربتها الأولى ، وتعلن بداية الحرب الحاسمة ونهاية ساعات
التوتر والقلق ..

الساعات الأخيرة ..

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة

1 حرب الجواسيس

الذئب



التمن في مصر ٢٠٠٠
وما يقابلها بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

مطابع
الكتاب



د. نبيل فاروق

صراع العقول
الذي يتفوق
دوما على أعني
الأسلحة والمعدات

